دكان الحاج رضوان

اسـم الكتـاب: دكــــان الحــــاج رضـــوان

التـأليــــــف: عــــاطف رضـــوان المـــومني

نـــوع العمـــل: روايـــــــــــــــــــــة

مراجعـة وإخـراج فنـي عمـــرو ســـــالم ســــواح

رقـــم الإيــداع: 2020/ 17913

الترقيم الـدولي: 978-977-835-210-8

الـــنـــاشــــر: دار زحمة كتاب للنشـــر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

Facebook دار زحمة كتاب للنشر

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل

من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

دكان الحاج رضوان

الكاتب
عاطف رضوان المومني

مُقَدِّمَة

نحن الآن في أواخر عام ٢٠٢١.

في الأمس القريب كنت في (عبين عبلين) كونها مسقط رأسي، ولي فيها الأهل والأقارب، والأصدقاء والأملاك، والملك لله.

عبين عبلين بلدة تابعة لمحافظة عجلون شمال الأردن، يبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألف نسمة، لاحظت مدى التطور الذي حدث عليها خلال مدة قصيرة من الزمن حتى أصبحت مدينة وفقدت بكارتها القروية وطابعها الريفي.

شاهدت القصور الفارهة، والفلل الفاخرة، والبنايات الشاهقة، والأسواق التجارية... وصار فيها جامعة، ومستشفى، وفندق، وصالات أفراح على مستوى عال، وتخللتها شبكة من الطرق المعبدة، والمزارع الحديثة، حيث إن البلدة منطقة زراعية يشتغل معظم أهلها بالزراعة. لكنها لا تزال تفتقر إلى شبكة الصرف الصحي وهي قريبة بعون الله.

وعلى الرغم من الهجرات المتتالية من أبناء البلدة إلى أنحاء العالم كافة إلا أنها ما زالت جاذبة، وتستقطب أعدادًا من السكان من شتى أنحاء المملكة، بل من الخليج أيضًا. فأشبه ما تكون هجرة معاكسة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن أغلب المهاجرين منها -وأنا منهم- قد عادوا وبنوا بيوتًا فيها ولم ينقطعوا عنها.

معالم كثيرة زالت واختفت وحل محلها بنايات، لكن الأمر المفرح بالنسبة لي أن البيادر ما زالت صامدة ضد محاولات الاغتصاب وكذلك ملعب المدرسة، هذان المَعلمان لي فيهما ذكريات لا تنسى، وقد أشرت إليهما في هذه الرواية بإسهاب.

بطل الرواية ممدوح شخصية اعتبارية ليس له علاقة بتشابه الأسماء، هو ابن كل محافظة من محافظات المملكة، تسلق على ظهور البسطاء وأغراهم بالمال فانتخبوه لمجلس النواب على الرغم من سوء أخلاقه وجهله.

وكل الأسماء المذكورة والأحداث الواردة في هذه الرواية تنطبق على كافة مدن وقرى المملكة وليس المقصود بها عبين عبلين بالذات كما أنها من محض الخيال وليس لها علاقة بالأشخاص الحقيقيين في حال تشابه الأسماء. أما الحقائق التاريخية فقد كتبت في الهامش.

أتمنى لكم قراءة ممتعة واقبلوا محبتي أنا المؤلف:

عاطف رضوان مفضي المومني

كتبت في الدوحة عام ٢٠٢٠

*****

ملخص الرواية

تتألف الرواية من تسعة فصول وخاتمة بواقع أربعين ألف كلمة.

تتحدث الرواية عن واقع حياة بين الريف والمدينة في الأردن من أوائل ستينيات القرن المنصرم حتى بدايات القرن الحالي فنشاهد الجد العائد من الغربة يروي لأحفاده عن ماضي بلدتهم عبين وهي الآن مدينة في شمال الأردن. حيث تدور الأحداث والحكايات أمام دكان الحاج رضوان يتخللها:

- وصف لموسم الحصاد وتسليط الضوء على البطل ممدوح.
- الأحاديث أمام الدكان عن معركة الكرامة وحرب الاستنزاف ضد إسرائيل.
- أغاني الحصادين وتعاليلهم.
- كما تتعرض الحكايات لحرب حزيران وما تبعها من أحداث ونشأة العمل الفدائي في الأردن وأحداث أيلول وحرب تشرين.

- كما تتناول الرواية التحولات التي طرأت على المجتمع الريفي خلال تلك الحقبة من الزمن وتسليط الضوء على بعض العادات كالثأر والجلاء وغيرها.

- حرب أكتوبر وعودة الفدائيين بعد العفو عنهم، وعودة ممدوح معهم. لكنه لم يرجع إلى البلدة، عاد إلى العمل في عمان على سيارة لبيع الخضار والفواكه.

في الخاتمة:

تسليط الضوء على واقعٍ مؤلمٍ في الحياة السياسية وخاصة النيابية في الأردن حيث إن المال يلعب دورًا في وصول الجهلة إلى أعلى المراتب فنشاهد البطل ممدوح استغل ثروة زوجته وفاز بمقعدٍ نيابي وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ثم تخلى عنها وتزوج غيرها.

*****

دكان الحاج رضوان

رواية للكاتب / عاطف رضوان المومني

فصل ١

عاد بعد رحلةٍ طويلةٍ في بلاد الغربة، وقد أدى واجباته كلها تجاه وطنه وأسرته واستقر به المقام في عمان بعيدًا عن مسقط رأسه (عِبِّين- عبِلّيْن) القرية العجلونية الوادعة. ليجد أحفاده وقد كبروا وراحوا يلتفون حوله في تلك الأمسيات يحدثهم بأحاديث شتى تروق لهم وتستهويهم.

سأله حفيده ذات يوم:

لماذا يا جدي تذهب كل يوم إلى عبين، هل تحبها أكثر من عمان؟

رد عليه: نعم يا بني، فيها ولدت، وعلى ترابها نشأت، وفيها أقاربي وأصدقائي والأهم من هذا كله، فيها أراضينا التي ورثناها عن أجدادنا، ألا يكفي هذا لأحبها؟

- لكن يا جدي، عمان فيها أولادك وأحفادك وأقاربك وأصدقاؤك أيضًا.

- صحيح يا بني، ومن قال لك إنني لا أحب عمان؟! عمان يا بني، هي القلب النابض، وبقية الأرجاء يغذيها هذا القلب بالعزة والنماء، لكنني أحن إلى مرابع الصبا وأيام الطفولة، ولي فيها ذكريات جميلة لا أستطيع نسيانها.

واصل الغلام أسئلته التعجبية وقال: حدثني يا جدي، كيف كانت حياتكم هناك بلا ماء وكهرباء ولا حتى سيارات؟!

رد عليه بحنو بالغ وهو يجلسه بجانبه وقد تحلق حوله كل أفراد العائلة الصغار والكبار:

- حسنا، سوف أحدثكم على شرط أن تذهبوا إلى النوم بعد سماع الرواية... موافقون؟

ردد الجميع خلفه: "موافقووون".

قال: إذن فاستمعوا جيدًا...

على جنبات ذلك الطريق المعبد حديثًا تنتشر الحقول المسيجة بجدران حجرية، يتهادى حتى يصل وسط القرية الصغيرة الوادعة، فتطالعنا بعض الدكاكين على اليمين وعلى الشمال، وعددها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. تتفرع منه طرقات ترابية توصل السكان إلى بيوتهم.

وعلى مقربة من المسجد الوحيد الذي يقبع على رأس تلة مطلة على الأرجاء، يقع دكان الحاج رضوان على مفترق تلك الطرق. هذا الدكان كان واسعًا لما يكفي أن يكون مثابة مقر ثقافي واجتماعي إذ يحتوي على مساحة لا بأس بها يجلس بها أصدقاء الحاج في أوقات فراغهم يتناولون الأحاديث السياسية والاجتماعية، وأحيانا يمارسون لعبة النرد في جو تنافسي يبعث على البهجة.

ليس هذا فحسب، بل كانت معظم مشاكل أهل البلدة تجد حلولًا لها في هذا الدكان، وكان يعد نقطة تجمع لأبناء العائلة فيما إذا أرادوا المشاركة بواجب فرح أو عزاء.

وكان أهل البلدة متعاضدين مع(المناقيص) وهم أهل الميت فيحملون معهم ما تيسر من الأرز والسكر والشاي والقهوة اليمنية وحب الهال ويتشارك أبناء العائلة في دفع التكاليف.

يستمر العزاء ثلاثة أيام تتكوم فيها أكياس الأرز والسكر والقهوة والهال في بيت أهل المتوفي فيقومون ببيع الفائض عن حاجتهم إلى الحاج رضوان وبقية الدكاكين الأخرى وهكذا تكون بضاعتهم ردت إليهم.

أما من تخاصم مع زوجته فتركت بيتها وذهبت إلى بيت أبيها فيتولى نفرٌ من الأخيار من علية القوم ممن لا يرد لهم طلب -وعلى رأسهم أبو عادل- إعادتها وتطييب خاطرها، ولكن الجميع كانوا يقفون عاجزين عن رد المطلقات البدائل، والبدائل هي أن يتبادل رجلان الزواج كل من أخت الآخر، وإذا ما حصل نزاع وشقاق بين رجل وزوجته وطلقها فيقوم الآخر بتطليق أخت الرجل وهي لا ذنب لها وربما أنه كان يحبها وتحبه لكن تأخذهم العزة بالإثم.

ما بين صلاة وصلاة وعلى مقربة من الدكان يتجمع نفرٌ من كبار السن، يجلسون خلف الجدران، يتداولون أحاديث شتى، ولا يخلو الأمر من الغمز واللمز على المارة.

أما من يجلسون أمام دكان الحاج رضوان، والمكنى بأبي عادل، كان جلهم من النخبة من بينهم المعلم الشاب، والشيخ الجليل، والموظف. ولا يخلو الأمر من مشاركة رجال الدين وأحيانا الفتيان تلك الجلسات.

السمن، والزيت، والطحينة، والحبوب، والبيض وعلب السردين، والقضامة، والكعكبان، والراحة، والبسكوت، وتوفي ناشد أخوان، بالإضافة إلى الكاز والإسبيرتو، وقناديل الكاز والمكانس، المصنوعة من القش كانت تشكل الجزء الأكبر لما يحتويه الدكان، إضافة إلى بعض أصناف من الخضار كالبندورة، والبطاطا، والبصل، وغيرها.

ولا ننسى ذلك الشريط اللزج الذي يتدلى من السقف ليلتصق به الذباب، ولا يخلو الأمر أحيانًا من صوت استغاثة فأر أمسكت به إحدى فخاخ[١] سعيد النوري.

وفي الفناء عدد من مقاعد خشبية قصيرة الأرجل، مكعبة الشكل، نسج وجهها العلوي بسعف النخيل يجلس عليها الرجال القرفصاء، يتبادلون الأحاديث، ويستمتعون بما تجود به يد أم عادل من الشاي والقهوة السادة.

تدور يد المحماس تقلب حبات البن اليمني الخضراء اللون يمنة ويسرة حتى تحمر وتكتسب لونها البني الداكن، لتستكين في جرن المهباش، فتسمعه يئن شاكيًا من ضربات يده المزركشة التي يصدر عنها نغمات تشنف الآذان.

هذا الضجيج المنبعث منه رائحة القهوة الزكية لا يسكن في بيتها طوال العام، لا تجاريها في ذلك إلا امرأة المختار.

وفي المساء، وبعد صلاة العشاء، يأوي كل منهم إلى بيته ولا تحلو الأمسيات إلا بتبادل الزيارات الليلية بين الأقارب والأصدقاء.

هذا العام كان الحدث الأكبر، الذي خيم الحزن فيه على أبناء القرية كافة.

- لماذا يا جدي؟ سأله حفيده.

- كان يومًا عاصفًا من أيام كانون، سُحب من الغبار تحمل في طياتها خليطًا من الأكياس البلاستيكية، وقصاصات أوراقٍ تتأرجحُ في السماء، تعلو وتهبط وتواصل السير حثيًا تحملها الزوابع إلى أن تصطدم بجدار، أو تحتمي بشجيرات تناثرت هنا وهناك.

---

١ - مصائد مصنوعة من الأسلاك تستخدم لصيد الطيور.

صفير رياح قوية جافة تصاحبها برودة شديدة وصلت حرارتها إلى الصفر. أغلقت الدكاكين أبوابها، وأخلى طرقات البلدة الضيقة روادها، فتراها بلدة أشباح وقد خلت من المارّة إلا من بضعة رجالٍ كانوا يحاولون الجري متجهين إلى منازلهم، تدفعهم الرياح تضربهم بصدورهم، تحد من سرعتهم وهي تلفح وجوههم فيسيرون مجانبة كالسلطعون وقد تلثم كل واحد منهم بشماغه..... ويواصلون السير كالسلاحف.

أصوات نباح الكلاب التي كانت لا تتوقف عن النباح باتت مكتومة؛ إذ تقوقعت على نفسها في ركن يحميها من الرياح والبرودة، واختبأت الطيور في جحورها وأعشاشها.

سكون وصمت لا يكسره إلا جيوش تلك الرياح والرعود المزمجرة، تسمع صوت هديرها، تحس بلسعة بردها ولكنك لا تراها، لكنها موجودة تعانق أغصان الأشجار في كل هجمة، فتضطرها إلى الميل نحو الشرق ثم تتراجع قليلاً لتعيد لها توازنها فتنتصب واقفة تعانق السماء، مصدرة ذاك الحفيف الذي يوحي بوحشة المكان.

وعاد الرعاة من أماكن رعيهم باكرًا على غير عاداتهم، وانطلقت الشياه والأبقار مسرعة إلى زرائبها.

الحاج قاسم والحاج عبد الحميد واللحام محمود أغلقوا متاجرهم. وكذلك الحاج رضوان أيضاً والذي يغلب عليه اسم "أبو عادل" مثله مثل بقية أصحاب الدكاكين أغلق متجره باكرًا، تلحف بفروته وتلثم بشماغه الأحمر وعاد إلى منزله على عجالة.

سكان هذه البلدة معتادون على الأجواء الباردة، لكن هذه الرياح، بشهادة الجميع، لم يسبق لها مثيل، فقد اقتلعت بعض الأشجار من جذورها وتحطمت أغصان أختها، وحتى سقوف (الزينكو) اقتلعتها من أماكنها وتطايرت شظاياها في الفضاء. إنهم يرتدون الملابس الصوفية الدافئة للحفاظ على درجة حرارة أجسادهم.

في غرفة واسعة مفروشة بالبسط التي صنعتها نساء البلدة بأيديهن، واصطفت فوقها النمارق يجلسون متكئين على الأرائك بانتظار ما ستجود به يد أم عادل من طعام لوجبة العشاء.

اللبنة والزيتون، معقود العنب والتين، والمكدوس، وقليل من الزبدة البلدية... وعلى حواف الطبق ربضت جنود من أرغفة خبز الطابون المحمر الذي خبزته أم عادل في فرن الطابون.

وها هم يتحلقون في تلك الليلة بعد أن تناولوا طعام العشاء حول ذلك الموقد الذي ثُبِّتَ في وسط غرفة الجلوس، وبالمناسبة هي غرفة واحدة للطعام والجلوس، وللضيوف، وللنوم وحتى للاستحمام.

على الجانب فوق سقالة إسمنتية رتبت أم عادل فرشات الصوف واللحف بشكل متوازن في ما يسمى المطوي، ذلك لأنهم كانوا يطوون الفرشة ويضعونها فوق بعضها لتوفير المساحة.

في الوسط مدفأة تم تجهيزها خِصِّيصَى لإشعال الحطب [٢]. لها فتحة من

---

[٢] ما زالت حتى يومنا هذا ولكن حل الجفت محل الحطب، والجفت هو المخلفات الناتجة عن عصير الزيتون.

الأمام لتلقيمها بالحطب وفتحة من منتصف سطحها تسمح بخروج الحرارة، تستعمل للطهي أو لغلي الماء والشاي، وأحيانًا يكون لطعم الخبز المحمر فوقها لذة لا تضاهيها لذة، ولها من الخلف ذيل ثبتت به أنابيب صنعت من الصاج الرقيق مهمتها لحمل الدخان المتصاعد تسمى (بوري)..... تنفثه في الهواء، مارة من فتحة دائرية صغيرة في وسط السقف أُعدت لهذه الغاية..

عادل وإخوانه في حيرة من أمرهم، هل يقومون بحل واجباتهم المدرسية أم ينتظرون ما ستجود به السماء؟ ويسأل أباه هل ستغلق الطرقات غدًا وتعطل المدارس يا أبي؟ فيجيبه:

- حسب الحالة الجوية يا بني، إن أثلجت ستعطلون وإن لم تثلج ستذهبون.

اليوم لجهاز الراديو نكهة خاصة لكنها بالتأكيد ليست كنكهة بيانات حرب حزيران، أو معركة الكرامة، أو اغتيال هزاع المجالي ووصفي التل، أو وفاة جمال عبد الناصر. هذه نكهة مطعمة بوخز الجليد. تحلّق أهل المنزل أمامه ينظرون إليه بعين حانية كما تنظر الأم إلى وليدها القادم من المدرسة يحدثها عن بطولاته ونجاحاته الوهمية.

جهاز الراديو اليوم هو العريس الذي يتجمع الناس حوله يغدقونه بالمحبة والتبجيل، كيف لا وهو من سينبئهم بما هو آت؟

كل يوم يستمعون إلى نشرة الأخبار، وما كانت الأخبار لتهمهم لكن ما يهمهم هو ذاك الزائر الأبيض القادم من قبرص متى سيصل؟

الدخان يتصاعد من مداخن المنازل، وكلٌ آوٍ إلى بيته، فالأجواء باتت منذرة بقدوم أمر جلل...

ساد الصمت واشرأبت العيون وأطرقت السمع الآذان وخيم الصمت على المكان:

ها هي النشرة الجوية تزف لهم الخبر فليستعدوا.

سكوووووت.... سمااااع. صاح بهم الحاج ليصغوا.

ساد صمت شامل حتى إنك تسمع دبيب النملة.

أما الآن فنترككم مع المتنبئ الجوّي والنشرة الجوية فليتفضل.

الأخوة المستمعون، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

سيداتي سادتي،

تشير خارطة الأرصاد الجوية إلى أن هنالك منخفضًا جوًّيا تصاحبه رياح قوية باردة قادمًا من قبرص... هذا وقد بدأت الرياح الباردة هبوبها فعليًّا على شمالي البلاد ومن المتوقع تراكم الثلوج على كافة مناطق المملكة مساء هذا اليوم...

وعليه فإننا نهيب بالأخوة المواطنين توخي الحيطة والحذر وعدم الخروج من منازلهم إلا للضرورة القصوى.

نتمنى لكم ليلة سعيدة وتصبحون على خير.

إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان والقدس.

لم يستطع عادل وإخوانه إخفاء شعورهم وفرحتهم لهذا النبأ.

يبتسم الحاج رضوان بعد أن أغلق جهاز الراديو مشاركًا أبناءه سرورهم لقدوم هذا الضيف المزعج ويلتفت إلى أم عادل: "ماذا فعلتم بالحلال؟" يقصد البهائم.

ردت: حلبناها وأدخلناها جميعها إلى زرائبها، ولدينا ما يكفينا وزيادة من الأعلاف والحمد لله.

لكنه لم يطمئن قلبه لما سمع، وليغلب وساوسه تدثر بفروته وتلثم بشماغه واتجه إلى الحضيرة، وبعد أن تفقدها واحدة واحدة، وأعلفها واطمأن عليها، أغلق البوابات بإحكام خوفًا من اقتحام الضواري أو لصوص المواشي الذين كانوا عادة ما يستغلون مثل هذه الظروف، وقفل عائدًا يتابع السهر مع العائلة.

ما زالت الرياح العاتية تدق طبول الحرب على أرجاء تلك البلدة الوادعة، فلم تعد تسمع إلا أزيزها، وحفيف الأشجار المتلاطمة أغصانها من شدتها. وفجأة صمتت تلك الطبول واستسلمت جميع الكائنات، رافعة أيديها برايتها البيضاء، سامحة لجبروت هذا المنتصر ببسط نفوذه على كل شيء... نعم كل شيء. كان احتلالًا كاملًا... وعمّ الأجواءَ صمتٌ تنبعث منه رائحة الموت.

نظر عادل من خلال النافذة فشاهد منظرًا جميلًا، فغمره السرور، ولم يستطع إخفاء سعادته وهو يقفز ويلحن: "بكرة عطلة... بكرة عطلة".

لقد بدأت تلك الحبيبات الناعمة تتسابق للوصول إلى كل الأماكن بهدوء، وخلد الجميع إلى النوم بانتظار ما ستلده تلك الليلة الحبلى.

إنه مولودٌ جميلٌ ذو حلة بيضاء، غطى وجه الأرض وأسطح المنازل... وأما البساتين فلم تعد تستبين أشجارها...أيها لوز وأيها تفاح؟

وراحت أشجار الزيتون ترزح تحت جبروت هذا الاحتلال مثقلة بأحمالها، تئن وتشتكي... وتندب أغصانها المتكسرة.

استيقظ الحاج رضوان لصلاة الفجر، وعندما هم بالخروج ليفتح الباب شاهد منظرًا يكتم الأنفاس... يا إلهي... المنزل مدفون عن بكرة أبيه تحت الثلوج!! لكن... لا بد من الخروج، فكيف السبيل؟

حمل ابنه الصغير ورفعه لأعلى الباب وقال له: هيا يا بني، تدحرج وافتح لنا فسحة لنستطيع الخروج منها.

وهكذا تمكنوا من شق نفق يسمح لشخص واحد بالمرور من خلاله.

وراح الناس يزيلون الثلوج المتراكمة عن أسطح المنازل وعن عتبات بيوتهم بهمة ونشاط. لكن الثلوج استمرت بالتساقط ليلتين متواصلتين دون توقف، وأصبحت البلدة معزولة عن العالم بصورة تامة، لا عمل لهم إلا الاعتناء بماشيتهم والاستماع إلى الراديو.

يتلذذون بما تجود به أيد النساء من شهي الأطعمة. وفي الثلج لا صوت يعلو فوق صوت المفتول فهو سيد الموقف بلا منازع.

تطل عليهم سميرة توفيق فيرددون معها:

يا هلا بالضيف ضيف الله على حساب الروح إي والله!

ما بنرضى تروح من عنا ما بنرضى تروح لا والله!

ويحلو في تلك الليالي التزاور والسهر عند الأقارب وتبادل الأحاديث التي غالبًا ما كانت تدور حول الموسم والحراثة والزراعة، ولا تخلوا البيوت التي تنبعث من فتحات أبوابها شعاعات من ضوء مصابيح الكاز المعلقة على الجدران لتنبئ بوجود تعليلة في هذا البيت المتواضع.

أصوات السمار تعلو تارة وتهبط تارة أخرى يلعبون (الشدة)، وكانت لعبة الباصرة هي الشائعة آنذاك.

والشحرورة صباح تطربهم بشدوها، فينهض أبو صافي، وكان صديقًا مقربًا لأبي عادل يبادله الزيارات، ينهض على قدميه كلما فاز بباصرة ويغني معها:

قوم تا نلعب باصره... والشاطر ياخذ باصره!
واللي بيخسر يا محبوب... بدو يمشي بالمقلوب
من البرج للناصرة!

وهذا أبو سليم كلما فاز بباصره يقوم يقبل رأس زوجته.

تنتهي اللعبة وتدور أطباق الفواكه التي غالبًا ما تكون من التفاح والبرتقال والمندلينا. ولا تتجاوز السهرة الساعة العاشرة ليلا، ويعود السامرون إلى منازلهم.

ويتحلق الصغار حول الجدة وهي تسرد لهم حكاية ليلى والذئب، وحسن الشاطر، ونص نصيص بالخم، وأبو التضبع، والعنزه لعنيزية أم قرون حديدية، وغيرها من القصص التي كانت تستهوي الأطفال. يستمعون إليها بحواسٍ مشدودةٍ وهم يرقبون الحركات الإيمائية وتعابير وجه الجدة، فيعلوا صوتها حينا وتهمس حينا وتغضب حينا.. حسب الموقف الذي يرد في الحكاية.

وها هي الأمهات يجبرن الأطفال على الخلود إلى النوم فإن أبوا هددنهم بأبي التضبع أو نص نصيص.

وللكبار نصيب أيضا من حكايات الزير سالم، وتغريبة بني هلال، وغيرها. في غالب الأحيان يحتل الحكواتي في السهرة موقع الصدارة، فترى الأعين مُبحلِقة به والآذان مشنفة لتسمع كل صغيرة وكبيرة، على الرغم من أن

القصص معادة، وكأنهم يسمعونها لأول مرة، مع أنهم كثيرًا ما يرددون مع الحكواتي خواتيم الأبيات الشعرية لأبي زيد، والزير يرثي كليبًا، ويتوعد بني بكر. وكان الحكواتي دائمًا يحرص أن يترك للقصة بقية لليوم التالي. يترك المستمعين عند نقطة حرجة وينهض فتراهم يطالبونه بالمزيد فيرفض. هكذا يكون قد ضمن مقعده في الليلة القادمة.

في الثلج لا يحتاجون إلى مصابيح يدوية؛ فكل شيء يبدو ظاهرًا للعيان، لا تخلو الأجواء من أصوات الكلاب الجائعة والتي تشعر بالبرد. أما الذئاب والضواري فقد احتلت رؤوس الجبال، تتبادل نداءاتها وألحانها الحزينة، إنها تجوح، تتضور جوعًا، ولكنها لا تجرؤ على اقتحام البلدة فالكلاب لها بالمرصاد.

أبو الحصين (الثعلب)، وله عدة أسماء كالواوي أو جرار ذيله لاعب أساسي في هذه المسرحية؛ عندما يأخذ الجوع منه مأخذًا ولا يجد ما يأكله فيتسلل خلسة، يجر خلفه ذيله الناعم الجميل عبر البيوت يبحث عن دجاجة شاردة باتت خارج القن على غصن شجرة أو على حافة السياج، فيكون يومها يوم سعده، يحملها من رقبتها ويولي هاربًا.

أحيانا كان يتحين فرصة عدم وجود كلب في الجوار فيقتحم القن، وتبدأ الدجاجات بالصياح وقد أصابهن الذعر فيهب أهل البيت للنجدة، وغالبا ما كان يدفع حياته ثمنًا لتهوره. ليبس هو الوحيد من يدفع الثمن!

في ذلك اليوم وبغير وقت صلاة، صعد الشيخ محمد إمام المسجد إلى سطح المسجد واعتلى سطح المئذنة الحجرية وهي بارتفاع مترين تقريبًا...

يا ساتر، تستر! اللهم اجعله خيرًا.... يسود الهدوء بين الأهالي ويخرجون من بيوتهم ليسمعوا النبأ.

صعود الشيخ محمد إلى سطح المسجد بغير أوقات الصلاة أمر مشؤوم، لا بد من مصيبة قد حصلت فهو لا ينبئ بخير أبدًا، عادة ما يتم الإعلان عن حالة وفاة، أو مداهمة الوحوش لقطعان الماشية. وأخف تلك المصائب هو فقدان شيء ثمين.... يقول بأعلى صوته الجهوري:

- يا سامعين الصوت صلوا على النبي... يا من شاف أو يا من وجد إسوارة ذهب.... (أو يسمي المفقود أيا كان نوعه) .... يصوم ويصلي على محمد... ومن ينكر يقبر ماله وعياله.

ولا تكتفي صاحبة الإسوارة بنداء الشيخ بل تقوم باستئجار صبي يدور بالحارات مرددًا العبارات نفسها.

يا له من دعاءٍ قاسٍ لا يتحمله مسلم! عندها يقوم من وجد الشيء بتسليمه.... وعادة ما كان يُعطى مكافأة.

ولكن أكثر ما كان يقول بعد أن يتلُو آيات من القرآن الكريم: انتقل فلان ابن فلان إلى رحمة الله... وسيكون الدفن بعد صلاة العصر، ويظل يكررها ليسمع أهل البلدة كلهم بالخبر ويشاركون في مراسم الدفن والعزاء.

اليوم كان النداء مختلفًا، إنه نداء استغاثة... هنالك ثلاثة جنود من أبناء البلدة ممن يعملون في الجيش كانوا قادمين في إجازة، لكن سائق السيارة العسكرية توقف بهم على حدود الثلج وقال إن الثلوج كثيفة للغاية ولا تستطيع السيارة اجتيازها، وإنه لن يجازف بحياته ونصحهم بالعودة لكنهم أبوا.

ترجلوا من السيارة وهم يلوحون له بأيديهم مودعين، كانوا رجالًا أشداء، أجسامهم قوية، وهم مدربون ومؤهلون للتكيف مع الظروف الصعبة، وأحوال الطقس القاسية. وكانوا واثقين من قدرتهم على تجاوز هذا الحاجز الثلجي

بسهولة ويسر.

أدار السائق مقود سيارته الفورد وقفل عائدًا إلى معسكره وأخبر قائده بما حصل. القائد كان نبيهًا، فقد استشعر الخطر، وألقى باللائمة على السائق، شعر بالقلق، وراحت نواقيس الخطر والوساوس تقرع في رأسه، أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها بعصبية بالغة..... لا يستطيع نسيان الأمر....

قال: لا بد من عمل شيء ما.

أدار قرص الهاتف طالبًا مأمور المقسم وطلب منه توصيله بمكتب البريد.

أدار المأمور قرص الهاتف واتصل بمكتب البريد التابع للبلدة، وسأله:

هل وصل فلان وفلان وفلان إلى بيوتهم؟

رد عليه المأمور قائلًا:

- لا أدري يا بيك... لكن سأسأل أهاليهم وأستوضح الأمر.

ليعود بعد مدةٍ ويخبره:

- لم يصل إلى البلدة أحد ولم يخرج منها أحد فكل الطرق مغلقة.

- لقد نزلوا في رأس منيف واتجهوا باتجاه بلدتكم، وبما أنهم لم يصلوا فبالتأكيد قد ضلوا الطريق ويحتاجون إلى نجدتكم.

لم يكمل الضابط حديثه حتى فوجئ مأمور المقسم بأن خطوط الهاتف قد تعطلت وأمست البلدة معزولة عن العالم كله.

بلا تردد، وبالسرعة الممكنة توجه موظف البريد إلى الشيخ محمد إمام المسجد، الوسيلة الإعلامية الوحيدة آنذاك، وأطلعه على الأمر، ثم عاد ليخبر الأهالي بالأمر.

لم يقبلوا نصيحة السائق وأصروا على عنادهم في المضي قدمًا، وغرتهم فتوتهم وقوة عضلاتهم.

قال أحدهم وأعلاهم رتبة مخاطبًا رفيقيه:

-ألا ترون أننا أوشكنا على الوصول.

نظر رفيقه إلى الأفق البعيد مادًّا بصره إلى ما لا نهاية حتى زاغ بصره، ولم يعد يرى شيئًا، فارتد إليه بصره خاسئًا حسيرًا. ونظر إلى جسده المنهك هنيهة حتى استرجع الرؤية، ثم رفع رأسه ثانية ونظر في الأفق لكن الرياح والسافيان -حبيبات ثلجية ناعمة تسمى باللهجة المحلية الرمَيْلة بفتح الميم وتسكن الياء- منعاه من الرؤية، لم يرَ شيئًا، لا بيوت ولا بلدة، ولا أي شيء يتحرك، لكنه جامل رفيقه هازًا رأسه بالموافقة على ما قال.

وواصلوا سيرهم بين الجبال في طرقٍ وعرة تلفح وجوههم العارية حبيبات الثلج الناعمة والرياح القوية، فزاغ بصرهم وضلوا الطريق وغلبتهم الطبيعة فخارت قواهم وصاروا في المنتصف، لا هم بقادرين على التقدم ولا هم قادرين على الرجوع.

- أشعر بالتعب، قال أحدهم.

رد عليه رفيقه:

- تشجع يا أخي... لقد أوشكنا على الوصول، تشجع أرجوك.

يرفع قدمه الغائرة في الثلج لينتقل خطوة مرتكزًا على الأخرى فتغور أكثر من أختها، إنهم يجاهدون جهادًا عسيرًا، وتمضي الساعة لا يتقدمون إلا بضعة أمتار: لا أستطيع الاستمرار... أنا سأستريح هنا... إن شئت أنت المواصلة فاذهب وأْتِ لنا بنجدة.

توقف رفيقه ونظر إلى السماء والأرض فلم يشاهد إلا بياضًا ناصعًا فزاغ بصره وشعر بالدوار وأيقن أنهم لا محالة هالكون قال:

- تريد الصراحة يا ابن عمي.... أنا أيضًا تعبت. دعنا نسترح قليلًا.

- هل لديك سجائر؟

رد بنعم، ثم مد يده شبه المتجمدة إلى جيبة وأخرج علبة السجائر، بصعوبة بالغة استطاع أن يشعل عود الكبريت.

السيجارة تدفئهم، وأثار أقدامهم، وبعض أغصان الشجر الرطبة المكومة في مكانهم تدل على أنهم حاولوا البحث عن أي شيء ليشعلوه فلم يفلحوا، لكنهم قد أتوا على كل السجائر ونضب ما لديهم من أعواد الكبريت.

الحركات التي كانوا يقومون بها تدل على أنهم كانوا يحفرون بكعوب أقدامهم لتوليد الحرارة ومنعًا للتجمد. عندما استيأسوا وأووا إلى ركن صخرة كانت قريبة منهم ينتظرون الفرج من الله وراحوا يلهجون بالدعاء.

عندما يتوقف الرجل عن المسير في الثلج يبدأ جسمه بتخزين الطاقة، فإن لم يستخدم هذه الطاقة تبدأ خلايا الجسم بالتجمد، ويبدأ يفرك راحتيه ببعضهما، ويحك رجليه في الأرض ليشعر بشيء من الدفء، وبدون أن يشعر يبدأ الجسم بالتجمد رويدًا رويدًا، وكأنه تحت تأثير إبرة مخدر.

قال أعلاهم رتبة، والذي كان متقدمًا عنهم حوالي المائة متر وقد أمرهم بالمسير خلفه، لكنهم رفضوا أوامره لعدم قدرتهم على المسير، فعاد وانضم إليهم وقال:

- يجب أن نستمر في تحريك أقدامنا وفرك أكفنا وإلا سوف نتجمد.

- حسنا وإلى متى... لقد خارت قوانا يا أخي.

لم يستطع الرد على سؤال رفيقه عندما سأله بتثاقل قال له بكلمات متقاطعة تتبعها اهتزازات حنجرته المرتجفة من البرد: هـ..ل...أن..ت بخيير؟

نظر إليه بربع عينيه المغمضتين ولم يجب فقد انعقد لسانه واكتفى بالتشهد.

هناك... راح الشيخ محمد يشحذ الهمم، فتنادى الناس من كل العائلات حاملين المصابيح اليدوية، وتصحبهم كلابهم، وأدوات تساعدهم على المشي في الثلوج التي بلغت سماكتها المترين.

كان المشي في الثلج شاقًّا، ما تكاد ترفع قدمًا حتى تنغرز الأخرى، والثلوج الناعمة حُبَيباتُها تصفع وجوه الرجال فيغمضون أعينهم ويضلون السبيل.

الوقت يمضي والرجال لا يعرفون أين هم! أولئك المحتمون في ركن صخرة لا يصدر عنهم أي صوت استغاثة أو أية إشارة.

وأقبل الليل وهجم الضباب على المنطقة يلفها كالسوار بالمعصم، وما عادت الرؤية واضحة... بدؤوا بالنداء... حتى بحت أصواتهم وتعبت حناجرهم...

هنووووو...هنووووو.. ينادون عليهم بأعلى أصواتهم، ثم يصغون لعلهم يسمعون ردًّا من أحدهم لكن لا حياة لمن تنادي.

كانوا قريبين منهم بضع خطوات وكانت أصوات نداءاتهم وصلت إلى مسامع قائدهم، تبسم واستبشر خيرًا، حاول النهوض والرد عليهم لكن دون جدوى فقد انعقد لسانه وتجمدت أطرافه.

وأرخى الليل سدوله على الأرجاء، وهم يتنادون ويتناخون ويتفقد بعضهم بعضًا، حتى الكلاب التي كانت ترافقهم أعياها المسير وهدّها التعب، ولا يخلو

الجو من عواء الذئاب والضباع، وابن آوى.

فشلت كل الجهود بالوصول إليهم، وراحت النساء تنوح وتجوح، وخيّم الحزن على البلدة.

قال قائلٌ منهم: عودوا يا جماعة لا فائدة من البحث سنواصل غدا.

وعاد الجميع يجرون أذيال الخيبة والخسران.

في صبيحة اليوم التالي استفاق الأهالي على أصوات غريبة. دخلت إلى البلدة مجنزرات عسكرية خلف جرافات فاتحة ذلك الطريق الضيق الذي يخترق البلدة من منتصفها تتوسطها سيارة إسعاف عسكرية تحمل ثلاثة شهداء.

كان قائد الكتيبة قد أخبر القيادة العامة، وبدورها أوعزت إلى أقرب وحدة عسكرية للبحث عنهم فأرسلوا عشرات الجنود يمسحون المنطقة شبرًا شبرًا حتى عثروا عليهم بركن تلك الصخرة، وقد تجمدوا وفارقوا الحياة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

خيم الحزن على أهل البلدة، وتوجهت زرافات النساء يتوشحن بالسواد إلى بيوت المنكوبين، وتم دفنهم في مقبرة البلدة، وأقيمت لهم مراسم دفن عسكرية مهيبة. كانت تلك الليلة لا تنسى لغزارة الثلج وكثافته. ظل ملازمًا للبيوت والحقول مدة طويلة، وقد أعجبه طول المقام.

مرت عشرات السنين وما زال أهل البلدة يروون هذه الحادثة لأبنائهم جيلا بعد جيل.

إنها سنة لم يسبق لها مثيل، ظل الناس يذكرونها في سهراتهم وجلساتهم حتى صارت تاريخا يقولون:

-هل تذكرون سنة الثلجة التي مات فيها فلان، وفلان، وفلان؟

إنه ضيف غير مرحب به عند ربات البيوت لما يعانينه من اتساخ المنازل في أثناء دخول أفراد المنزل وخروجهم، لكنه مرحب به عن الأطفال والشيوخ، الأطفال يتغيبون عن المدارس ويمارسون صيد الطيور بالفخاخ التي يصنعها لهم سعيد النوري، أما الشيوخ فهم يعتبرونه نعمة للأرض يقضي على الحشرات، ويزيد من خصوبة التربة.

*****

فصل ٢

وتمضي أيام فصل الشتاء ما بين ثلوج وأمطار ورياح وشموس، ينسحب آذار جارًا وراءه بقية من غيومه المنهكة ورياحه التي فقدت كمًّا كبيرًا من عنفوانها وجبروتها، يرحل حاملًا معه خيره وشره، ويسلم الراية لوريثه الربيع صاغرًا.

ذلك أجمل ما في فصل الشتاء أنه يلد الربيع، فتكتسي الجبال بحللها الخضراء ويزهر الدحنون واللوز والتفاح، في منظر بهيج يعجب الزراع طلعه، ويسر الناظرين زهره. يخرج الصغار والكبار إلى الحقول ليجمعوا بعض النباتات التي تصلح للأكل كالخبيزة، والعكوب والحميض، ولسان العجل، وخبز الراعي، والحليان، والبازيلاء البرية، والجربوح وغيرها.

يذهبون إلى المقاطع [٣] وهي منطقة أثرية تقع في أقصى الغرب من البلدة، قرية أثرية رومانية مهجورة بها فسيفساء [٤]. كهوف وقبور وآبار مكشوفة، قد امتلأت بالماء الزلال خلال فصل الشتاء يسمونها (الجيعة) يشربون منها، ويغسلون ما جمعوه من نباتات صالحة للأكل.

كان من بين الصغار عادل بن الحاج رضوان، وكان عمره لا يتجاوز السبعة أعوام، ذهب برفقة ابنة عمته التي تكبره بأربعة أعوام، وعندما مد يده ليشرب من البئر سقط فيها. ملأ صراخ الصبيان والبنات الأجواء، إنهم

---

[٣] كانت قاعدة للفداايين في حقبة السبعينات.

[٤] تم سرقتها من قبل لصوص الآثار في غياب اهتمام الدولة.

يصرخون بأعلى أصواتهم مستنجدين، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه خشية الغرق، دبت روح الحماسة بابنة عمته فاتجهت نحوه وأمسكت بإصبع يده وهي تصيح.

لحسن حظه كان الحاج قاسم في الجوار يحرث أرضه، عندما سمع الاستغاثة أدرك أن أحدهم سقط في الجيعة، فجاء مسرعًا يغذ الخطى، ووصل في اللحظة المناسبة، وأمسك بيد الصغير وأخرجه من الجيعة وقد امتلأ بطنه بالماء.

أمال رأسه إلى الأمام سامحًا لما ابتلعه من ماء بالخروج، وانتظر قليلًا حتى استعاد الغلام وعيه، حمله أمامه على حماره وعاد به إلى البلدة، وأوصى به أهله أن يسقونه من طاسة الروعة[٥] وفي المساء جاء نفر من الأقارب للاطمئنان عليه كان ذلك في اليوم السادس من حزيران، راحوا يتحدثون عن النكسة وما جرى في مثل هذا اليوم، وكان عادل طفلًا نبيها يصغي لحديثهم باهتمام بالغ سأل والده:

- أبي، حدثنا عن نكسة حزيران؟

رد عليه وقال: وهل حقا تريد أن تعرف؟

- نعم، بكل تأكيد.

ثم التفت إلى البقية وقال:

- وأنتم أيها الأطفال هل تريدون سماع قصة النكسة؟

كلهم أجابوا بنعم.. نعم!!

---

٥ - (إناء نحاسي كانوا يسقون به كل من يتعرض للصدمة أو الخوف فيذهب عنه الخوف).

قال مخاطبًا الجالسين: حسنا حتى تصلون على النبي؟

- اللهم صلِّ عليك يا نبي.

- هذا يا حافظين السلامة في يوم ٦ حزيران ١٩٦٧ نشبت حرب بين اليهود والعرب.

قاطعه الصغير: من هم العرب يا أبي؟

صمت الرجل وحار جوابًا أمام هذا السؤال البريء، ثم قال:

- كانت مصر وسوريا والأردن ضد إسرائيل المحتلة لفلسطين، في ذلك اليوم المشؤوم استفاق الأهالي على أصوات هدير الطائرات.... وتواردت الأنباء عن نشوب حرب بيننا وبين اليهود. تجمع الأهالي في البيوت والدكاكين حول المذياع، هذه المرة الأيادي على القلوب والنفوس واجمة.

تأتي تلك النغمة للمارش العسكرية التي عادة ما تسبق إعلان البيان..

سكووووت... يا جماعة، بيان... بيان عسكري.

يسود صمت رهيب وكل حَنَى ظهره واضعا خديه بين كفيه وكله أمل بأن يسمع ما يبهجه.

- إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان والقدس.

سيداتي سادتي جاءنا الآن ما يلي:

بيان عسكري رقم ١:

في صباح هذا اليوم الخامس من حزيران قامت قوات غاشمة من الجيش الإسرائيلي بالعدوان على قواتنا في مصر والجولان والقدس.

هذا وقد تصدت لها قواتنا المسلحة الباسلة وردتها على أعقابها خائبة.

هذا وما زال القتالُ مستمرًا حتى هذه الساعة...الله أكبر!! والنصر لنا!!

هنا إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان والقدس.

نشيد:

الله أكبر.... الله أكبر..... الله أكبر فوق كيد المعتدي

والله للمظلوم خير مؤيد..... أنا باليقين وبالسلاح سأفتدي

بلدي ونور الحق يسطع في يدي..... قولوا معي الله الله فوق المعتدي

يا هذه الدنيا أطلي واسمعي..... يا باغي العلياء ردي واسمعي

جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي..... بالحق سوف أرده وبمدفعي

فإذا فنيت فسوف أفنيه معي..... قولوا معي قولوا معي: الله فووووق المعتدي.

وتتواصل المارشات والأغاني الحربية.

هرج ومرج، تكبير، وتفكير، لا أحد يعلم ماذا يجري، لكن الطائرات الحربية تجوب السماء تروح وتغدو، والناس يرفعون أياديهم يدعون لها بالنصر.

بيان عسكري رقم ٢

احتلت قواتنا المسلحة جبل المكبر بالقدس. وما زالت قواتنا تطارد فلول المحتلين في كافة الجبهات.

الله أكبر...الله أكبر!

هنا إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان والقدس..

استبشرنا خيرًا، وانطلقت الهتافات والزغاريد.

ويغني توفيق النمري:

مرحى لمدرعاتنا رمز القوة لبلادنا
إن نزلت للميدان تحمينا من العدوان
وتخلي النصر بجالنا مرحى مرحى مرحى

يقطع الأغنية نغمة عسكرية توحي بإذاعة بيان.

سيداتي سادتي جاءنا الآن ما يلي:

بيان رقم ٣

أسقطت المقاومات الأرضية المصرية ٢٧٠ طائرة إسرائيلية من نوع ميراج.

في حين كانت خسائرنا طائرة واحدة من نوع ميج.

الله أكبر والنصر لنا.

تصفيق... تصفيق وزغاريد.

في الأثناء ترتج السماء بأصوات هدير طائرات الميراج الحربية التي تسير على ارتفاع منخفض، يخرج أهالي البلدة يلوحون لها بأيديهم، ويدعون لهم بالنصر، ولأول مرة يستجيب ربهم لهم فقد نصرهم وأي نصر....!

في مساء اليوم التالي كان الملك حسين يلقي خطابًا على شعبه يقول فيه: اقتلوهم بأيديكم... بأسنانكم... بأظافركم.

هنا يتساءلون والسؤال مرتسمٌ على شفاههم، ولماذا بأسناننا وأظافرنا؟! أهم قريبون منا لهذا الحد؟!

في اليوم التالي أدرك الناس أن الهزيمة قد حلت بنا. دبَّ الرعب في صفوفهم وخاصة عندما بدأت الطائرات الإسرائيلية تشن هجماتها على مواقع الرادار في عجلون، أصيب المواطنون بالهلع، حملوا ما استطاعوا من أمتعتهم وفرشهم ولحفهم واتجهوا نحو الأحراش وإلى (المقاطع) التي بعثت بها الروح الرومانية من جديد.

ونهض جنود هرقل من مقابرهم مرحبين بالقادمين الجدد إلى تلك المدينة الأثرية المهجورة ليبعثوا بها الحياة من جديد، وليشاركوهم المسكن والمأكل، وليحتموا بالكهوف، هناك بعيدا.... هربًا من القصف المتوقع للبلدة من جهة، وخوفًا من جر رجالهم للتجنيد الإجباري من جهة أخرى. وقد تم تجهيزها بما يلزم للاحتماء من القصف واستدامة الحياة.

خلال ساعات قليلة لم يكن في البلدة من بقي في منزله، صارت بلدة أشباح خاوية على عروشها، لا تسمع فيها إلا عواء الكلاب ودبيب الحمير التي كانت تجوب الطرقات.... لو أتى جندي إسرائيلي واحد فقط إليها لتمكن من احتلالها وسلبها بعصا لا ببندقية.

لم يهيئهم أحد من ساستهم، ولم يخبرهم أحد من منظري أحزابهم، ومنظريهم أن عليهم أن يقاوموا، وبماذا سيقاومون؟ وهم لا يملكون إلا بندقية صيد كان يقتنيها الحاج رضوان ومثلها مع أبي صافي. بلدة كاملة في دولة تخوض غمار حرب لا يوجد مع أهاليها ولو حتى مسدس. الهزيمة كانت شاملة بكل معناها فلا لوم على من أشعلها، ولكن اللوم على من لم يستعد لها.

كانت البلاد تعج بالمثقفين والحزبيين، لكنهم كانوا كلهم باعة كلام وخطب زائفة، وزبد كزبد البحر لا لون ولا طعم ولا رجولة، وطنية زائفة.. لم يفكر أحد

بضرورة تسليح الشعب وتشكيل رديف مليشيا من الجيش الشعبي ليحفظ الخطوط الخلفية. وهذا الشيء قد حصل فعلا ولكن متى، بعد خراب مالطا، راحت سيناء، والجولان، وراحت الضفة الغربية وصار اسم الإذاعة.... من عمان.... فقط!

في اليوم الثالث قدم جمال عبد الناصر استقالته، ولكن الجماهير المصرية والعربية في كل بقاع الوطن العربي طالبته بالعدول عنها فعاد.

راح يرسم خطة لرد اعتبار الأمة، فأعلن حرب الاستنزاف مع العدو، وبرزت إلى الساحة الثورة الفلسطينية بقيادة شاب مهندس اسمه ياسر عرفات، كان يتلقى تعليمه في مصر والتقى بعبد الناصر، قدم له كل الدعم وحظي بمباركة عربية تامة، راحت عناصر الفدائيين يتسللون إلى قلب فلسطين، يشنون الهجمات على الإسرائيليين من داخل فلسطين وخارجها، وسددوا لهم ضربات موجعة، وقاموا بأعمال بطولية.

على صعيد الجبهة المصرية راح عبد الناصر يستورد الأسلحة والصواريخ المقاومة للطائرات من روسيا، وقام بإعداد خطة وقبل بمشروع روجرز*(مبادرة أمريكية قدمتها أمريكا في ٥ حزيران عام ٧٠ تقضي بوقف الحرب بين مصر وإسرائيل لمدة ٩٠ يومًا تمهيدًا لتنفيذ قرار هيئة الأمم ٢٤٢ القاضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام ٦٧ إلا أن إسرائيل لم تلتزم به) فقد قبل بوقف إطلاق النار لكي يتمكن من تدعيم الجبهة المصرية، ونصب منصات الصواريخ في مواجهة خط بارليف لاسترداد ما تم سلبه وتحرير فلسطين لكن القدر لم يمهله.

اتسعت حلقة الفدائيين، وتشكلت عدة فصائل بمسميات وأيديولوجيات مختلفة، منها على سبيل المثال لا الحصر، فتح، والجبهة الشعبية الديمقراطية، وحركة التحرير، والصاعقة، والكفاح المسلح، وغيرها. وراحت هذه الفصائل تستقطب الشباب مما هب ودب، لا تميز الغث من السمين. فلمَّت في صفوفها من أساء لها.

يستعرضون بأسلحتهم أمام الجامعات ومدارس البنات، وكان ممدوح بن الحاج راجي، ومجموعة من اللصوص أمثاله قد انضموا إليهم، يستعرضون ببدلاتهم المبرقعة والكلاشنكوف في الشوارع والطرقات كما سيأتي ذكره لاحقًا.

وعلى سيرة المستعرضين، كان مدير المدرسة الأستاذ يحيى يأتي إلى المدرسة صباحًا، يفتح صندوق سيارته ويختار كل يوم قطعة سلاح منها، مرة كلاشنكوف ومرة سيمينوف، ومرة مسدسًا يتمنطق به ويعبر الساحة يتبختر ماشيا بكبرياء إلى المدرسة. يخطب في الطلاب في الطابور الصباحي، يسانده بعض المعلمين ممن كانوا معه في التنظيم، يغلقون المدرسة ويخرجون الطلبة الصغار ويقودونهم في مسيرة في شوارع عجلون، حاملين أعلام فلسطين وهم يهتفون: "فليسقط وعد بالفور"، فيرد عليهم الصغار مبتهجين لأنهم تخلصوا من الدراسة: " فليسقط واحد من فوق"

ويرددون يسقط روجرز يسقط روجرز!! ويتساءل العامة.. من هو روجرز؟

أما على صعيد النساء فكانت المعلمة الرفيقة كلثم تأتي إلى المدرسة لابسة لباسًا حربيًّا مبرقعًا، وتتجند بالكلاشنكوف، تتباهى بأنها يسارية ثورية. لا تقوم بالتدريس، تأتي وتذهب متى تشاء، لا يجرؤ على مساءلتها أحد.

العديد من أبناء البلدة انضموا إلى تلك الفصائل، وراحوا يجلبون الأسلحة

الفردية، يوزعونها على طلاب المدارس، وكل من يستلم قطعة سلاح يسجلون اسمه معهم بأنه مليشيا [٦].

---

[٦] عندما توترت الأوضاع بين الجيش والفدائيين، دخلت مجموعة مسلحة منهم إلى وسط البلدة، يسألون عن شخص كانوا يعتبرونه قائدًا معهم في التنظيم، وقد زودهم بأسماء وهمية لطلبة تم تسليمهم أسلحة كلاشنكوف، وباعتبارهم مليشيا فقد طلبوا منهم الالتحاق بصفوف الثورة، لكن لم يستجب لطلبهم أحد. وتكرر مجيئهم في اليوم التالي، فامتعض الأهالي منهم.

كانوا يتمركزون أمام دكان الحاج رضوان، ودخل واحد منهم إلى الدكان بحجة شراء سجاير، سأله الحاج: ما الأمر يا أخ؟

أجاب: لا شيء جئنا لشراء السجاير وحسب؟

-ولماذا كل هذه الأسلحة؟

- حقيقة الأمر يوجد هنا رفيق لنا فار من الجبهة وقد حكمت عليه الثورة بالإعدام، نريدكم أن تسلمونا إياه.

رد عليه الحاج ضاحكا: بربك هل أنت جاد فيما تقول؟

- نعم كل الجد.

-اسمع يا أخ، أين هو مسؤولكم... دعني أكلمه.

يضع إصبعيه في فمه ويطلق صافرة، وإذا بالمسؤول يأتي مسرعًا.

قال له الحاج: هل أنت المسؤول؟ أجاب بنعم.

- حسناً، تفضل أنت وربعك إلى مضافتنا لنتفاهم.

رد بعد أن أطرق مليًّا وأسهب في التفكير: وهل تعطونا الأمان أن لا تغدروا بنا؟

رد عليه الحاج بنبرة حادة تنم عن الغضب: الغدر ليس من شيمنا.

في الأثناء يتجمع نفر من أهل البلدة ويطوقونهم، عندما سمع أبو خليل بالأمر جاء مسرعا، وأمام دهشة الجميع تعرف على اثنين منهم.... عساف وحمزة كانا من ضمن فريق الحصادين في حقل العدس... فراح يأخذهم بالحضن ويستفسر عن أحوالهم، وحلف عليهم أغلظ الأيمان أن يكونوا ضيوفًا عنده، وفعلا اصطحبهم إلى منزله وجمع معهم وجهاء البلدة وأكرم مثواهم.

فهموا أن مطلبهم لا يمكن تحقيقه فعادوا أدراجهم.

ومن المحزن أن عساف وحمزة استشهدا في المعركة، وعثر عليهما مقتولين في كهف، حزن عليهما أهل البلدة، وتم دفنهما هناك رحمة الله عليهما.

وراحت هذه الفصائل تتدخل في شؤون القضاء، والتعليم، وكافة الأمور الحياتية للمدنيين، ونصبوا نقاطًا للتفتيش على مداخل المدن والقرى، وراحوا يفتشون المارة من عسكريين ومدنيين وانقسم الشعب إلى قسمين قسم يؤيد الجيش وقسم يؤيد الثورة.

حدث أن طالب الفدائيون علنًا بتغيير نظام الحكم في الأردن، وقاموا بعمليات اختطاف رهائن وطائرات وتفجيرها في مدينة الزرقاء بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٧٠ وعلى أثرها اشتعلت الحرب الأهلية بين الجيش الأردني بقيادة الملك حسين والفصائل الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات وخليل الوزير وأبو علي إياد وصلاح خلف وجورج حبش ونايف حواتمه وصلاح جديد (سوري) بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٧٠ وتدخل جمال عبد الناصر لوقفها، ودعا العرب إلى مؤتمر قمة، وفعلا تم وقف إطلاق النار بتاريخ ٢٧ سبتمبر ولكن عبد الناصر توفي في اليوم التالي بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ رحمة الله عليه. وبموته ماتت الأمة، وانتكس المد القومي، واندلعت الحرب الأهلية من جديد، واستمرت حتى ١٧ يوليو

١٩٧١ راح ضحيتها العديد من الطرفين، وانتهت باستسلام آخر ٢٠٠٠ مقاتل في عجلون، وكانت آخر معاقل الفدائيين.

سمح الأردن للفدائيين بالتوجه إلى لبنان عبر سوريا، وبعدها أصبحوا أحد الأطراف المتحاربة في الحرب الأهلية اللبنانية، وتأسست منظمة أيلول، الأسود وهدفها القيام بعمليات انتقامية، وقامت باغتيال رئيس الوزراء الأردني وصفي التل في عام ١٩٧١ في القاهرة. وعملية ميونخ[٧].

وبات حلم الوحدة العربية ضرب من ضروب الخيال والوهم. وراحت الضفة الغربية والقدس والجولان وسينا، وراحت هيبة الأمة العربية، وصرنا مهزلة بين الأمم أذلة نستجدي رضاء أمريكا ومن يدور في فلكها، ونتسابق لإرضاء اليهود حفاظًا على كراسي الحكم.

هذه هي حكاية حزيران النكسة.

واليوم يا بني هو ذكرى تلك الحرب المشؤومة "تنذكر ما تنعاد".

*****

[٧] احتجاز رهائن إسرائيليين أثناء دورة الألعاب الأوليمبية في ميونخ بألمانيا عام ١٩٧٢ نفذتها أيلول الأسود، وكانت مطالبهم الإفراج عن ٢٣٦ معتقلًا في السجون الإسرائيلية، معظمهم من العرب، بالإضافة إلى كوزو أوكاموتو من الجيش الأحمر الياباني، انتهت بمقتل ١١ رياضيًّا إسرائيليًّا و٥ من منفذي العملية وشرطي وطيار مروحية ألماني.

فصل٣

ويطل علينا حزيران في كل عام... وقد باتت سنابل القمح تكتسي بثيابها الصفراء المبيضة، آذنة لموسم الحصاد بأن يقرع بابها. تفتح شمس حزيران أبوابها مشرعة لترسل تلك الباقات الضوئية من أشعتها الحارقة... تتسلل خلسة كاللصوص إلى فتحات أبواب المنازل الخشبية التي تسمح لها بالنفاذ إلى الأعماق، طاردة ما حملته من رطوبة ثلج الشتاء، تداعب وجنات السنابل المنحنية وهي مثقلة بحملها بما جادت به تلك الأرض الطيبة المعطاء، أرض طيبة ورب غفور.

بنى أبو ممدوح عريشة في حقل القمح الشاسع الذي ورثه عن أبيه. أربعة أعمدة من خشب السنديان، تم تثبيتها في الأرض على شكل مستطيل، يتسع لعشرة أشخاص جلوسًا، وتم سقفها بشادر كان قد اشتراه من أحد مخيمات اللاجئين خِصِّيصَى لهذه الغاية.

يتربع زيرُ الماء على قاعدة خشبية ذات أربع أرجل تُثبِّته، فلا يميل ولا يسقط، أحكمت فوهته بقطعة من القماش كي لا تنفذ إليه الحشرات والهوام، وثُبِّتَ فوقها غطاء معدني من الألومنيوم، عليه كوز(كوب) من الألومنيوم، مربوط من مقبضه إلى أذن الزير، أو ما يسمى الخابية [٨]. أما الأرضية فقد فُرِشت بحصيرة شبه بالية، ومن الجهات الثلاث خصصت فتحات صغيرة لدخول الهواء. ومثله فعل الكثير من الفلاحين، فهذا موسم الحصاد يُبشر

---

٨ - الجرة هي إناء فخاري تتسع إلى حوالي ٤٠ لترًا من الماء.

بمحصول وفير؛ لما جادت به السماء من أمطار وثلوج في موسم الشتاء.

مع بدايات حزيران بدأت الحياة تدب في الحقول، واستنهضت همة الحصَّادين الذين جاؤوا من أماكن متفرقة. عدتهم سكين ومنجل، السكين لتقطيع الخضار، أو لتقطيع البصل على مائدة الإفطار، المكونة في أغلب الأحيان من اللبن، والخبز، والبندورة، والمقدوس، وأحيانًا تكون حمصًا أو فولًا بالزيت، ولا تكتمل هذه الوجبات إلا برأس البصل. أبو عباس يفضل أن يدعكه بيده، يضعه فوق حجر أملس من الصوان، ويهوي عليه براحة يده الضخمة التي تكاد تكون قد فقدت الإحساس، وكأنها مخدرة من كثرة استخدام المنجل.

بينما أبو وصفي كان يزيل القشرة عنها برتابة، ويحرص على أن يزيل الطبقة التي تلي القشرة مباشرة، ثم يهوي بها بين فكيه ويقضمها، لكن أبو جديع كان يبدو أكثرهم أناقة، يستخدم (الموسى) أي السكين، ويقسمها بشكل صليب دون أن ينزع القشور، ويبدأ بأكل لبها، وهكذا حتى يأتي على آخرها.

على مقربة منهم كان يجلس شاب في مقتبل العمر اسمه ممدوح، وهو ابن الحاج راجي، ويغلب عليه اسم أبو ممدوح صاحب الحقل.

كان ممدوح في الخامسة عشرة من عمره، شاب طويل القامة، عريض المنكبين، له شارب أسود خفيف، وعينان جاحظتان، بسواد قاتم، يعلوهما حاجبان غليظان، وجبهة مجعدة. لم تفلح كل المحاولات بإقناعه بضرورة التعليم، كان يرفض الذهاب إلى المدرسة فيجبره أبوه وأحيانًا يضربه، ولكن دون جدوى.

في صغره كان كل صباح يخرج حاملًا حقيبته المدرسية، ويتجه إلى الحقول، يمضي نهاره باحثًا عن أعشاش الطيور، أو ينصب لها فخاخًا، ثم

يسرق من البساتين ما لذ وطاب، وفي المساء يعود إلى المنزل مع التلاميذ، جيوبه مليئة بالفواكه، وبيده عصفور أو أكثر.

تسأله أمه: أين كنت؟

فيقول: في المدرسة.

تهز رأسها مستنكرة: وما تلك بيمينك يا ممدوح؟ عصفور... وتفاح.... وخوخ؟ هل يعطونكم هذه الأشياء في المدرسة؟!

يدير ظهره لها وكأنه لم يسمعها، ويلقي بحقيبته على الأرض كيفما اتفق، ويذهب ليلعب مع عصفوره، حتى يئس والده منه؛ فصار يصطحبه معه إلى الحقل ليمارس أعمال الحصيد والحراثة، وأعمال الزراعة. واليوم ها هو يرافق الحصادين، يقوم على مراقبتهم وخدمتهم في آنٍ واحد.

يضع حجرين قريبين من بعضهما مسافة تكفي لأن ينتصب فوقهما إبريق الشاي الذي كان لونه أبيضَ، مصنوعًا من الألومنيوم، ولكنه الآن أصبح أسود بسبب تراكم (الشحبار) دخان الحطب فوقه.

القليل من عشبة شوك الفأر، وهي عشبة كثيفة الألياف، هشةٌ سريعة الاشتعال، يمسكها من عنقودها تجنبًا لوخز إبرها المؤلمة، ويضعها بعناية فائقة، يدوسها بحذائه حتى تصبح أكثر تماسكًا، ثم يأتي بحطيبات، أو أعواد رفيعة ويضعها فوقها.

يشعلها بقداحة أبي جديع، تأبى الاشتعال فيحني رأسه وينفخ فيها رويدا رويدا... يعبق الدخان متسللا إلى عينيه؛ فيسيل منها الدمع، يمسحها بظهر يده ويرفع رأسه برهة يمسح ذاك السائل اللزج الذي يسيل من أنفه بكُمِّ يده الأخرى التي تجمد عليها المخاط حتى صارت تلمع كالزجاج، ثم يعاود الكرة حتى تشتعل،

وما إن تشتعل حتى يضع فوقها إبريق الشاي الموشح بالسواد، ويستمر في تلقيمها بالأعواد اليابسة.

- كثِّر من السكر يا ابني، لا تساويه مُرْ متل كل مَرَّة.

قال له أبو جديع بلهجته العامية، وهو يخرج من جيبه- بعد أن فرغ من طعامه- علبة مستطيلة الشكل، فيها قليل من التبغ (الهيشي) الخشن، ولفائف من الورق الأبيض الرقيق، كان يسمى (دفتر أوتومان) وهو على ما يبدو اسم إنجليزي. ينزع من دفتر الأوتومان ورقة، وأحيانًا ورقتين، ويضعها بين إصبعيه: الإبهام والشاهد ليده اليسرى، ويتناول قليلا من التبغ بيده اليمنى ينشرها على سطح الورقة المكوّرِ إلى الداخل ثم يبدأ بلفها بعناية فائقة، صانعًا لها رأسًا مدببًا، ويرطب طرفها بلسانه حتى تلتصق، يضعها بين شفتيه، يتناول القداحة التي تعمل على الكاز ويشعلها، تخرج بعض حبيبات التبغ الناعمة إلى فمه فيبدأ يتفلها على شكل رذاذ خفيف، يقذفها من طرف لسانه أمامه لا يعبأ بمن معه.

وقبل أن يغلق العلبة يتناولها منه أبو وصفي، ويكرر ما عمله أبو جديع، لكنه لم يكن بمهارة أبي جديع في لف السجائر، وغالبًا ما كانت تفشل المحاولة الأولى للف الورقة، ويعيدها مرة ثانية، وربما ثالثة، فاتحًا المجال لأبي عباس للسخرية منه بشيء من الفكاهة. يغضب أبو وصفي ويعطيه العلبة، ويقول:

- تفضل... ورجينا شطارتك يا فهلوي!

فيضحك الجميع، ويرد أبو عباس: لكنني لا أدخن تركت هذا الترياق لكما أنت وأبي جديع.

- الشاي يا ولد، أين الشاي.

ينادي أبو وصفي على ممدوح فيرد عليه إنه لم يغلُ بعد.

- ضع كثيرًا من الحطب، هيا.

ينهض ممدوح يكش الهسهس عن وجهه، ويأتي بكومة من الحطب، ويبدأ يدسها تحت الإبريق واحدة تلو الأخرى. وأخيرا وبعد جهد جهيد يبدأ الشاي بالغليان، ويصبح جاهزًا.

-هذا هو الشاي جاهز. قال ممدوح.

كل واحد منهم خصص له كوبًا من الزجاج صغير الحجم، وزعها عليهم وهي فارغة، كل واحد منهم يثبتها أمامه بالضغط عليها، وبحركة بندولية يمنة ويسرة فوق التراب حتى استقرت.

يسكب لهم الشاي ويرفع يده إلى الأعلى ليكسبها مزيدًا من الرغوة حتى يمتلئ أكثر من ثلثيها، يترك أقل من الثلث فارغا كي يتمكن الرجل من إمساكها تجنبًا للسع حرارتها.

- املأها يا ولد. نهره أبو العباس.

توقف الفتى ونظر في عينيه هنيهة، فكرر عليه الأمر:

- ما بك؟ ألم تسمعني؟ قلت لك املأها (للحافة) أي كاملة.
- لكن كيف ستمسكها يا عم، إنها ساخنة جدًّا؟!
- ما عليك أنت.... املأها وأنا كفيل بها.

انتهت السيجارة الهيشي، يطفئ ما تبقى منها، يغرسها بالتراب يدوسها بنعاله القاسية، ويتأكد أنها انطفأت، وبانطفائها يكون إبريق الشاي كبير الحجم قد فرغ تمامًا.

يا أللّه... يا معين الحصادين.

يستحثهم أبو وصفي على النهوض ومواصلة العمل.

يا ألله...يا معين الحصادين.

يا ألله... يا معين الحصادين.

كررها ثلاثتهم ونهضوا بتثاقل، شد كل واحد منهم مئزره، ولف عصبة رأسه بكوفيته المتسخة، التي اكتست طبقة من الغبار الأحمر وبعضًا من القش.

يا لهذه الكوفية كيف كانت وهي تحيكها وتزينها بالهدب أم وصفي وأم جديع وأم عباس؟! كانت بيضاء ناصعة كالثلج، عندما يضعها الرجل فوق رأسه (ويعنقر بالعقال)؛ أي يجعله ساحلًا إلى مؤخرة رأسه دليل الجعصة والكشخة -شيء من الكبر- يخرج إلى الشارع يمشي الهوينى، ويستقر به المقام أمام دكان الحاج رضوان. يجلس على كرسي قصير الأرجل مصنوع من السعف، ويأتي نفر من الشيوخ يشاركونه الجلسة، يستمعون إلى أبي عفيف وهو يحدثهم عن بطولاته.

أخرج أبو نزيه علبة الهيشي ليلف سيجارة... يضع رأسها المدبب بين شفتيه بعد أن يقضم منها جزءًا صغيرًا ليسمح للدخان بالنفاذ إلى رئتيه، يقذفه من طرف لسانه كيفما اتفق، يشعلها بقداحة الكاز وينفث دخانها بوجه الحضور مشكلة سحابة بيضاء تعلو فوق رؤوس الجالسين، كأنها مدخنة بليل شتاء ساكن حتى لا يستطيعون مشاهدة وجوه بعضهم لبرهة من الزمن.

يكشها أبو صافي براحة يده مائلًا بوجهه إلى الخلف كي لا يستنشقها من أمام عينيه ممتعضًا منها، فيقول له مداعبًا بلهجته العامية:

- ول عليك وعلى سيكارتك، كأنها مدخنة ببور أبي ناصر!

يضحك الجميع...لكنه لا يأبه لهم ويستمر بالعج عليها حتى تنتهي.

يعتدل أبو عبد الله في جلسته على كرسيه الخشبي ويقول موجها الكلام إلى أبي عفيف:

-حدثنا يا أبا عفيف عن بطولاتك في معركة الكرامة.

يتبسّم الرجل ابتسامة الرضى، يُميّلُ عقاله ويرد طرفي شماغه فوق رأسه صانعًا قبة كالهرم، يضع رجلًا فوق رجل:

-حتى تصلون على النبي.

- اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رددها كل من كان حاضرًا.

- هذا يا جماعة الخير لما صارت حرب الكرامة، يوم٢١ أذار ١٩٦٨ أنا كنت رقيبًا بسلاح الدروع، وكانت الحرب قايمة بينا وبين جيش اليهود، أجانا خبر إنه اليهود دخلوا علينا من جسر الكرامة، واحتلوا الغور، وقالوا إنه جيشنا انهزم مثل ما صار بحرب السبعة وستين.

- صليتوا على النبي؟

- عليه الصلاة والسلام.

- المهم قام قايد الجبهة يومها الفريق عامر خماش وقال ما برد العدوان غير لوائنا يلي بقوده اللواء مشهور حديثة.

- معلوم...والله كفو ونعم الرجل.

شجعه أبو صافي ليستمر بالسرد. شعر بالغبطة فاسترسل:

- ونحن سمعنا الخبر من هون طرنا من الفرحة، ومثل البرق نطينا فوق المجنزرات والدبابات وتوجهنا لجسر الكرامة.

قالها وقفز من مكانه في حركة تمثيلية إيمائية ليعطي جوًّا من التفاعل.

شجعه أحدهم:

- عليهم.... عليهم.... عليهم!!!

- الله حيهم...الله حيهم، قال له أبو عبد الحميد مشجعًا.

- واليهود أولاد الكلب كان يقودهم موشي ديان الأعور صح؟ سأله أبو صافي.

- صح طال عمرك، ولعنة الله على المذكور.

فقاطعهم آخر:

- طيب كمل.

- ويا خوك لومِنَّا (أي عندما) وصلنا لقينا جيشنا والفدائيين اللي كانوا هناك ما كلين هوا، ونحنا دخلنا المعركة، وأنا كنت سايق دبابة، وفجأة شفتلك دبابة إسرائيلية جايه صوبي، ما امداني (أي لم أتمكن) أطلق عليها النار..... احزروا شو ساويت (أي ماذا فعلت)؟

- اه... شو ساويت؟

- دعست بنزين عالآخر وصدمت بدبابتهم.

قالها بحماس ثم انتصب واقفًا.

- يا لطيف... يا لطيف!!

قال عبد الحميد مبديًا انفعالًا مصطنعًا.

وأثنى أبو علي:

- يا إله العفو!

وبانفعال مفتعل قاطعهم أبو وصفي قائلًا:

- إيه وشو صار بعدين؟ كمل... كمل...

- ادمرت دبابتي ودبابته، وولعت النار بالثنتين.

رد أبو وصفي بلهجة كلها حسرة:

- لا اااااا لاااااا لا حول ولا قوة إلا بالله.

ساد جو من الحزن ثم تابع:

-حتى تزيدوا النبي صلاة.

-اللهم صلِّ على محمد..

-تعرفوا شو سويت؟

هزوا رؤوسهم بحركة تنم عن الاستفسار.

- قول...قول...شو سويت؟

قال:

- يوم ولعت الدبابة طلعنا منها أنا وجماعتي، وشفنا اليهود ما طلعوا من دبابتهم الله وكيلكم لقيناهم مربطين بجنازير وتفحموا فيها. على طول أني نطيت من فوق الدبابة، وهي مولعة، وألاقي بوجهي جنود مشاة صهاينة أولاد الكلب، وبلشت فيهم طططط... طططط.....طططط.... ظليت أرش فيهم لما خلص الفشك مني.

صاحوا كلهم:

- يا لطيف تلطف..... يا رب العفو...تسلم يمينك!!

- حتى تصلوا على النبي.

- عليه الصلاة والسلام.

وصارت المعركة بالسلاح الأبيض، وهجمت عليهم أنا وربعي من الجيش والفدائيين بالسلاح الأبيض وقتلناهم كلهم ما طلع منهم لمخبر.

- الله أكبر...الله أكبر!!

- وظليتوا بلا دبابة؟

- اه ظلينا بلا دبابة، هذيك الساعة قلت لنفسي يا أبو عفيف الموت جايك جايك ليش ما تموت شهيد وأنت بطل؟ ... صليتوا على النبي؟

-عليه الصلاة والسلام.

- وبعدين؟

رد بفخر بالغ وانتصب مرة ثانية على قدميه وقد جحظت عيناه:

- بعدين؟! لديت (نظرت) يمين شمال شفت الدبابات الأردنية والإسرائيلية مشتبكات مع بعض، قمت أقفز من دبابة لدبابة يهودية أفتح الغطا وأطخ اللي فيها لأنهم كانوا مربطين بجنازير عشان ما يهربوا هالجبناء.

قاطعه ممدوح الذي كان يستمع باهتمام بالغ:

- ومن وين جبت الفشك عمي؟

فاجأه السؤال. رد متلعثمًا:

-ما أنا أخذت بندقية جندي يهودي من اللي ذبحناهم.

- أه... كمل عمي وبعدين شو صار؟

- بعدين اللي ظلوا هناك انهزموا.

انهالت عليه تعابير التهنئة:

-الله أكبر.... الله أكبر!!

- الله عليك يا بو عفيف!!

-براو براو براو يا بو عفيف!!

- عفية عليك.. يسلم البطن اللي حملك!!

ويعود ممدوح يسأله:

- طيب كم دبابة اللى أنت قتلت أصحابهن وغنمتهن عمي؟

رد:

- عشرة دبابات، ما شفتو الملك حسين لما راح على أرض المعركة وطلع فوق الدبابة؟ هذي، الله وكيلكم، الدبابة اللي أنا قتلت قايدها وأخذتها غنيمة.

- صح لسانك يا بو عفيف!!

- صح لسانك وتسلم يمينك!!

قاطعه أبو صافي:

- طيب قديش استمرت المعركة مع الجيش؟

- كانت المعركة على طول جبهة القتال من الغور لجنوب البحر الميت واستمرت ١٨ ساعة.

- والله إنك بتستاهل كاسة شاي يا بطل.

ممدوح كان يصغي باهتمام بالغ لهذه الرواية التي سمعها للمرة العاشرة، وكل مرة يزيد عليها ويهرها أبو عفيف، معطيًا تفاعلًا كبيرًا بما يفعله من حركات إيمائية بيديه وتعابير وجهه، سأله بخبث:

- وهل كافأك الملك على هذه البطولة؟

تنهد تنهيدة كبيرة وزم شفتيه وهز رأسه متحسرًا:

- مع الأسف لم أحصل ولا حتى على فلس أحمر. لكن أعطوني وسام.

تضامن الكل معه وقالوا:

-معلش...إلك الله يا بو عفيف... بكفي أنكم رفعتوا روسنا، وانتصرتوا على هالملاعين اليهود، وخاصة أنت كنت بطل بصحيح.

نهض من مكانه بعد أن فرغ من شرب الشاي عدل من وضع شماغه فوق رأسه وغادر المكان تاركًا من كانوا يستمعون إليه يغرقون بالضحك، فكلهم يعرفون أنه لم يشارك بحرب الكرامة، ووسام الكرامة منح لكل أفراد القوات المسلحة آنذاك.

ناداه أبو صافي:

- وين رايح يا رجل؟ تعال سولفلنا عن حرب حزيران هههههه..

لم يلتفت إلى الخلف، أشار بيده وهو يقول:

- بعدين بعدين، أنا رايح أحرس كرم العنب من الخنازير البرية.

يرد عليه: دير بالك تراهم يقولون إنها خطيرة.

- ما عليك.. لا تخاف علي وأنا أخوك.

يثني آخر:

- والله قدها وقدود أبو عفيف[٩].

إنه الإيمان بالله وبعدالة القضية... مئة صادقة تغلب ألفين، لواء مدرع هزم وقهر أكبر قوة عسكرية في المنطقة، إنه لفخر لنا هذا النصر الكريم.

المهم....

ما علينا من كوفية أبي وصفي المتسخة، ها هو اليوم يقف منتصبًا أمام

---

[٩] تعرض الكاتب إلياس فركوح في روايته قامات الزبد صفحة ٩٨ إلى معركة الكرامة وقال بالحرف الواحد: يوضحون أن معركة حامية الوطيس وقعت إبان تلك الأيام بين العدو ورجال مسلحين وجنود كانت نتائجها مفاجئة للطرفين!... إذ اندحر العدو رغم انتصاره الكبير السابق وثقته المطلقة بقدراته العسكرية. بينما كانت مجموعات المسلحين والجنود قليلة العدد وبلا تجهيزات ثقيلة.

الفسحة نصف الدائرية التي صنعها في حقل القمح، يقضم منها قضمًا كما دودة القز لورقة التوت... يقف بين الغمار[١٠]، يمد بصره في الأفق البعيد، تتموج سنابل القمح أمامه برتابة معانقة نسمات حزيران الدافئة كموج البحر، تداعب نسماته سطحها تعزف بأصواتها الهامسة سمفونية لا يتذوقها إلا الفلاح.

يطلق تنهيدة عميقة من صدره المتحدي للسنابل، يلتفت إلى أبي جديع ويقول ناخيًا له-أي طالبًا العون والتحفيز على النشاط- :

-أبو جديع.... يابو جديع.

يلتفت إليه أبو جديع، وهو واقف أمام الساحة المخصصة له بين ما صنعه من غمار، يرفع المنجل بيده إلى الأعلى كما الجندي يرفع بندقيته استشعارًا بالنصر ويرد بعبارات متداولة بين الحصادين تعني أنه سيكون له معينًا وسندًا في عمله. ويرد بحماس بالغ:

- عنننندك...يا ناخي عندك.....لححححد...يا باطل!!!

ثم يعيد أبو وصفي النداء لأبي العباس فيرد عليه بالمثل.

ويهوي ثلاثتهم بالمناجل، يقصفون سيقان السنابل الهشة، فغدت تئن تحت ضربات مناجلهم مصدرة تلك الأصوات الممزوجة بحز المنجل.... كما الآنين؟

أيتها السنابل...أما عرفتِ أن لكل شموخ نهاية، واليوم أتت نهايتك، وستذهبين إلى البيادر لتدوسك حوافر البغال وألواح الدرّاسين. لكن لا تقلقي

---

١٠ أكوام السنابل.

سنعتني بك ونقوم بتخزينك في أحسن الأماكن، لن تشتكي بردًا ولا حرًّا، حتى يوم زفافك إلى ببور أبي ناصر الطحان.

يبدأ أبو وصفي في الغناء وهم يرددون خلفه:

منجلي وا منجلاه...

راح للصايغ جلاه.

ما جلاه الا بعلبة

يا ريت العلبة عزاه,

منجلي يا بو رزه

واشتريتك من بلد غزه

فصل للمحبوب كنزه

يا رب تحقق رجاه

****

والندى يا مبركه...هد حيلي واضنكه

والندى لولا الندى....كان زرعي ممددا.

ولكي يستثيرون الهمم ويطردون الكسل والملل يغنون:

يا مفلِّس روّح عالدار...تلقى الطنجره عالنار

تلقاها مليانه جريشه...الله يقطعها من عيشه.

وأحيانا لاتخلو أهازيجهم من أشعار الغزل :

ريت الحصيده تقعد شهرين

تاظل أشوفك يا نور العين

تتمايل السنابل الممتلئة بالقمح بين أيديهم طربا، يصنع منها شملة بحجم قبضة يده، يلفها ببعض السيقان فتبدو حزمة مربوطة بإحكام، بعضها تخرج من جذورها محملة بالتراب، يضربها بكعب المنجل، ويهزها هزًّا حتى تتخلص من تلك الأتربة الملتصقة بها.

كل عشر شملات أو يزيد تتراكم فوق بعضها لتشكل غمرًا، سيتم تجميعا فيما بعد تمهيدًا لنقلها إلى البيادر.

قاربت شمس حزيران الساطعة على الوصول إلى كبد السماء... يشعر الحداء أبو وصفي بالعطش فينادي على ممدوح.

- جيب مي يا ولد.

يأتي على مهل، لم تُفلح (البرنيطة) الأجنبية، أي القبعة ذات المظلة التي يضعها فوق رأسه في حمايته من لهيب الصيف، تلفحه رياح حزيران الحارة فيتوشح وجهه بالسواد، يضرب بيده على أذنيه ليطرد الهسهس، وبيده الأخرى يحمل قلّة الماء (جرة صغيرة).

ينهره أبو وصفي: أسرع يا ولد.

لم يكترث ولم يأبه للنداء وكأنه لم يسمعه.

أخيرا يصل إليهم متكاسلًا، يمد له القلة.... يمسكها أبو وصفي، يرفعها فوق فمه حانيًا رأسه إلى الخلف كي تسقط قطرات الماء إلى حلقه دون أن تمس شفتاه.

يصدر عن تجرعه للماء صوت كصوت الجرس المكتوم، يكرع، ثم يكرع حتى يرتوي، وممدوح ما زال واقفًا يتأمله منتظرًا أن ينهي. يكش الذباب تارة عن وجهه والهسهس تارة أخرى عن أذنيه.

يتناولها بتكاسل ويتجه بها إلى الآخرين. قال له أبو جديع:

- عاجبيتك هالصنعة يا هامل؟ ليش تركت المدرسة.

رد بشيء من العصبية والجلافة:

- آه عاجبيتني. وأنت شو دخلك؟

توقف عن العمل ونظر في وجهه نظرة غاضبة وقال:

- شو دخلني؟!تفو عليك.. والله لو إنك ابني لقط(أقطع) راسك بذا المنجل، امشِ روح انقلع من وجهي. بكرة بتشوف أخوك محمد لما يرجع من ألمانيا دكتور وأنت خليك حراث يا هامل.

يزْوِرُه بطرف عينه بنظرة شزراء، يصك على أسنانه ويكتم غيظه. ثم يحمل قلته ويعود إلى العريشة وهو يحدث نفسه: "حراث.... حراث.... وما له؟ أنا أعشق هذه المهنة فهي على أي حال أسهل من الدراسة. قال دكتور قال هيه شي غاد".

هذه ليست المرة الأولى التي يُذكر له فيها مديح لأخيه محمد، فلطالما شعر بالضيق والحزن نتيجة تفضيلهم محمدًا عليه، صار يحسده ولا يحب ذكره.

أبوه وأمه كانا وما زالا يميزان بينهما بالعطف والحنان، وحتى في الطعام؛ قطعة اللحم الكبيرة، وفخذ الدجاجة لمحمد، وكم من مرة اعترض وطالب بحقوقه لكن لا حياة لمن تنادي، لم يأبه به أحد، ولا ينادونه إلا بالهامل.

تولدت لديه نزعة عدوانية إجرامية، صار يختلق المشاكل مع أقرانه، ويتلذذ بخلق الفتن بين الناس.

قبل خمسة أعوام تعارك مع واحد من عائلة الجربان اسمه نادر، ضربه بعصا فشج رأسه، وطرحه على الأرض فاقدًا للوعي، ثم أهال على وجهه التراب

كي يوقف النزيف الذي راح يتدفق من رأسه كالنافورة، ولما توقف النزيف قلبه برجله على وجهه وهو دون حراك فظن أنه قد مات.

لم يشعر بالأسى أو الخوف وتمنى أن يكون قد مات فعلًا.

يومها لم يرجع إلى البيت، كان قميصه ملطخًا بالدماء فخاف من أبيه أن يضربه، ففي كل مرة كان يتشاجر مع أحدهم يضربه أبوه كي يرتدع ولكن دون جدوى.

ذهب إلى بيت عمته، كاد أن يغمى عليها عندما رأت ثيابه ملطخة بالدماء وراحت تصيح وتولول:

- من فعل بك هذا يا عمة؟

قال بكل برودة أعصاب:

- أنا قتلته يا عمتي، وهذه الدماء منه وليست مني؟

سألت بدهشة وخوف:

- ماذا؟! قتلت من؟ من هو الذي قتلته؟

- نادر بن أبو نادر.... استفزني فضربته بالعصا على رأسه، سقط على الأرض مغشيًا عليه ومات.

راحت العمة تلطم على وجهها وتولول، أدخلته إلى الحمام ونزعت عنه ثيابه واستبدلتها بثياب من ثياب ابنها.

كان زوجها ضابطًا برتبة عالية في الجيش، ويومها كان في إجازة. كان يقلم أشجار التفاح في الحديقة. خرجت إليه لتخبره بالكارثة وإذ هو يحاور الفتى الذي امتلأت يداه بالحجارة يريد أن يكسر زجاج المنزل، وزوجها لا يدري ما الأمر.

سأله بإشفاق:

- من الذي فعل بك هذا؟

رد بكلمات غير موزونة:

- إنه هو وليس غيره..... ممدوح.... وهو يختبئ عندكم، دعوه يخرج إليّ سأذبحه... وإلا كسرت الزجاج.

كان يتكلم وهو يتأرجح، ثم يسقط على الأرض وينهض كالسكران، فقد خارت قواه من كثرة فقدانه للدم.

وعلى صوت الجلبة خرجت إحدى النساء لتشاهد ما الأمر، فعرفته إنه من أقاربها... هرعت إليه مذعورة، سألته: من فعل بك هذا؟!

أجاب: أبو ممدوح وابنه ضرباني لأنني مررت من بستانهما.

تركته يصارع الموت وراحت مسرعة تجري إلى أهله لتخبرهم بالأمر.

صاحت بملء صوتها لتسنفرهم وهي تولول وتلطم خديها:

- وين راحوا الرجال؟ وين راحوا النشامى؟ راجح الصيرفجي وابنه ممدوح قتلوا ابنكم نادر.

ثارت الحمية بينهم واستغل المنافقون الظرف وراحوا يؤججون نار الفتنة.

في الأثناء وصل نادر إلى باب دكان الحاج رضوان وكان عدد من الشيوخ يجلسون يتبادلون الأحاديث، وأبو ممدوح جالس يلعب الطاولة مع أبي شفيق كعادتهم، عندما شاهدوه غارقًا بدمائه، هبوا كلهم واقفين يستفسرون من فعل به ذلك، وعلى رأسهم أبو ممدوح سأله بعطف بالغ:

- من فعل بك هذا يا عم؟

رد: يلعن أبوك إلى أبو ابنك.

وما كاد ينهيها حتى انهالت العصي والحجارة على رأس الرجل وهو لا يدري ماذا حصل.

العمة كانت ذكية، قالت لزوجها خذ ممدوحًا واذهب إلى هناك فقد تحصل كارثة. حمله بسيارته العسكرية وما إن وصل وإذا بجمع غفير من الناس ينهالون ضربًا على الرجل، وكان هناك نفر قليل يحاولون تهدئتهم والحيلولة دون قتله وفك النزاع.

نزل ممدوح من السيارة وشاهد أباه ممددًا على الأرض غارقًا بدمائه، ففقد صوابه، وراح يمسك بهم واحدًا تلو الآخر يطرحهم أرضًا، حتى انتشر الخبر وهبت عشيرة الصيرفجي لنجدته، ودارت معركة بين الطرفين كان نتائجها إصابة وجرح اثنين من عائلة الصيرفجي، ومنهم أبو ممدوح وخمسة من عائلة الجربان، فقدوا الوعي ونقلوا إلى المستشفى.

ولولا تدخل أهل الخير لكانت المصيبة أكبر.

جاءت الشرطة واقتادت الأطراف المتحاربة إلى السجن. وراحوا يستجوبونهم. كلهم أجمعوا أن ممدوحًا وأباه الحاج راجي قد ضربا الفتى ضربًا مبرحًا؛ لأنه كان مارًا من بستانهم.

سأل الشرطي ممدوحًا الذي كان بين المحتجزين فقال:

- لا دخل لأبي بالموضوع. المشكلة كانت بيني وبينه على البيادر، شتمني فشتمته، ضربني فضربته وانتصرت عليه وأشبعته ضربًا، فخجل أن يقول إنني غلبته لأنني أصغر منه في السن فادعى زورًا وبهتانًا على أبي.

سأل كبيرهم:

- أين كان الحاج راجي عندما اعتديتم عليه؟

صمت وحار جوابًا قال:

- كان جالسًا أمام دكان الحاج رضوان.

هز المحقق رأسه غضبًا وقال مخاطبا رجال الشرطة:

- خذوهم كلهم إلى الحجز وسنكمل التحقيق عندما نتمكن من أخذ أقوال المصابين.

ثلاثة أيام، تعافى أبو ممدوح والآخرون، وجيء بهم إلى مركز الشرطة، وقف جميعهم أمام الضابط وتوجه بالسؤال إلى نادر:

- ما اسمك؟

- نادر.

-من الذي ضربك يا نادر.

- ممدوح وأبوه.

قاطعهم ممدوح وصاح به:

- أنت تكذب. أنا وحدي من ضربك وسوف أضربك مرة أخرى.

نهره الضابط.

- اخرس يا كلب.

- قل لي يا نادر: لماذا ضربوك؟

- كنت مارًّا من بستانهم فظنوا أنني سارق.

- وهل ضربوك في البستان؟

- لا تعاركنا على البيادر. قالها متلعثمًا.

يوجه السؤال لأبي ممدوح:

- وأنت يا حاج ألا تخجل من نفسك وأنت شيخ جليل لك مكانتك بين أهل

الجبل كي تضرب أنت وابنك هذا الصبي المسكين لسبب تافه؟

فار الدم في عروقه عندما سمع هذا القول، إنه لم يسبق أن أهانه أحدهم طيلة حياته، فكيف يهينه هذا الضابط الغر.

قال وقد بان الغضب على محياه، وبلهجة الواثق من نفسه:

- "وأنت أيها الملازم ألا تخجل من نفسك عندما توجه الاتهام إلى أحد دون أن تتأكد من الحقيقة؟ نحمد الله أنك لست قاضيًا، أما سمعت بقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾

[الحجرات: ٦]

وها قد جاءك هذا الفاسق بنبإ ولكنك لم تتبين وأصبتني بجهالة".

ألجم الضابط وكان واقفًا فجلس على كرسيه، أدرك أنه ارتكب خطأً، وأنه أمام صخرة ورجل ليس كباقي الرجال.

ولكي يكفّر عن غلطته تدارك وقال:

- إذن حدثنا بالحقيقة لنرى؟

كانت الحقيقة واضحة، وشعر أهل نادر بالذنب نتيجة تهورهم عندما اعترف نادر بالحقيقة.

قام أخوه وبصق في وجهه وقال له:

- قبحك الله... لعنة الله عليك... سودت وجهنا الله يسود وجهك.

تدخل الضابط وطلب منهم الالتزام بالهدوء، حمل أوراق التحقيق ودخل بها إلى رئيس المغفر أخبره بما جرى، فأتى على الفور وطلب من عائلة الجربان أن يعتذروا ويستسمحوا من أبي ممدوح وعائلة الصيرفجي.

لكنّ أبا ممدوح أبى ورفض الصلح.

لف عباءته على كتفه وشماغه فوق رأسه وقال لممدوح:

- هيا يا ولد نحن نعرف كيف نأخذ حقنا بأيدينا.

لم يأبه بأوامر الضابط له بالتوقف وخرج متوجها إلى بيته برفقة ابنه.

لم يتحدث معه طوال الطريق ولم يسأله لماذا تشاجرا، في حين ظل ممدوح متوجسًا خيفة من أن أبيه "سوف يُقطِّع العقال على ظهره"، لكن شيئًا من هذا لم يحصل.

في المساء تجمع نفر من أبناء عشيرة الصيرفجي في بيته يواسونه ويؤازرونه قال لهم:

-لا أحد يتدخل، هذه مشكلتي وأنا كفيل بحلها.

قبيل صلاة الفجر نهض من فراشه توضأ وصلى ركعتين ثم أيقظ ممدوحًا، صليا الفجر في البيت، وأخرج من الخزانة رشاش كلاشنكوف، وبندقية صيد (خرطوش).

قال له:

- خذ هذا الخرطوش، وتعال معي.

استيقظت أمه على صوت الجلبة وهالها ما رأت، راحت تتوسل إليهم ألا يفعلوا وأنها ستحصل كارثة كبرى، لكنهما تخلصا منها وخرجا، ونصبا كمينًا أمام المسجد.

قال لممدوح بلهجة حادة جادة:

- اسمع، كن رجلًا شجاعًا وأي واحد يخرج من إخوانه طخه.

- أمرك يا أبي...

قالها وهو بغاية السعادة، فلديه نزعة إجرامية بالفطرة.

خرجت أمه تتبعهم وتوجهت إلى أخيه أبي خليل تستنجد به أن يمنع المصيبة، فهرع الرجل يركض حتى ظفر بأخيه وأخذ السلاح منه، لكن كان قد فات الأوان خرج فتحي الأخ الأكبر لنادر، وهو أول من ضرب الحاج بالعصا في ذلك اليوم، من المسجد ليجد ممدوحًا شاهرًا بندقيته في وجهه، ودون أي تردد أطلق عليه النار فأرداه قتيلًا.

تعالت أصوات المصلين الخارجين من المسجد، وغادرهم ممدوح بكل برودة أعصاب، وضع الخرطوش في البيت وهرب إلى الزرقاء واختبأ عند أحد أقربائه.

نقلت الجثة إلى المستشفى وطوقت الشرطة البلدة، لا تسمح لأحد بالدخول أو الخروج، وتم اعتقال العديد من الطرفين واقتيد أبو ممدوح إلى السجن.

واختلط الحابل بالنابل، واستلت عشيرة الجربان أسلحتها، وراحوا يترصدون لأي شخص من الطرف الآخر.

قال قائل منهم: لن نقبل بأي واحد بدلا منه، سنقتل أكبرهم قدرًا ومنصبًا، وهو أبو سامر الذي يعمل ضابطًا في الجيش برتبة كبيرة، وهو زوج عمة ممدوح.

انتشرت الأخبار في كل أنحاء البلاد، وأرسلت القيادة العامة العميد أبا سامر ملحقًا عسكريا إلى جهة غير معلن عنها؛ حفاظًا على حياته.

ظل أبو ممدوح بالسجن والشرطة تبحث عن ممدوح وهو هارب، وقالوا لن يفرج عنه إلا إذا سلم نفسه. وتمر الأيام حتى ذهب إليه ابن عمه خليل وأخبره بذلك فعاد إلى البلدة صاغرًا وسلم نفسه للعدالة. وأطلق سراح والده ووجهت له تهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد وحكم عليه بالإعدام.

في السجن راح يجمع الخاوات من النزلاء، ويتاجر بالمخدرات والممنوعات، ويعيث فسادًا حتى رجال الأمن لم يسلموا من أذاه.

عندما أفرج عنه كلهم تنفسوا الصعداء وقالوا أشهد أن لا إله إلا الله.

بعد عام، قتل الحاج عبد الله وهو يبيع في دكانه بالمدينة المجاورة، وهو من وجهاء عشيرة الصيرفجي ورجل معروف بجوده وكرمه ومساعيه للصلح بين المتنازعين. قتله ابن فتحي الجربان، وهو صبي في الثانية عشرة من عمره، اقتادوه الكبار إلى أمام الدكان وكانوا قد علموه ودربوه على استعمال السلاح، قالوا له: هذا هو عدونا، وهذا هو ثأر من قتل أباك فاقتله.

دخل الصبي الدكان وكأنه يريد أن يشتري، ومن مسافة لا تزيد عن متر صوب المسدس إلى رأس الرجل وأطلق رصاصة واحدة كانت كفيلة بقتله.

أصيب الصبي بالهلع وسقط المسدس من يده، وظل واقفًا متسمرًا كالصنم مكانه حتى تم تسليمه للشرطة.

سيوضع في سجن الأحداث لبضع سنين ويخرج....

ذلك لأنه حدث. ولك أن تتخيل يا بني، تلك البلدة الوادعة كيف تحولت إلى أرض معارك، كلّ يده على الزناد، وأمام كل بيت سيارة شرطة، وعلى المداخل والمخارج انتشرت نقاط التفتيش. وكادت الأمور أن تخرج عن السيطرة لولا تدخل الملك حسين ووجهاء العشائر من كل صوب، أفرج عن ممدوح، واعتبروا واحدًا مقابل واحد وتم عقد صلح عشائري بين الطرفين.

*****

فصل ٤

الرأس المكشوف في أيام الحصاد يشكل مرتعًا خصيبًا للهسهس والحشرات الطيارة. يا لهذا الهسهس اللعين!! لا يحلو له إلا الدخول في الأنف أو في الأذن مصدرًا طنينًا يؤدي إلى الجنون.

يضرب أبو وصفي أذنه بكفه ليقتل تلك الذبابة الصغيرة قبل أن تدخل أذنه فتحدث طنينًا مزعجًا... يدعكها بإصبعه ثم يواصل عمله منشدًا:

نخ يا جملنا....

يرد عليه أبو جديع وأبو العباس بصوتٍ واحد:

- يا حامل حملنا.

- الهيلامان.... الهيلامان.

- يلعن راس أبو الزعلان.

يقطع نشيدهم صوت الحاج راجي الصيرفجي وهو قادم على فرسه الهزيلة يحييهم:

- يعطيهم العافيه النشامى.

يردون:

- الله يعافيك.

يترجل عن صهوة جواده.

يضع كفة يده الشمال مبسوطة على منتصف جبينه ليحجب ضوء الشمس عن عينيه مشكِّلًا مظلة لتسمح له بالرؤية البعيدة... يجول ببصره على

حقل القمح. يشعر بالرضى ويحمد الله.... ينظر إلى البعيد وكأنه مسافر جاء إلى الميناء بانتظار سفينة تظهر من وسط اليم البهيم.

يلتفت إلى الغمار يتفقدها... يمشي في آثار الحصادين ليرى هل من سنابل قد فرت من أيديهم خارج الغمار؛ فالحصاد الشاطر لا تفر من يده سنبلة واحدة.... يشعر بالرضى.

- ما شاء الله، لقد أنجزتم عملًا رائعًا بارك الله بجهودكم، والآن حان وقت الغداء هلموا إلى العريشة.

يضع كل منهم سلاحه النهم في مكانه ويتوجهون نحو العريشة، يتقدمهم أبو ممدوح، وما إن هم بالدخول حتى تراجع مذهولًا وهو يصيح:

- أفعى..... إنها أفعى!

يتراكضون باتجاهه ليشاهدوها... ويطل أبو وصفي برأسه وبيده عصا كانت مركونة بجانب العريشة.

معروف لدى الفلاحين أن الأفاعي تكثر في هذا الشهر، تخرج من جحورها باحثة عن طعامها وهو غالبًا ما يكون من الفئران والسحالي، وهذه تكثر في حقول القمح لوفرة الغذاء من الحشرات وفي مقدمتها الجراد، لذلك يهيئون العصي لقتل الأفاعي.

شعرت الأفعى بالخوف فاعتصمت بزير الماء وكمنت خلفه متخذة وضعية الهجوم، قذفها ممدوح بحجر عن بعد فارتبكت وانسلت هاربة من العريشة باتجاه السنابل، لاحقوها بالحجار وتم حصارها وأصبحت لا حول لها ولا قوة فراحت تفتح فاهها وتهاجم ولكن دون جدوى، وأخيرًا باغتها أبو وصفي بضربة من عصاه فأرداها.

راحت تتلوى وما زال بها رمق حياة، قال له أبو ممدوح:

- عليك برأسها فالأفعى لا تموت إلا إذا حطمت رأسها.

انتهت المعركة بالنصر وعاد المقاتلون إلى العريشة ولكنهم دخلوها بحذرٍ بالغٍ إذ ربما يكون هناك بقية من أقاربها.

طنجرة المقلوبة بالدجاج هي الأكلة الرائجة والمفضلة لدي الحصادين، فهي تملأ بطونهم الجائعة، وتشعرهم بالرضى عن صاحب الأرض، فيجودون بالعمل تقديرًا لكرمه.

وكالعادة مهمة إشعال النار وتجهيز الشاي تقع على عاتق ممدوح الذي يجد متعة في إشعالها وهو يزودها بالحطب.

- أراكم أنجزتم عملًا رائعًا، قال أبو ممدوح ثم واصل:

- غدا - إن شاء الله- سنرجدها؛ أي سيتم جمع الغمار وإرسالها إلى البيادر، وسيأتي نفر من النساء لمساعدتنا.

- إن شاء الله.

- يا لها من أكلة شهية الحمد لله.

- اللهم اجعلها نعمة دائمة واحفظها من الزوال.

- آمين.

- أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة.

بعد أن حمدوا الله وأثنوا على أبي ممدوح وفرغوا من لف التبغ الهيشي وشرب الشاي صلوا صلاة العصر وعادوا إلى عملهم بهمة ونشاط.

قبّرة حائرة أخذت تحلق فوق رؤوسهم تارة وتبتعد تارة مصدرة نغمة حزينة، وكأنها تريد أن تقول لهم: ماذا تفعلون أيها الحمقى؟ من أين أتيتم

لتقتحموا على سكينتي ومسكني، إنكم تقتربون من عشي ومن صغاري، خبأتهم عن العيون وعن الأفاعي. إنكم تقصفون تلك السنابل التي تحميهم... أرجوكم ابتعدوا.

يعرف الحصادون هذه النغمة جيدًا ويفهمونها. قال لها أبو جديع: لا عليك... إن سلمت من ممدوح فأنت في أمان.

ويقتربون من عشها رويدا رويدا فصاروا اثنين -القبرة وزوجها-، وقررا رد العدوان فراحا يقومان بحركات هجومية لإبعادهم.

في أجمة صغيرة وتحت حجر حفرت تلك القبرة حفرة وبنت فيه عشها، بَنَته بعناية فائقة وكان بألوان الطبيعة لا يستطيع رؤيته إلا خبير بأعشاش الطيور ولا يوجد أحد ينافس ممدوح في هذه المهمة. ظل يبحث عنه حتى وجده.

مسكينة أيتها القبرة، يا لحظك التعس!! فقد احتل بيتَك عدو ظالم لا يرحم سوف يأخذ صغارك يتسلى بها يتركها تمشي، ثم يمسك بها ولا أظنها ستنجو.

- اعذرينا فقد حاولنا إقناعه أن يترك لك واحدًا منها على الأقل لكنه أبى.

- الله يعوض عليك أيتها المسكينة.

قالت الشمس لهم وهي تتوارى عن الأنظار رويدا رويدا، وتحول قرصها الساطع إلى كرة نصف قرمزية اللون، وراحت النسمات تهمس للسنابل.. هيا يا أبنائي عودوا إلى مساكنكم فقد آن الأوان لمجيء القمر لينوب عني في عتمة هذا الليل البهيم.

أحكم ممدوح غطاء الزير بقطعة من القماش ربطها على عنق الجرة بإحكام كي لا يدخل إليها متطفل أثناء الليل.

واتكأت المناجل المتعبة شفراتها على جدران العريشة تتنفس الصعداء تأخذ نفسًا عميقا ليعود لها نشاطها في الأيام التالية فما زال الموسم في بدايته.

وربضت العصي المعدة للدفاع عن النفس ضد الهوام خلف الجدران، أما إبريق الشاي فقد حظي هو الآخر بقسط من الراحة.

سكب ممدوح ما بداخله من حثل ثم لحلحه بقليل من الماء ولفه بكيس من البلاستيك وأحكم إغلاقه وعلقه بشنكل يتدلى كالثريا من السقف خصيصى لهذه الغاية.

في القرية، هناك.... بعيدًا بعدة خطوات إلى الغرب من منزله شيد أبو ممدوح بيتًا كبيرًا أطلقوا عليه اسم (البيت الغربي) خصص نصفه لمبيت الحصادين والنصف الآخر لتخزين الغلال والأعلاف، وفي الخلف زريبة مسقوفة بالقش للفرس والأغنام وبها متسع لإبل الجَمَّالين.

وفي الأمام "برندة" واسعة مصبوبة بالأسمنت يحيط بها سور بارتفاع متر، فرشت على جنباتها الأرائك والنمارق، وعلى الجدار علق مصباح يعمل على الكاز(ضو نمرة ٤)، ينبعث ضوؤه خافتًا من خلال بلورة زجاجية توشحت فوهتها من الأعلى بالسواد، يداعب البدر في سكون الليل ويغازل الفراشات التي تدور متراقصة حوله.

وفي الوسط طاولة من الخشب بأرجل قصيرة، عليها أباريق الماء البلاستيكية والكؤوس الزجاجية وأشياء أخرى.

وأحيانا ينزل مصباح الكاز من عليائه ليجثم فوقها والمتسامرون يتحلقون حوله، وتنقضي السهرة باكرًا ويعود المتسامرون إلى منازلهم يحملون في أياديهم مصابيح يدوية (لوكس) تعمل على البطارية لتنير لهم عتمة الطريق.

التعليلة في القرية مع الحصادين لها نكهة خاصة لا يستطيع أبو خليل وابنه خليل أن يتخلى عنها في بيت أخيه أبي ممدوح.

أبو خليل هذه السنة زرع أرضه بطيخًا وذرة وبندورة، وفي الموسم القادم سيتبادلون الأدوار، سيزرع عدسًا وشعيرًا؛ ذلك لأنه سيأخذ ما يحتاجه من المؤونة من غلال أخيه وفي المقابل يزود أخيه بالشعير والذرة كأعلاف للحيوانات.

في الصباح الباكر تستيقظ نساء البلدة وكل واحدة منهن كانت قد أعدت العجين ووضعته في إناء يسمى (لقن العجين)، منهن من كانت تمتلك فرنًا (للطابون) مثل أم عادل... كانت قد كمرته (بالجلّة)[١١]، أو أوراق الأشجار اليابسة التي كانت تجمع من غابات البلوط (السنديان)، وأشعلت به النار حيث تستمر مجمرة دون لهب يتصاعد منها دخان أزرق، له رائحة يعشقها أهل الريف، حتى إذا ما الصبح تنفس يكون الفرن حارًّا وجاهزًا للخبيز.

ولكن غالبية النسوة ممن ليس ببيوتهن فرن للطابون كن يذهبن إلى مخبز الحاج رضوان، وكان يعمل به الخباز إبراهَيم المغربي. رجل ثلاثيني طويل القامة، أبيض البشرة أزرق العينين لا يعرف أحد من أين جاء، لكنه يقول إنه من المغرب؛ ولذلك غلب عليه اسم المغربي.

ينزل إلى حفرة بعمق متر تقريبًا أمام فتحة ذاك الفرن الذي يعمل على الديزل، والذي بُنيت أرضيته من الإسمنت، ثم تم وضع طبقة من الملح المخلوط بشظايا الزجاج تحتها، وفوقها طبقة من الطوب الحراري؛ كي يحتفظ بالحراة

---

[١١] مخلفات البهائم الجافة.

لأطول مدة ممكنة.

أمامه عصا مستقيمة مثبت بطرفها قطعة من الخشب المسطح على شكل مستطيل يتسع لرغيف واحد من الخبز المشروح. يرش ذرات من الطحين على المسطبة التي أمامه ثم يرق العجين بيديه العاريتين المتسختين أحيانًا، يضعها على العارضة الخشبية ويدسها في الفرن لتعانق ذاك اللهب المتوهج حتى تنضج فتفوح منها رائحة زكية يسيل لها لعاب الجائعين.

كانت أجرة الخباز تُدفعُ إما طحينًا أو حبوبًا أو خبزا، وأحيانًا كان بعض الموسرين يدفع نقودًا.

تأتي النسوة في الصباح الباكر يتسابقن لحجز الدور، وهناك تعقد الجلسات وتدور الحوارات بينهن، وإبراهيم الخباز يستمع إليهن بمتعة لا مثيل لها، وأحيانا كثيرة كان يشارك في الحديث، فيسرد لهن حكايات وبطولات جلها وهمية.

منهن من تشكو زوجها، ومن تشكو حماتها، ومن تشكو كنتها، وهذه لا تحبل ينصحها المغربي أن تذهب إلى الشيخ مقبل، فهو يعالج للحبل. وهذه تشكو من ألم في الركب والمفاصل فينصحها باستخدام زيت الزيتون.

مختصر الكلام كان المغربي خبازًا راويًا طبيبًا مستشارًا، وكان غير متزوّج، وربما من كان من بينهن من تهوى مغازلته مثل وضحا الأرملة التي اقترن بها وتزوجها فيما بعد.

يستريح بين (الطرحة والطرحة) الخبزة والخبزة. أمامه إبريق الشاي وكأس لا يكاد يبين لونها من أثر الطحين، كانت دائما تحتوي على بقية من الشاي ولا يهم أكان ساخنًا أم باردًا، يشعل سيجارة جولدستار.... يشفط منها شفطتين

ويجرع من كأس الشاي جرعتين، ويضع بقية السيجارة أمامه على حافة البسطة ويباشر عمله.

أحيانا كان يبقي السيجارة بين شفتيه وهو يرقُّ العجين، يدخل دخانها في عينيه فيغمض إحداها ويواصل الرّق، وكم من مرة سقط الرماد واختلط بالرغيف، وعندما تنهاه يقول إن هذا الرماد يحتوي على معادن ضرورية لجسم الإنسان.

عندما تشارف الشمس على البزوغ يكون المغربي قد فرغ من الخبيز، ويبدأ أهل البلدة الموسرين بإرسال صواني الدجاج بالبطاطا، وصواني المعكرونة باللحمة، وأحيانا فطائر الحميض والسبانخ، وأحيانًا الكوسى والباذنجان ليشوى لعمل المتبل، فتفوح تلك الروائح الشهية لتملأ أرجاء المعمورة.

ومن الجدير بالذكر أن الخبز في هذه البلدة لا يباع[١٢]، فمن ينقص عليه شيء يقترضه من جاره وعلى الرحب والسعة، ثم يرده في اليوم التالي. يذكر في هذه البلدة كلهم يعرف بعضهم بعضًا، يتبادلون أطباق الطعام أو الحلوى، ومن يأتيه طبق من جاره أو صديقه لا يرده فارغًا.

وبعد صلاة الفجر يفتح كل واحد منهم أبواب زريبته سامحًا لأغنامه بالهرولة استجابة لنداء الراعي الذي يكون مارًّا من وسط البلدة ينادي بأعلى

---

١٢ مع ظهور السيارات كان العم تركي يشتري الخبز من المدينة لبعض العائلات، فصاروا محلا للسخرية والتهكم وكانوا يتعرضون للانتقاد من الأهالي ويعتبرونه عيبا، ولكن بعد مضي عام راح السكان رويدًا رويدًا يتحولون إلى شراء الخبز من المدينة المجاورة، ومع الزمن توقف مخبز الحاج رضوان عن العمل.. لكنه ما زال موجودًا حتى يومنا هذا كبناء أثري أما اليوم فقد امتلأت البلدة بالمخابز الحديثة والمتنوعة.

صوته على أغنامه. وكان هناك أكثر من راعٍ ولكن سبحان الله كل بهيمة تعرف راعيها.

يتوجه الحصادون إلى أعمالهم كالمعتاد، وما إن تبزغ الشمس بلونها القرمزي الخافت وتروح تزحف كالسلحفاة متسلقة سلم الصعود إلى السماء حتى تبدأ أسراب الحمير والجمال تظهر على الطرقات في كرنفال سنوي ليس له مثيل، تدب الحركة والحياة في حقول القمح، وتتعالى الأصوات في أنحاء المعمورة كلها.

كان في المقدمة ممدوح يمتطي صهوة حماره الأشهب، وقد وضع على ظهره آلة خشبية، تتدلى على جانبيه فوق الحلس (السرج).

سُلَّمان من الخشب ربطت بشكل هرمي من الأعلى يسمى (القادم بلغة الفلاحين) ثبتت أطرافه العلوية إلى بعضها بعضًا بإحكام بحيث تكون مرنة لتسمح بسهولة الحركة. وأما طرفاه السفليان فقد تم ربط حبل غليظ بكل طرف منها يوضع على الأرض بشكل مثلث متساوي الأضلاع، ويأتي دور الغمارين الذين يجمعون السنابل المكومة ويصفونها ما بين الحبال والسلم حتى تكتمل فيُشدُّ الحبل عليها حتى لا تسقط على الطريق وهي متجهة إلى البيادر.

في هذه البلدة درجت العادة أن يساعد المزارعين بعضهم وخاصة في بناء البيوت الطينية وموسم الحصاد. ففي موسم الحصاد يستعيرون الحمير والقوادم، وأحيانًا يتطوع بعض الفتية من الأقارب للمساعدة في التغمير، إنه عمل شاق وكثرة الأيدي العاملة تعطي زخمًا معنويًّا للعاملين، وتكون عونًا لهم على إنجاز المهمة بسرعة.

يرددون الأغاني والأهازيج ويتناخون ليطردوا الملل، وفي وقت الظهيرة يكافؤون بطنجرة مقلوبة أو منسف، أو صينية بطاطا بالدجاج خرجت للتو من مخبز الحاج رضوان على يد إبراهيم المغربي.

يا حلالي يا مالي ويا ربعي ردوا عليه
وأول ما نبدأ ونقول... نصلي ع طه الرسول
عبد الله وأمره شديدِ... يحط المجرم بالشيدِ
يا ريت ابنيكم يكبر... ويجيب النفع الجديدِ

فيردون عليه:

يا حلالي يا مالي...يا ربعي ردو عليه.

تتوجه النساء بعد أذان العصر إلى بيوتهن، منهن من تحمل سطلًا على رأسها متجهة إلى بئر الماء[١٣] التي تمتلئ بفعل الأمطار، ولا يتم استعمالها طيلة موسم الشتاء لأن المياه تكون غير صافية، وكانوا يستفيدون من المياه التي يجمعونها في براميل نظيفة من مزاريب الأسطح. المياه كانت هي المشكلة الكبرى التي تواجه السكان، لذلك عمد بعض الأهالي إلى حفر آبارٍ إسمنتية في منازلهم، يملؤونها بمياه الأمطار المتجمعة من أسطح المنازل، ورويدا رويدا تم الاستغناء عن الآبار الرومانية، وصار لكل منزل بئره الخاصة، إلى أن وصلت مياه السلطة في أوائل الثمانينيات من القرن المنصرم.

---

١٣ كان لكل عائلة من العائلات الميسورة بئر خاصة تمتلكها ضمن مجمع من الآبار المحفورة في منطقة صخرية تبعد عن مساكنهم حوالي ٣٠٠ متر أو أقل ومن لم يكن لهم بئر تذهب نساؤهم إلى عين الماء في عبلين وهي من البعد بحيث يستوجب استخدام الحمير للنقل.

الجمّال رجل جاء من البدو معه ثلاثة جمال مجهزة بقوادمها، يأتي في كل موسم حصاد، وبات معروفًا لدى أهل البلدة، يقوم بالعمل مقابل أجر، وعادة ما يكون نقودًا أو قمحا، بعد إخراج الغلال. كان يبيت ويأكل في بيت من يعمل عنده تلك الليلة. ولأن أبا ممدوح وأخاه أبا خليل يملكان المساحة الكبرى من الحقول والبيدر الأكبر، زد على ذلك أن هناك في البيت الغربي حوشًا يتسع للإبل؛ لذلك كان الجمّال غالبًا ما يبيت هناك مع الحصادين.

تستهويه وتستهوي غيره تلك التعاليل المسائية التي كانت تجلب الكثير من الأقارب والأصدقاء. أبو ممدوح وأبو فايز وأبو زهير وأبو صافي وأبو خليل كانوا لا يفارقون المجلس.

ما إن ينتهي جمع الغلال ونقلها إلى البيادر حتى يمتلئ الحقل بالصبيان والبنات يجمعون تلك السنابل التي فرت من أيدي الغمارين والحصادين. ويطلق عليهم اسم (اللقاطة)، يلتقطونها سنبلة سنبلة ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، ويحتفظون بها لأنفسهم، يأخذونها إلى بيوتهم ويستخرجون القمح منها تمهيدًا لبيعها للحاج رضوان أو لغيره من أصحاب الدكاكين، أو مقايضتها بالسمن والحلوى وأشياء أخرى.

ما إن يغادر الصبيان الحقل حتى يهرع الرعيان جالبين ما لديهم من مواشي لترتع ما تبقى من السنابل والقش والحشائش. تمرح وترتع حتى تصير الشمس في كبد السماء، تكون قد امتلأت بطونها بالغذاء وحان وقت احتياجها للماء.

كل راع يعرف أغنامه كمعرفته لأبنائه، عندما يعزف لها ألحانه على ذلك الناي الحزين تسترخي وترفل بثياب الطمأنينة.

في هذه الحقول لا يوجد ما ينغص عليها إلا ذاك الكلب اليقظ، والذي تترقب عيناه وتصغي أذناه لكل شاردة وواردة. اعتاد حمايتها وحراستها من الذئاب والضباع وهي كثيرة في الأدغال المجاورة.

كلب الراعي وحمارة بما يحمله من الزوادة والناي(الشبابة) جزء لا يتجزأ من حياته يكمِّل كل واحد منها الآخر. يناديها بأصوات تفهمها، أحيانًا يشتمها أو يقذفها بالحصى إن حادت عن السرب. وعندما يحين وقت العودة، يمتطي صهوة حماره ويوعز للكلب بالرحيل فيقوم الكلب بتجميعها، وهي في الغالب لا تحتاج إلى الكلب... تفهم من تلقاء أنفسها أن ساعة القيلولة قد أزفت.

تتسربل كلها بخط واحد خلف المرياع وهو كبش كبير عادة ما يكون مخصيًّا تعلق برقبته الأجراس، لتعطي لبقية القطيع الطمأنينة في أثناء الرعي وفي أثناء المسير. تضع الشاة رأسها تحت ظل سابقتها وتمشي مهتدية بصوت أجراس المرياع الذي يقوده الحمار، فأينما اتجه الحمار اتجه معه المرياع جارًّا كل القطيع خلفة إلى أن يصلوا إلى تلك البركة الممتلئة بمياه الأمطار، القابعة في وسط البلدة، والتي عادة تمتلئ في فصل الشتاء وتحتفظ بمياهها للعام القادم.

تَرِدُ عليها الأغنام والأبقار والخيول والحمير وتنام في قيلولة حتى يكون الراعي قد فرغ من تناول طعام الغداء ومالت الشمس نحو المغيب، يصلي صلاة العصر ويعود مرة أخرى إلى المرعى.

ومن الطريف في الأمر عندما تغيب الشمس ويعود الرعيان بالقطيع، ما إن تصل إلى بداية البلدة حتى تذهب كل شاة إلى بيت صاحبها، لتلتقي بصغارها الرضع وتجود بما في ضرعها من حليب.

على البيادر، (البيادر جمع بيدر) والبيدر هو أكوام من القمح في سنبله يتم تجميعها في كومة تمهيدًا لدراستها[١٤] وهذه البيادر ساحة تبلغ مساحتها العشرة آلاف متر مربع. منبسطة كالكف يغطيها بساط من العشب الأخضر والذي نبت بفعل مخلفات البيادر في العام المنصرم فصارت تشبه ملعبًا رياضيًّا يزهو بالأعشاب الخضراء.

تأتي قطعان الماشية لترتع بها فتجزها على وجه الأرض لتبدو وكأنها حديقة عامة جُزّت أعشابها بماكنات جز العشب بنظام رائع.

تم تقسيمها بين أبناء البلدة عرفًا؛ فكل عائلة تعرف مكانها دون أن تكون هناك حدود مرسومة، تضع حصادها من قمح أو شعير أو عدس أو غيره على تلك البقعة لتدوسها حوافر الدواب كالحمير والخيل والأبقار والبغال وهي تجر خلفها لوحًا من الخشب بعرض متر وطول مترين، ثُبِّتتْ بأسفله حجارة خشنة الملمس بفتحات ضيقة، يجلس فوقه غلام وبيده سوط أو عصا يهمز بها الدابة لتدور بحركة دائرية على القش فتحطمه مخرجة منه الحبوب. وهذا ما يسمونه بالدرَّاسة، يتبادلون الأدوار ويرددون الأهازيج كي تساعدهم على نسيان التعب وتعطيهم مزيدًا من الحماس.

فتاة صغيرة كان اسمها سرايا يغنون عليها الصبيان

(سرايا يا دراسة حُطِّي ابنيج بالطاسه)

وهناك آخرون يرددون هذه الألحان بنغم متواتر لتمنحهم القوة

---

[١٤] هرس سنابل القمح وسيقانها اليابسة باستخدام قوائم البهائم، ولوح الخشب الذي تجره تمهيدًا لفصل الحب عن التبن.

والمعنويات وتنسيهم التعب وتطرد الملل:

الواوي... والواوي... والواويه ...

شرقن... شرقن..... عالبريه...

شرقن واني معهن ريت القوم تطالعهن

تطالعهن.... وتباريهن وتشلع طواقيهن

واني اشلعل لي طاقيه

من طواقي السرديه....

بنت السلطان حاجبها يفرط رمان....

يفرط مد وربعيه بالصاع العزيزيه...

يخترق البيادر من الجانبين الأيمن والأيسر طريقان تُرابيان للمواشي وللحمير والبغال والجمال.

في أقصى الركن الغربي حفرة صغيرة يسميها أهل تلك البلدة بـ(المصرف)، ذلك لأنها تقوم بتصريف المياه التي تجمعت فيها أثناء هطول الأمطار والثلوج في فصل الشتاء، وعادة ما تكون غزيرة وبكميات كبيرة حيث تمتلئ عن بكرة أبيها لتسد الطريق الوحيد المؤدي إلى تلك البلدة فتعزلها عن العالم ليوم واحد فقط أو يومين؛ حيث يتولى صاحبنا المصرف أمر تصريفها بقدرة قادر لتنفجر مياهًا عذبة لنهر يسمى "أبو الجود" على بعد ٢كم من تلك البحيرة (البيادر).

وأبو الجود نهر قصير العمر لكنه عندما تفيض البيادر يتفجر من بين الصخور، ويجود بكل ما لديه من خيرات مخترقًا مدينة عجلون إلى كفرنجة، ليصب في نهر الأردن.

كل واحد يعرف مكان بيدره، وتأتي الجمال والحمير محملة بالسنابل لتفرغ حمولتها وتعود ثانية، أيام معدودات وينتهي عمل الرجاد ويكتمل نمو البيادر.

على الأطراف بُنيت خيم للوقاية من حر الشمس ونُصبت العرائش التي تبيع الحلوى والمواد التموينية للدرّاسين: الراحة، والبسكوت، والمصاص، والكعكبان، والملبس، والمخشرم، والقضامة كانت تحتل المساحة الأكبر في تلك العرائش. ولا يخلو الأمر من وجود البطيخ والشمام والفقوس.

تُجمّع السنابل على شكل قبة ثم بعد ذلك تفرد رويدا رويدا بشكل دائري تدور عليها ألواح الدراسين الخشبية التي تجرها الدواب. وكانت غالبا حميرًا، كل حمارين أو كل ثورين يجران اللوح، والسائق(الحوذي) صبي يقف أو يجلس على اللوح ليعطيه ثقلا يسمح بتكسير السنابل الهشة وتفتيتها.

ممدوح كان يجر لوحة فرسة يشعر بالتميز عندما ينهرها وتهرول خببًا، وأحيانا كانت تحيد عن المكان فيسقط عن اللوح. وبين الفينة والفينة يتم تقليب القش بأداة كشوكة الطعام تسمى (شاعوبًا) حتى يتسنى للوح تحطيمها كلها.

تستمر أعمال الدراسة أسبوعين أو يزيد، عندما تكتمل عملية استخراج الحبوب من السنابل ويصير القش تبنا ناعمًا يأتي دور (التذراية) وتستعمل فيها أداة تسمى المذراة، وهي عبارة عن أداة شبيهة بالشاعوب لكن الفرق بينهما أن أصابعها من الخشب، وقريبة من بعض، بينما الشاعوب أصابعه من معدن وهي متباعدة عن بعضها. في الليالي التي يكون فيها الهواء ساكنًا، يذرون التبن بما يحتويه من القمح، يقذفونه إلى الأعلى لمسافة مترين فتتولى الرياح الخفيفة فصل الحبوب عن التبن.

هنا يكون الخطر كبيرًا فهناك من يتسللون في الليل ويسرقون من تلك الحبوب ما يكفي لشراء كمشة من الحلوى، لذلك لا بد من وجود حارس يتولى الحراسة فتشاهد أضواء المصابيح الزيتية تنبثق من بين فتحات الخيم والعرائش بمنظر أشبه ما يكون بالنجوم المتلألئة.

هذه السنة جاء إلى البلدة مهندس زراعي مبعوث من وزارة الزراعة، وراح يشرح للمزارعين أهمية الآلات الزراعية، قال لهم إن وزارة الزراعة قد هيأت ماكينة تعمل على البترول يمكنها أن تنجز العمل في يوم أو يومين واتفقوا على تجربتها.

عاد بعد يومين وبرفقته فريق من وزارة الزراعة ومعهم درّاسة يجرها "تراكتور"، كان أول من جربها أبو ممدوح.

لها فتحة من فوق تتسع لحزمة متوسطة الحجم من السنابل والقش توضع بها ويدفعها فتى كان يقف على بابها، حتى تلج إلى الداخل وتأتي حزمة أخرى وهكذا دواليك. كاد المزارعون أن يقتنعوا بها لولا أن ابن العبد انقطعت يده عندما سحبتها الشفرة وهو يدس القش فيها وطحنتها مع القمح. ثارت ثائرة البلدة ومنذ ذلك اليوم فقدوا ثقتهم بوزارة الزراعة وآلاتها.

تجهز الشوالات وهي نوعان الشوال للقمح والخيشة ذات الحجم الأكبر للتبن.

يعلو الهرج والمرج وتسرد الحكايات والروايات إلى أن يكتمل المحصول، ويبدأ الكيال بالتعبئة بماعونين أحدهما صغير يسمى بالثمنية والآخر كبير يسمى (صاع) يملؤوه جيدًا وهو يعد ومن يمسك بفم الكيس يردد خلفه :

هي واحد.... الله واحد

هي ثاني.....ما له ثاني

هي ثالث.... تربح يالله

هي بركه... تطرح يالله

وهكذا حتى يمتلئ فتقوم النساء بخياطته بخيط قوي ومتين يسمى (المصيص) بواسطة إبرة كبيرة تسمى (المسلة).

وعند الانتهاء من التعبئة تقسم العطايا وتخرج منه الزكاة، ولا يخلو الأمر من تكريم الصبيان الذين شاركوا في التغمير أو غيرهم ممن جاؤوا يحملون معهم أكياسًا لهذه الغاية، يطرحون السلام بقولهم:

- البركة يا عم.

فيعطى لهم كيلين بمكيال سعته كجم تقريبًا (يسمونها براكة).

بعد الانتهاء... تقوم كل عائلة بتخزين ما جادت به حقولها من حبوب أو زوان أو تبن تحتفظ بما يكفيها والبهائم للعام القادم وتبيع الفائض في الأسواق.

ثلاثون يومًا أو يزيد تمر، ويختفي هذا الكرنفال السنوي، وترفع العرائش، وتحل الخيم أطنابها... ودكان العم هاشم ذاك الذي كان يبيع الراحة والبسكوت والبزر (الحَبْ) لمن يسرقون الحبوب خلسة من بيادر أهاليهم أو ممن يجمعون البراكة في انتظار الموسم القادم.

أما ممدوح فكان يسرق ما تيسر من بيدر أبيه ويبيعه للدكاكين أو يستبدله بسجاير الgoldstar.

يرحل المزارعون عن المكان تاركين البقايا الملتصقة بالتراب (للقاطة) وهم أولئك الفقراء أو الصبيان يجمعون ما تيسر وينظفونه ويبيعونه للدكاكين

الموجودة هناك وما تبقى يترك للدواب والطيور، وما يتبقى من مخلفات وحبوب غير نافعة ينتظر للعام القادم لينبت عشبًا أخضرَ يانعًا. وتترك الساحة للأولاد يقتسمون المساحات بينهم ليمارسوا ألعابهم المختلفة وأهمها كرة القدم.

وقد شدني الحنين لها وأنا في الغربة فوصفت تلك الحقبة من الزمن في قصيدة بعنوان:

شوقي إلى وطني (من ديوان العزف على أوتار مقطوعة)، أقول فيها وأذكر البيادر[١٥]:

وعلى البيادر جُزّئت أطرافـها/ فِرقٌ من الصبيان، جيلٌ مخملي

في الحي الشرقي من البلدة بناء تخرج منه أصوات منتظمة (تك تاك....تك تاك) ودخان من مدخنة يوحي بأن (ببور)[١٦] أبي ناصر الطحان أو ما يسمونه البرّاك يعمل بجد واجتهاد.

---

١٥ - ما زالت تلك البيادر تنبض بالحياة في فصل الصيف يمارس أبناء البلدة نشاطاتهم الرياضية عليها. وما زالت تمتلئ بالمياه في فصل الشتاء وما زال المصرف يتولى أمر تفريغها بسرعة مذهلة. لكن حقول القمح اختفت، واختفت معها الطيور البرية، والأراضي مزقتها الطرقات المعبدة والمباني الفاخرة واستبدل ما تبقى من حقول القمح بالأشجار المثمرة. أما قطعان الماشية فقد اختفت إلا القليل منها وحل محلها السيارات ولم يعد لبركة الماء أية أهمية فقد تم طمرها وتحويلها إلى ملعب لكرة القدم ثم بني فوقها مصنعٌ للألبسة الجاهزة.

١٦ المطحنة، استبدلت المطاحن بمعاصر الزيتون...أما ببور أبو ناصر فتم هدمه وبني مكانه مسجد جميل، مسجد الجنيد.

وعلى منصة مصبوبة من الإسمنت وقف ذلك الرجل قصير القامة أزرق العينين، ممتلئ الجسم، يرتدي سروالا أبيضَ وقميصًا نصف كم ويضع على رأسه قبعة عسكرية بلا شعار، لا تستطيع تمييز لونها الأصلي، فكل ما يرى منه عيناه وشفتاه وباقي جسمه مغطى بالطحين.

قبعته، شارباه، حاجبا رموش عينيه وشعر يديه كلها مغطاة بالطحين أشبه ما يكون برجل ثلج.

اليوم يومك يا أبا ناصر الطحان، فالغلال وفيرة، والحمير المحملة بالقمح تقف طوابير على باب المطحنة وكل ينتظر دوره، والأجرة نسبة من القمح أو الطحين أو النقود.

إنه عام وفرة لولا أولئك النَّوَر الذين راحوا يجوبون المكان ذهابًا وإيابًا لكان كل شيء على ما يرام.

(النَّوَر بفتح الواو) أو الشحاتين هم قوم رحل لا أحد يعرف من أين أتوا وما هي أصولهم، لهم أشكال مميزة، وجوههم دائرية، شعورهم طويلة ورجالهم يتباهون بالشوارب المعقوفة.

أما نساؤهم فيرتدين ثيابًا فضفاضة مزركشة بألوان زاهية وأساورَ من معدن ويضعن الحلق في أنوفهن والوشم على ذقونهن.

يأتي هؤلاء القوم في كل صيف ويحطون رحالهم على البيادر، ينصبون خرابيشهم وخيمهم بعناية ويمارسون أعمالا متعددة أهمها الحدادة، فبعضهم يقوم بصناعة فخاخ لصيد العصافير والبعض الآخر يقوم بنفخ الكير لسن ما يسمى لدى (الحراثين)* -من يفلحون الأرض-، ب (السكة)* أي المحراث ليجعلها حادة بشكل انسيابي لتخترق التراب والحجارة بسهولة في أثناء الحراثة.

والبعض يعمل عازفًا على الربابة ليؤنس بها ضيوف المساء من شباب أهل تلك البلدة الذين تستهويهم جلسات النور.

أمَا كبير السن منهم فيسرح (يرعى) بالحمير وهو بمهنة سايس حمير يتولى أعمال المبادلة أو التلقيح.

يوجد من بين حميره دائمًا حمارًا برمكيا أو قبرصيا –هكذا كانوا يسمونه- قوي البنية أُعد خصيصى لتلقيح الخيل، كان أهل البلدة ينتظرون قدومه حتى (يشَبُّونْ)* أي يلقحون خيلهم بنطفة من ذلك البرمكي لتلد (بغلا).

والبغل يا سادة يا كرام هو هجين أبوه حمار وأمه فرس قد تكون أصيلة فجار عليها الزمان ليعتليها حمار. وأنثاه لا تلد وذكره لا ينجب.

على الجانب الآخر تقوم نساؤهم (بالشِّحاذة) أي التسول أثناء النهار يتنقلن من بيت إلى بيت يطلبن ما تيسر من حبوب أو خبز أو طحين أو طعام أو أي شيء يجود به عليهن أهل البلدة، وفي الليل يتفرغن لإرضاء وإمتاع الضيوف بالغناء والرقص.

ممدوح وابن عمه خليل كانا من بين السامرين يتلذذان بسماع جواهر وهي تتمايل عليهما وتغني بصوتها الشجي على أنغام عازف الربابة سعيد النوري.

كان ممدوح فتوة... يغلب جميع أقرانه على البيادر (بالمباطحة)* أي المصارعة، (والمكاسرة)* أي مكاسرة الأيدي. كانت كفة يده ضخمة لدرجة أن بعض الشباب عندما يكاسره كانت تضيع كفه ولا يكاد يراها.

وكان يخلق معضلة لدى أبيه عندما يذهب ليشتري له حذاءً فلا يجد ما يناسبه لضخامة قدمية، فيتولى النوري صانع الفخاخ صناعة (بحيريه)* – حذاء من الكاوتش يصنع من إطارات السيارات التالفة -وأحيانا يجود عليه

بعض أقاربه من الذين يخدمون في الجيش ببصطار إنجليزي. لا تستطيع تخيل فرحته وسروره به عندما يرتديه على بنطال عسكري وفلدة* –جاكيت- عسكريه حتى تحسبه جنديا. يغطي رأسه بكوفية حمراء لا يكاد لونها يبين من القذارة، وعقال رفيع ساحل إلى خلف رأسه أغلب الأحيان.

ينتشي طربا فيقوم ويتمايل مع جواهر ويغدق عليها ببعض الدراهم. وقد يختلي بها أحيانا تحت مرأى ومسمع أبيها.

كان ممدوح وهو صغير يسرق من دكان الحاج قاسم ما تيسر من الحلوى أو النقود، وأحيانا يسرق البيض من الخم* (القن) ليبيعها أو يقايضها بشيء ما، أما الآن وقد كبر كبرت معه جرائمه فصار يسطو على دكاكين البلدة وبساتينها ويبيعها في المدينة المجاورة. أمسكه الحاج رضون ذات مرة وهو متلبس يسرق الخوخ من بستانه، لكنه سامحه ولم يفضحه كرامة لوالده الذي كان صديقا حميما له.

منذ تلك الحادثة لم يعد يقترب من أرضه أو دكانه ذي الباب الحديدي المقفل بإحكام.

ذات يوم اشتكى الحاج راضي للشرطة أن بستان التفاح خاصته قد تعرض للسرقة، وجاءت الشرطة ومعها كلاب الأثر وظلت تتبع خطواته، ولكن في نهاية الطريق لم تعد الكلاب قادرة على تحديد المسار لأنه لم يكن لوحده، فقد كان له أعوان لهم أسماء حركية مثل أبو لهب وأبو جهل وأبو حديد، أما ابن عمه خليل فلم يكن يشارك في أعمال السرقة لكنه كان ضيف شرف يشاركهم في السهرات عند جواهر الرقاصة..

تطور الأمر فراحوا يسرقون البيوت بما يجدونه من حلي ومجوهرات وأدوات منزلية ثمينة، يبيعونها ويشترون بها السجائر والخمور وما تبقى يغدقون به على سعيد النوري والراقصة جواهر.

فاحت رائحته ومن معه، اعتقلتهم الشرطة مرارا لكن في كل مرة كانوا يخرجون من السجن أسوأ من التي قبلها وقد تعلموا أساليبَ وفنونًا جديدة للسرقة[١٧].

وشاع على ممدوح لقب الحرامي والأزعر وأبو النوريات. كان مثار عار لأبيه ذلك الرجل الغانم المحترم لقد عجز عن تقويمه ولم يعد قادرًا على ضربه فطرده من المنزل.

بنى خيمة على البيادر يبيت بها هو وعصابة من الأشرار، وعندما لا يجد طعامًا أو شيئا يسرقه كان يعمل حراثا أو عاملا عند أحدهم.

كان يتلذذ بخلق الفتن بين العائلات، ينقل الإشاعات الكاذبة ويفعل الأفعال ويرمي التهم على غيره وكثيرا ما كانوا يصدقونه وتحصل العداوات والعراك بين الأهالي.

وأحيانا يذهب ليشتري من أحد الدكاكين فلا يأخذون منه الثمن خوفًا من أن يقوم بسرقة الدكان فيما بعد.... وكثيرا ما فعلها.

---

١٧ اختفى النور عن البيادر لكنهم ما زالوا يتجولون في المتنزهات وفي الأحراش يستعطون السائحين والمتنزهين. أما النوريات فما زلن متواجدات على الطرقات والإشارات الضوئية يرتدين النقاب يشحذن النقود من السائقين والمحلات التجارية.

يُذّكي نار الفتنة بين المتخاصمين ولا يؤتمن على سر كما فعل مع عائلة الزرزور والفراهيدي.

يقاطعه الحفيد مندهشا:

- وماذا فعل معهم يا جدي؟

- سأخبركم بما فعل غدا والآن تأخر الوقت وحان وقت النوم، هيا كل إلى فراشه.

حاول جميعهم إقناعه بإتمام القصة لكنه شعر بالتعب والنعاس. نهض وهو يتثاءب ويلوح لهم بيده:

- تصبحون على خير يا أحبابي.

*****

فصل ٥

كانوا متلهفين لحلول المساء ليستمعوا إلى بقية الرواية، تحلقوا حوله وكلهم آذان مصغية:

قال: حتى تصلون على النبي.

رد كلهم: عليه الصلاة والسلام.

في ظلمة الليل البهيم شوهد رجل يخرج من بيت فيه امرأة متزوجة من شخص يدعى أبو سعدون في غياب زوجها الجندي الذي كان مناوبًا في المعسكر. شاهدته إحدى جاراتها من شباك النافذة لكنها لم تتبين ملامحه، كان الظلام دامسًا. في اليوم التالي أخبرت زوجها، قال:

- اتق الله يا امرأة فربما يكون أخاها أو أحد محارمها. قالها والشك بدأ يراوده.

قالت وهي تحك رأسها بإصبعها.

- لو كان أخاها فلماذا لم ينم تلك الليلة عندها وهي وحيدة؟! وما الداعي لأن يتلثم في هذا الجو الحار؟!

ذهب بفكره بعيدًا وفي قرارة نفسه نصف مصدق ونصف مكذب، فهو يعرف أن زوجته ذمتها واسعة تضخم الأمور وكثيرًا ما كانت تختلق قصصًا وروايات ملفقة.

قال:

- دعك من هذا يا امرأة، واهتمي بنفسك. واعلمي أنه من راقب الناس مات همًّا.

ردت وهي تقطب حاجبيها:

- حاضر.. والله إنك على نياتك لا تعرف دواهي النسوان وبلاويهن.

ثم انسحبت إلى المطبخ لتعد شيئًا من الطعام.

منذ ذلك اليوم كلما سمعت صوتًا تقفز مسرعة إلى النافذة لترى من يكون.

مر أسبوع كامل لم تشاهد أحدًا، ولكنها قررت ذات صباح الذهاب لزيارة تلك المرأة "أم سعدون".

المسافة بين البيتين قصيرة، عبر طريق ترابي متعرج بين الجنائن المنزلية المحاطة بالسناسل[١٨] الحجرية ونمت على أطرافها أشجار التين واللوز والخوخ التي تستهوي المارة ثمارها. ولا تسلم من عبث الصغار.... يقطفونها قبل أوانها.

بيت جارتها كان محاطًا بجدار إسمنتي مرتفع، تتوسطه بوابة حديدية تغلق من الداخل بمزلاج، ومن الخارج علق عليه قطعة معدنية بحجم قبضة اليد مثبتة بحلقة مرنة تسمح لها بالحركة، يستخدمها القادم إلى المنزل لقرع البوابة بدلًا من الجرس.

طرقت عليها عدة طرقات وتوقفت مصغية لتسمع الجواب، سمعت صوتها يأتي باهتًا من قلب المنزل يسأل:

- من بالباب؟

- أنا جارتك أم نزمي.

استغربت هذه الزيارة في هذا الوقت المبكر إذ ليس من عادة أم نزمي أن تزورها، هذه هي أول مرة.

---

١٨ جدران مبنية من الحجارة بارتفاع متر وعرض متر.

نهضت من مكانها وضعت شالًا على رأسها وأدخلت رؤوس أصابع قدميها بنعالها وراحت تمشي وتستكمل إدخال كامل قدميها في النعال. أدارت المزلاج فأصدر صريرًا مألوفًا لكل الجيران، كانوا يعرفون أن أحدًا دخل أو خرج من بيت أبي سعدون.

بشيء من الريبة والمجاملة المصطنعة قالت مرحبة بها:

- يا أهلا وسهل بأم نزمي... تفضلي.

وغلقت المزلاج خلفهما واتجهتا إلى غرفة الضيوف.

- يا أهلا وسهلا بأم نزمي.. . زارتنا البركة.

ردت وهي تجول ببصرها وكأنها كهربائي أتى ليعاين أماكن أباريز الكهرباء.

جالت ببصرها أطراف المنزل، وتنبهت أن المرأة قد رحبت بها فاستدركت قالت:

- الله يبارك فيك خيتي أم سعدون.

بشيء من الريبة والشك وبابتسامة باهتة قالت:

- خطوة عزيزة يا جارتنا، كيف خطرنا ببالك؟

ردت وهي تلملم أطراف جلبابها واضعة إياها تحت مؤخرتها:

- والله من زمان وأنا أنوي زيارتك ولكن خشيت أن يكون زوجك مثل زوجي لا يحبذ زيارات النساء.

قالت وهي متجهة إلى المطبخ لتضع إبريق الشاي على النار.

- لا خيتي أصلا زوجي يتأخر بالدوام وأنا أكون لوحدي، قولي لي، كيف تشربين الشاي حلو أم بدون سكر؟

- وسط... السكري حارمنا من كل شيء حلو.

ورحن يتجاذبن الحديث حتى انتصف النهار، وعندما همّت بالخروج قالت لها:

- لمَ العجلة؟ اجلسي حتى نشرب القهوة.

ردت:

-لكنني أخشى أن يأتي زوجك وأنا هنا.

-لا، لا تقلقي لن يأتي اليوم فهو مناوب في عمله وسيأتي بعد غد.

- لكنني تأخرت ويجب أن أذهب لأعد طعام الغداء للأولاد.

شيعتها حتى باب البوابة الرئيسية وفتحت المزلاج الذي يصدر صريرًا لا تستسيغه الأذن ظل محفوظا بذاكرتها.

خرجت سالكة ذلك الطريق المتعرج ولسان حالها يقول: "سيأتي إليها اليوم... نعم... زوجها مناوب...حتمًا سيأتي ذلك العاشق الولهان ".

أدارت المفتاح وفتحت باب بيتها، نزعت حذاءها ثم نزعت حجابها، وهزت رأسها بحركة اهتزازية لتفرد شعر رأسها الطويل.

على مقربة وفوق رجم وقف طائر البوم يصدر أصواتًا منفرة يتشاءم منها السكان. كان جائعا ينتظر أدنى إشارة أو حركة لينقض على فريسته بسرعة مذهلة.

وعلى نافذة صغيرة وقفت بومة أخرى اسمها أم نزمي متعطشة وجائعة تنتظر فريسة دسمة.

يلمح البوم فأرًا يتجول بين الحجارة باحثًا عن وجبة يسد بها رمقة، وهو في غفلة من أمرة وخلال بضع ثوان كان وجبة شهية للبوم الجائع.

تسمع صوت المزلاج، فتعرفه تقفز من مقعدها لترى من هناك.

تجول ببصرها الحاد في كافة الاتجاهات وكأنها رادار ينتظر أدنى حركة من طائرة تجسس ليفضح سرها.

الجو ساكن لا توجد أية حركة لبشر.

يكسر الصمت فيه صوت غناء ذلك الصرصور الذي ينادي على أنثاه ليقضي معها وطرًا... إنه لا ينفك عن الصرير... صيرر... صيرر... صيرر... والسراج مطفأ. تعوذت من الشيطان وعادت إلى سريرها... لكنها لم تفلح.

ولا يخلو الجو من خفافيش العتمة التي تجول في الأرجاء باحثة عن شيء تفترسه. وذاك هرّة وقف على بابها تموء تشحذ بعينيها ما يسكت به معدتها الخاوية.

هناك وفي هذه الساحة ستدور معارك حامية الوطيس... البوم... والصرصور... والخفاش.... وهرّة أم نزمي...جيوش صامتة تتقاتل بشرف في صراع من أجل البقاء؛ لاستكمال دورة الحياة الطبيعية، والشاهد الوحيد الذي يرى كل حاجة هو رادار أم نزمي.

لم تنم تلك الليلة؛ ظلت تتقلب في فراشها حتى ضجر منها زوجها؛ نهرها:

- ما بك يا امرأة؟ هل جننت؟

اعتدلت فوق السرير وتنفست نفسًا عميقًا:

- أنا متأكدة أنه سيأتي الليلة.

نظر إليها والنعاس يغالبه:

- لاااا .... أنت عقلك اليوم ضارب، سوف أترك السرير لك وأنام في الغرفة المجاورة.

وقبل أذان الفجر كان رادارها ما يزال موجها نحو ذلك الهدف. الجو كان صافيا والليل شديد السواد.

سمعت حفيفا ووقع أقدام.

ارتفعت دقات قلبها فقفزت كالهرة إلى النافذة فشاهدته يدخل من باب البوابة إلى صحن الدار.

عادت تجري كالشنار حافية القدمين، أيقظت زوجها بصعوبة.... كان مستغرقًا في النوم، ظل يماطل، قال والنعاس يغلبه:

- ما الأمر... ؟ ما بك يا امرأة، هل جننت؟

- انهض.. انهض... الملثم دخل إلى بيت أم سعدون.

ينهض متثاقلا يفرك عينيه بظاهر كفه ويتثاءب.

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم على ساعة هالصبح.

قالت وهي تهزه من كتفه:

- يا زلمه قوم قامت قيامتك إن شا الله... بقلك الزلمه دخل عندها!

- لا حول ولا قوة إلا بالله...أنت متأكدة؟

- نعم أقسم إنني شاهدته يدخل من باب البوابة ثم اختفى خلف السور وبين الأشجار... لا بد أنه الآن في مخدعها.

خرج الرجل متسللًا في جنح الظلام واتجه إلى بيت شقيق زوجها منصور الفراهيدي، وهو ليس عنهم ببعيد ولا بالقريب. قرع الجرس مرارًا وتكرار لكن أحدًا لم يجبه، فأمسك بحجر وراح يضرب الباب بعنف فاستفاق أغلب سكان الحي... حتى وصل الصوت إلى مسامع تلك المرأة.

خرج عليه منصور في بيجامته متكدرًا والنعاس بادٍ في عينيه:

- ما الأمر...ماذا دهاك والناس نيام؟

اقترب منه وهمس بأذنه وقال له:

- إن رجلًا ملثمًا دخل إلى بيت أخيه أبي سعدون.

ظل واجمًا لبرهة من الزمن وكأنه لم يستوعب ما سمعت أذناه، ثم استدار راجعًا إلى البيت وهو يقول: انتظرني لأبدل ثيابي.

غاب لبرهة ثم عاد وبيده بندقية.

- يا ساتر... لمَ هذه البندقية؟

سأله فأجاب:

- سوف أقتلهما معًا.

- تعقل يا رجل هل تريد أن تمضي حياتك في السجن؟ أعدها مكانها وهات لنا عصا فهي تكفي بالغرض.

- حسنا سوف نتسلل خلسة ونمسك بهما متلبسين.

- وماذا سنفعل بهما؟

- نسلمهما إلى المختار بعد أن نوسعهما ضربًا، وهو سيتصرف بهما، وحتمًا سيسلمهما إلى الشرطة.

فكر مليًّا وقال وهو يحك ذقنه:

- ماذا لو كان الرجل مسلحًا فيطلق علينا النار؟

- سوف نباغته ولن نعطيه الفرصة.

في هذه الأثناء استيقظت عائلة منصور على الجلبة وصوت الهرج وكان له ولد شاب نهض من فراشه وانضم إليهما وتوجهوا جميعًا إلى هناك.

صوت الضرب على الباب أدخل الريبة في قلب المرأة. وكانت كعادتها تنظر من خلال ستارتها ما بين الفينة والفينة. شاهدت أضواءً تتسلل من مصابيح يدوية في العتمة قادمة باتجاههما.

عرفت أن سرهما قد انفضح، فطلبت منه أن يلتزم الهدوء. قالت له: إن هربت سينفضح أمرنا فقد اقتربوا كثيرًا ولكن اخرج إلى الحديقة وافتح البوابة، ودعهم يمسكون بك وقل إنك جئت لتسرق التفاح، ستسجن شهرًا أو شهرين بالكثير، ثم يفرج عنك وإلا سوف يقتلوننا معًا.

وأسرعت إلى المطبخ وأعطته كيسًا وسكينا، وأغلقت الباب خلفه وتظاهرت بالنوم بعد أن أطفأت النور.

ها هم يقتربون مسلحين بالعصي، تسبقهم أنوار المصابيح اليدوية، والشاب في صحن الدار يملأ الكيس بالتفاح..... يشعر بحفيف الحشائش تحت أرجلهم، كاد قلبه يقفز من صدره من الخوف.

صوت البوم ما زال يكسر صمت المكان، والخفافيش ما زالت تجوب الأجواء مارة من قربه، وهرّة أم نزمي توقفت عن المواء. خرجت إلى الساحة وهي تحملها تمسّد على ظهرها فتصدر خريرًا دلالة الاستمتاع، ومن البعيد تسمع ألحانا بعيدة لكلب لا ينفك عن النباح.

تخيل إليه أن النسمات التي تتخلل أوراق الشجر وطائر الخفاش والبومة وحتى هرُّ أم نزمي تشي به وتدلهم على مكانه.

وضع الكيس تحت الشجرة واستمر بقطف الثمار، ويداه ترتجفان والعرق يتصبب من جبينه. يراقبهم بربع عين وهم يلجون من البوابة على رؤوس أصابعهم... مشرعين عصيهم.

راح يحدث نفسه: "أتراهم مسلحون؟ ما هذه التي بأيديهم عصي أم بنادق؟ وإذا أطلقوا النار علي، فماذا أكون قد جنيت؟ وتلك المسكينة أيضًا ماذا سيكون مصيرها؟ حتمًا إنهم سوف يقتلونها".

رفع رأسه إلى السماء وراح يدعو الله بالستر. قدماه لم تعودا قادرتين على حمله، أحس بضعف كبير وساقاه ترتجفان، همَّ بالجلوس لكن الأدرينالين المرتفع أعطاه زخمًا من القوة فتشبث بغصن الشجرة.

إنهم خلفه يقتربون رويدًا رويدًا، وهو يشعر بهم لكنه لم يحرك ساكنًا، دقات قلبه المتسارعة يكادون يسمعونها بآذانهم، إنهم يقتربون أكثر وأكثر، أشاروا إلى بعضهم بوضع الأصابع على الفم لكي لا يسمعهم وهم يتسللون على رؤوس أصابع أقدامهم وكأنهم يستعدون للقبض على حيوان مفترس نائم، أو كمن يتسلل للإمساك بأنثى الحجل وهي ترقد غافلة فوق صغارها.

لكنه يسمعهم ويحس بهم بل ويراهم بربع عينه، ها هم على بعد خطوات منه.. يصيح به أحدهم فيقفز مذعورًا وقد اتخذ وضعية المحارب وأشهر السكين في وجوههم، فعاجله الفتى بضربة من عصاه على معصمه فسقطت السكين من يده.

حاول الفرار لكنه أعطاهم الفرصة للإمساك به، فاستسلم وراح يستعطفهم بالعفو عنه... وهم يكيلون له الضربات بأيدهم وبالعصي، وخليلته تراقبهم من الداخل.

أماطوا اللثام عن وجهه فعرفوه.

- هذا أنت؟! رياش الزرزور؟! قبحك الله..... ماذا تفعل هنا.؟!

أوسعوه ضربًا بعد أن شدوا وثاقه تمهيدًا لإرساله وما بحوزته من المسروقات إلى بيت المختار.

كل هذه الجلبة لم تجعلها تستيقظ من سباتها المزعوم، بعد أن أبدلت ثيابها وكانت تشاهد من ثقب الباب وتسمع صرخاته واستغاثته وشتائمهم.

أمر منصور ولده "شكري" أن يدق الباب عليها. وبعد عدة محاولات جاءه الرد من خلف الباب، قالت:

- من أنت؟

فأجابها:

- أنا شكري يا عمه.

- شكري؟!

ردت باستغراب وبصوت النائم ثم تابعت:

- وماذا تريد في مثل هذا الوقت يا عمه؟!

قال:

- أبي معي يريد أن يكلمك.

- يا ساتر يا رب عسى ما في شر يا ابني.. أمهلني حتى ألبس عباءتي.

ثم فتحت الباب قليلًا لكي تتأكد من صحة أقواله وهي تغطي رأسها بالنصيف لتشاهد المشهد بكامل اللاعبين. صكت وجهها وغطت فمها بكفها دلالة المفاجأة وراحت تولول:

- ما هذا؟ ما الذي يجري هنا؟ وماذا تفعلون هنا في مثل هذا الوقت؟

سألها منصور:

- هل تعرفين هذا السافل؟

نظرتْ إليه وقالت: نعم أعرفه ما به ماذا فعل؟ ولماذا تمسكون به؟

ساد صمت رهيب وحار الرجال ماذا يقولون لها وراحوا يتبادلون النظرات فقال لها أبو نزمي:

- ما في شي عمو هذا السافل كان يسرق التفاح وأمسكنا به، وسنسلمه للمختار لينظر في أمره.

تقدمتْ نحو شجرة التفاح وشاهدتْ ما حل بها من تخريب فراحت تلطم وتبكي، وتقدمت منه ولطمته وانهالت عليه بالشتائم.

جاءت الشرطة في اليوم التالي وضبطت المسروقات واقتادوه إلى السجن وسجلت قضية سطو على منزل.

الدلائل كلها كانت تشير إلى أنه لص جاء ليسرق تلك المسكينة مستغلا غياب زوجها، ولكن الناس في قرارة أنفسهم لم يصدقوا هذه المسرحية الهزلية، خاصة وأن "رياش" كان لديه بستان من التفاح، وكان محترمًا بين الناس، ولم يسبق له أن سرق، وراحت الشائعات تنتشر في البلدة انتشار النار في الهشيم.

أودع رياش الزرزور السجن وحكم عليه بالحبس مع الغرامة لمدة ثلاثة أشهر. وتقدم بشكوى على من ضربوه مدعمة بتقرير طبي، فألقي القبض عليهم وأودعوا السجن ولم يفرج عنهم إلا بكفالة الوسطاء: الحاج رضوان، وأبو ممدوح، والمختار. دفعوا له تعويضًا ثلاثة أكياس قمح، وكيس شعير، وخيشة تبن حتى تنازل عن حقة وأسقط الدعوة.

لكن الأمر لم ينته هنا، فقد كثرت الشائعات والأقاويل، وراحت جارتها أم نزمي تزور وتدور على المنازل كإذاعة الجزيرة... تحدث كل من تجلس معها أن المرأة خائنة.

وقع الخبر على أبيها وإخوتها وقوع الصاعقة، وراح ممدوح يحرض أخاها على قتلهما معًا، ويحرض زوجها على تطليقها، واشتعلت نيران الحمية بصدورهم خاصة بعد أن طلقها زوجها، وراحوا يهددون عائلة الزرزور بالقتل.

أحس أهالي البلدة بالخطر، فتنادى علية القوم إلى اجتماع في بيت المختار لتداول الأمر؛ حيث طالب أهل الفتاة بالجلوة لكل آل الزرزور، لكن ما بين أخذ ورد حيث إن هذا القرار قد يظلم أناس أبرياء من تلك القبيلة، توصلوا لاتفاق يرضي جميع الأطراف:

حكم المختار وقال:

- بما أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته فإننا قررنا ودفعًا للبلاء أن يجلي عن البلدة كل من: أبي رياش الزرزور، وزوجته، وأولاده، وبناته، وإخوانه وأولادهم، ولا يعودون إليها قبل خمسة أعوام.

مضى عام على هجرتهم واستوطنوا في قرية من قرى الجنوب وأوكلوا أمر أراضيهم لأبناء قبيلتهم. كان ممدوح وعصابته يعيثون في الأرض الفساد.

في صبيحة يوم من أيام أيار، التم نفر كثير أمام المسجد وهم يتنازعون ويتجادلون بأمر ما. هناك يد آثمة قامت بالاعتداء على الكرم العائد لأحد أفراد عائلة الفراهيدي وقطَّعوا معظم الأشجار.

بداية الأمر كانت أصابع الاتهام تشير إلى ممدوح وعصابته، وعندما سألوه قال إنه رأى رياش وإخوانه يتجولون في البستان ليلًا ومعهم مناشير وفؤوس، بل ورآهم وهم يقومون بتقطيع الأشجار.

واختلط الحابل بالنابل وتأهبت كل قبيلة، واستلوا أسلحتهم وكادت الحرب تنشب بينهم لولا أن تداركها بعض الحكماء لحصلت مذبحة لن تندمل جراحها أبد الدهر.

جاءت كلاب الأثر وراحت تتجول بالطرقات، تجر خلفها العديد من رجال الشرطة، فدخلت في متاهة داخل الأحراش ولم تتوصل إلى الفاعل.

وبعد أقل من عام توجه أحد رجال قبيلة الزرزور إلى بستانه المزروع بأشجار التفاح، والذي يبعد عن البلدة بمسافة غير قليلة ليجد أن أشجاره قد قُطعت، وأثناء تجواله وجد رسالة مكتوب عليها: "واحدة بواحدة مع تحيات قبيلة الفراهيدي".

ومرة ثانية تشير أصابع الاتهام إلى ممدوح لكنه أنكر وقال إنه لا يعرف القراءة والكتابة، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه رأى أبناء الفراهيدي وهم يقطعون الأشجار. قامت الدنيا ولم تقعد وكلاب الأثر لم تجد أي أثر.

وجد المنافقون تربة خصبة لإذكاء نار العداوة بين القبيلتين. اضطرت الشرطة إلى فتح مخفر أمني، وتسيير دوريات ليلية، وراحوا يحققون مع كل شباب البلدة الذين يتسكعون في الشوارع، وممدوح وعصابته على البيادر يحتسون الخمرة ويتنعمون بما نالت أيديهم من الغنائم. ولم تشعر البلدة بالاطمئنان إلا بعد أن غادرها ممدوح إلى عمان وتفرقت عصابته.

*****

فصل ٦

كان ينظم سباقات الخيل والحمير بل ومصارعة الثيران (ثور مقابل ثور) على البيادر ويجري عمليات الرهان.

اليوم جاء دوره لتلقيح فرسه العجفاء بحمار برمكي. أبت تلك الفرس الامتثال ولسان حالها يقول لا أريد.. لا أريد، نهرها ممدوح ولكزها بمنساسه[١٩]، وأمسك النوري بلجامها واقتادوها عنوة، في حين كان البرمكي يدلي بما لديه وهو على أهبة الاستعداد..... يعتليها الحمار فلا يفلح، ويحاول مرة أخرى وكلما أعتلاها قحصت من تحته فتفشل المحاولة، حتى اضطروا لعقلها، وقام النوري بمساعدة البرمكي على إنجاز المهمة.

حملت فرس ممدوح وأنجبت بغلًا، ومر عام عليه ولما كبر نظرت إليه أمه وهو يجر المحراث فبكت وماتت قهرًا. حزن عليها ممدوح كثيرًا وطلب العوض من الكريم، وراح بغل ممدوح يجوب الطرقات على البيادر تمهيًدا لما ينتظره من أعمال شاقة.

كيس معلق برقبته يحتوي على كمية من حبوب القمح، يبذرها ويعزقها بشكل عشوائي، تتبعه أسراب الطيور والحمام، كل يبحث عن رزقه فيرشقها بالحجارة حتى يقوم البغل بشق التربة دافنا تلك الحبوب في انتظار الوسم بعد تساقط الأمطار.

---

١٩ عصا طويلة كالرمح يوضع في رأسها مسمار حاد كنصل الرمح لحث الدواب على المشي عن طريق وخزها به.

وانتهى موسم الحراثة، وبات الفلاحون ينتظرون قدوم الغيث من السماء، لكن المطر لم يأت، أجدبت الأرض، وتلاشت غيوم السماء، وحبست دمعاتها بين أمواج الأثير ولم تكترث لابتهالات أهل البلدة.

أهي غاضبة أم عاتبة يا ترى؟ وما الذي جناه هؤلاء القوم حتى لا تجود عليهم السماء بماء؟ أهو الحسد والبغضاء والتنافر؟ أم هي قلة الصدقة وعدم شكر الإله على عطاياه؟ أم لأنهم يمنعون الطيور من الولوج إلى بساتينهم فيضعون الهياكل البشرية (الفزاعات) معلق بها علب معدنية فارغة تحدث أصواتا تخيف الطيور؟

ذات يوم راح ممدوح يتفقد تلك الفزاعات عندما شاهد طيرًا يقف فوقها، تبسم وتوجه ليرى تلك الفزاعة فوجد الطائر قد بنى فوقها عشًّا وفيه ثلاث فراخ!

لم تمطر بعد، تنادى أهل القرية إلى صلاة الاستسقاء، ولهج ذلك الشيخ المنافق بالدعاء، وراح يرفع صوته مصطنعًا البكاء، يا شيخ إن الله سميع قريب مجيب الدعاء فلماذا ترفع صوتك! لم يستجب الله لدعواتهم وتعفنت البذور في التربة ولم تنبت، كان عام قحط ولم يأت النَّوَرُ في هذا العام إلى البيادر. توجهوا إلى أماكن أخرى، وممدوح وجد نفسه عاجزًا لا يقوى على شيء بعد وفاة أبيه قهرًا. وقد ترك له أمًّا عجوزًا لا معيل لها سوى الله بعدما هاجر أخوه الدكتور محمد إلى كندا ولم يرجع.

ماذا بقي لديه وقد نضب ما في (الكُوَارة) [٢٠] من قمح وطحين؟ ويمر العام ثقيلًا على أهل البلدة، استعانوا بالإرشاد الزراعي فنصحوهم بزراعة البطيخ والذرة والبندورة، ولكن الأرض العطشى لم تنجب أيًّا من تلك المحاصيل، وراحت جهود الحراثين هباء منثورًا، وازدادت خسائرهم.

ومر عام آخر على القحط، لا يوجد لديهم ما يبذرون من الحبوب، توجهوا إلى الإقراض الزراعي وراحوا يأخذون القروض ليشتروا البذار والسماد والمبيدات الحشرية. ولكن دون جدوى لم تجد السماء عليهم مدرارًا، فقرر أغلب الشباب الهجرة ولكن إلى أين؟ إلى بلد الأحلام والمال.... إلى عمان.

خليل كان أول من اتخذ هذا القرار وسبقهم بالوصول إلى عالم المدنية، كان أفضل حالًا من ممدوح؛ فهو يستطيع أن يقرأ، فقد وصل إلى الصف السادس وترك المدرسة ليلتحق بابن عمه ممدوح لفلاحة الأرض والسهر مع جواهر.

راح يتنقل من مكان إلى مكان باحثًا عن عمل، حتى أرسل له الله شخصًا كان يجلس بجانبه في إحدى الحافلات، وعندما سأله: ألا يوجد لديك عمل؟ رمقه الرجل بنظرة حادة وقال: وما هي مهنتك؟

صمت الفتى ولم يجب عليه. وعندما طال صمته قال الرجل: فهمت، أنت لا تحمل شهادات ولا يوجد لديك مهنة، عليك أن تعمل كنترول باص.

ثم نهض الرجل من مكانة ونزل من الحافلة تاركا "خليل" يفكر في الأمر.

---

[٢٠] وعاء من الطين على شكل شبه مكعب يصنع من الطين، يستخدم لتخزين الحبوب، وخصوصًا القمح.

في اليوم نفسه توجه إلى محطة الحافلات في العبدلي، وراح يسأل السائقين عن عمل، وفعلا تم له ذلك، وتشارك السكن مع بعض الشباب من أبناء بلده الذين سبقوه في الهجرة.

مرت بضعة أشهر على عمله تعلم فيها السياقة، وكل فنون القدعنة والفهلوة. ذات يوم قال له أحد أصدقائه ممن كان يشاركهم المسكن أن الوزارة بحاجة إلى موظفين كمراسلين وفراشين وسائقين. لم يكذب خبرًا وتوجه إلى هناك وتقدم بطلب، وفعلًا تم تعيينه سائقًا. واستقل في مسكنه حيث استأجر غرفة في منطقة العبدلي.

يعود في نهاية الأسبوع بملابس نظيفة وقد استعلى على زملائه، وراح يتفاخر ببطولاته الغرامية، وعلاقاته الواسعة في عمان. ويقول لهم إنه يسكن قريبًا من قصر الملك، وأن الملك كل صباح يمر من أمامه ويرد عليه التحية، وهم يستمعون له بانبهار وإعجاب.

استبدلت حقول القمح ببساتين الخوخ والتفاح، وراح المهندسون الزراعيون ينتشرون في أنحاء المعمورة، يروجون لزراعة الأشجار المثمرة بدلًا من المحاصيل الحقلية، ويوضحون لهم ما هي الأصناف المناسبة لكل مكان، وفعلًا استجاب أغلبهم إلا القلة القليلة ممن تمسكوا بحبة القمح.

ممدوح كان منبهرًا بابن عمه خليل، تنفس أهل البلدة الصعداء وقالوا: "درب تودي ما تجيب "، وحمدوا الله كثيرًا عندما سمعوا أنه باع قطعة من الأرض للحاق بابن عمه إلى عمان.

قميصان، وبنطال الجيش، والمعطف الصوفي، وغيار داخلي واحد، وعدة حلاقة، ولم يكن به حاجة لفرشاة الأسنان فهو لا يعرفها، ذلك كل ما

كان يحتاجه في حقيبته الصغيرة التي كان يحملها. استقل الحافلة إلى أقرب مدينة حيث لا توجد مواصلات مباشرة إلى عمان من البلدة ومن هناك توجه إلى عمان، ترجل في العبدلي وذهب ماشيًا إلى مبنى الوزارة حيث يعمل ابن عمه خليل فحلّ عليه ضيفًا.

رحب به ثم قام بواجب ضيافته فاشترى له من المقصف علبة بيبسي، وبعد انتهاء الدوام اصطحبه إلى مطعم شعبي قريب يقدم وجبات يومية بأسعار مقبولة، كانت الوجبة لذلك اليوم هي الفاصوليا البيضاء باللحمة مع الأرز وقليل من السلطة، تناول الاثنان طعام الغداء وتوجها إلى المنزل.

غرفة تحت مستوى سطح الأرض استأجرها خليل بخمسة دنانير شهريًّا، فيها سرير معدني، وفرشة إسفنج مقعرة الشكل، مغطاة بحرام صوف أهدته إياه أمه عندما قدمت من الحج. وفي الركن طاولة خشبية، عليها موقد غاز وبعض الأواني المستعملة للطهي، وستة أكواب للشاي، وتحتها أكياس فيها بعض حبات البطاطا والبصل والبندورة، وست بيضات في صحن، وربطة خبز.

في الوسط صندوق شاي الغزالين فارغ مكعب الشكل، يقلبه على وجهه فيصير طاولة وسطية يأكلون عليها ويشربون. راديو مع مسجل صغير من نوع توشيبا كان ينقلهم إلى العالم الآخر. قلاية البندورة والبطاطا كانت وجبتهم على العشاء لتلك الليلة.

في المساء بعد أن نالا قسطًا من الراحة خرجا للتنزه في وسط البلد. تجولا في شوارع العاصمة، وكان ممدوح منبهرًا بكل شيء يشاهده، فهذه هي أول مرة يشاهد فيها وسط البلد. تناولا الكنافة من مطعم حبيبة وشربا عصير الجزر وعادا إلى المنزل.

مضى أسبوع كامل على هذه الحال فضاق ابن عمه به ذرعًا، قال: "لا بد من إيجاد عمل له وإلا سيظل جاثمًا فوق ظهري "، وفجأة لمعت في رأسه فكرة.... العبدلي... نعم كنترول. في ذاك المساء ذهب الاثنان إلى محطة الركاب في العبدلي، ولأن "خليل" صاحب خبرة في ذلك المكان وله من الأصدقاء الكثير فلم يجد صعوبة بإقناع أحدهم بتوظيفه "كنترول".

واستلم ممدوح عمله الجديد، لم يمض أكثر من ثلاثة أشهر تعلم خلالها السياقة، كان يقود الحافلة خلسة دون علم صاحبها محدثًا أضرارًا بها لأكثر من مرة، ولما تكرر الأمر طرده صاحب الباص لسوء خلقه وفظاظته وقباحة ألفاظه مع الركاب. وانتشر خبره بين أصحاب الحافلات، فلم يعد أي منهم يقبل به عاملًا لديه، ليعود ثانية إلى بيت خليل ضيفًا ثقيل الظل.

واستدل على نادٍ ليلي اسمه القط الأسود في وسط البلد أنفق فيه على الراقصات كل ما تبقى بحوزته من ثمن الأرض.

عاد مفلسًا وراح يعرض بقية الأرض للبيع، ولكن سوء الأحوال السياسية وقلة المال بيد الناس جعلت الناس لا يقدمون على شراء الأراضي، ويحتفظون بما لديهم من نقود؛ فالحرب أصبحت على الأبواب.

اقترح عليه خليل أن يشتري عربة أم ثلاث عجلات ويبيع عليها أصناف الخضار والفواكه متجولًا في الشوارع..... راقت له الفكرة.

أبو مسعود صاحب محال الخضار الذي يشترون منه احتياجاتهم، عرضوا عليه أن يزودهم كل يوم بكمية بسيطة من الخضار والفواكه بسعر منخفض. وافق الرجل وراح ممدوح يتجول بين الأزقة مناديًا على ما لديه من البضاعة بكميات قليلة. يومًا يبيع تفاحًا، يومًا عنبًا، أو ملفوفًا أو بطيخًا، حتى

صار معروفًا بين سكان الجبل. ما يزيد معه من بضاعة يبيعها في اليوم التالي وفي المساء وقبل العودة إلى البيت يبيعها بأقل الأسعار.

في نهاية الأسبوع يذهب إلى البلدة، وفي موسم الحراثة يعمل حراثًا بالأجرة فيكسب منها أكثر من بيع الخضار والفواكه.

يخلق وجوده هناك جوا من عدم الراحة، حيث تكثر السرقات والفتن، فبات لا يحبه ولا يحترمه أحد، واسمه بين الناس الداشر أبو النوريات.

ولكن في هذه الأيام من السنة لا يوجد نور على البيادر، يعود إلى عمان وينفق ما جمعه من نقود في نادي القط الأسود الليلي، يجلس على البار تقابله بائعة الهوى تسكب له الويسكي وتغنج له حتى يسكر وتفرغ جيوبه، يقوم ويقترب من الراقصة نجوى فيمنعه القوادون، وتحصل مشادة كلامية تنتهي بمعركة باللكمات و "الشلاليت".

يمسكه أربعة حيث كان لا يقدر عليه اثنان، ويقذفون به إلى الشارع بعد أن يكونوا أشبعوه ضربا... ويعود إلى البيت مرضرضًا متورمًا يترنح. لكنه يعود مرة ثانية كلما توفرت لديه النقود.

قال له ابن عمه خليل وقد ضاق به ذرعًا، ولم يعد يحتمل رائحة الخمرة المنبعثة من فمه، وأحيانا الاستفراغ، ناهيك عن كثرة السعال من السجاير التي يفيض رمادها وأعقابها عن جوانب المنفضة:

- لا مكان لديك عندي بعد الآن اذهب وابحث لك عن مسكن.

لم يعجز، رحل واستأجر غرفة مفروشة فوق سطح عمارة ذات أربعة طوابق في واحدٍ من الجبال السبعة.

ذات يوم ذهب إلى البار- وقد وقع في غرام الراقصة نجوى - كعادته ولكنه لم يكن يحمل نقودًا، جلس هادئًا ولم يفتعل أية مشكلة. بعدما سكر أراد الخروج فمنعوه حتى يدفع الفاتورة. قال لهم أنه لا يملك المال لكنه سيعمل حارسًا لديهم يومًا كاملًا أو يومين بالمجان حتى يستوفوا حقهم.

راقت الفكرة للمدير، وكان معجبًا به لما وجد به من غلظة وشدة مطلوبة لمثل هذا العمل، فقرر تثبيته وتعيينه بمسمى حارس شخصي. يمنع الزبائن من التحرش بالراقصات.

ينغرس أمام المدخل كالجدار الأصم رهن الإشارة، وكم من سكران أساء التصرف نال منه من الضرب ما يجعله ينسى اسمه.

كانت نجوى قد وقعت في غرامه هي الأخرى، بعد انتهاء عملها يقوم بتوصيلها حيث تسكن ثم يقفل عائدًا مع انبثاق الضوء، يصعد درجات السلم في تلك البناية قاطعًا عشرة شواحط حتى يصل إلى السطح.

وعلى غير هدى يدير مفتاح القفل لينفتح الباب يرتمي على سريره بملابسه جثة هامدة ويغط في سبات عميق.

رباح امرأة متزوجة تسكن في الطابق الرابع ما كادت الشمس تقارب من منتصف النهار حتى صعدت إلى السطح لتنشر الغسيل. معتادة أن تحمل معها جهاز الراديو صغير الحجم لتسمع ما يحلو لها من الأغاني، وغالبًا ما كانت تدندن مع الراديو.

لم تكن تعلم أن في تلك الخُشّة(غرفة) [٢١] رجلًا. طوال الوقت لم يسكنها

---

٢١ الغرفة الصغيرة المتهالكة.

أحد، كان ابن صاحب العمارة يربي فيها حمامًا حيث يمارس مهنة الكش. كل يوم يصعد إلى السطح يفتح باب الخشة للحمام ويطلقه في أجواء عمان ليسرق حمام الغير. اشتكى منه السكان لأبيه فمنعه وباع ما لديه من حمام وأقفل تلك الخشة.

حاملة غسيلها بسلة من البلاستيك، وضعتها على الأرض ومسحت حبل الغسيل الممتد على السطح بين عمودين من الحديد بخرقة مبللة، ثم رفعت ثوبها لأدنى ركبتيها وعضت على ملقطٍ خشبيٍّ لتثبيت الثياب، وراحت تخرج الثياب قطعة قطعة تنفضها حتى تستقيم، ويخرج ما تبقى بها من رذاذ، ثم تمسك ملقط الغسيل الخشبي الذي كان في فمها وتثبتها قطعة قطعة.

موعود معايا بالعذاب موعود يا قلبي

ولا بتهدا ولا بترتاح في يوم يا قلبي

تغني مع عبد الحليم بصوتها الناعم. وتنفض الثياب بين الحين والآخر ويوقفها عن الغناء ملقط الغسيل عندما تعض عليه، ظن أنه في حلم، يتسرب إليه صوت غناء...لا ليس حلمًا... هناك أحد ما على السطح... حدث نفسه ونهض من فراشه والنعاس يغالبه وما زال تأثير الخمرة ضاربًا لبه، أزاح الستارة ونظر... لم يصدق ما رأت عيناه.. إنها امرأة في غاية الحسن والجمال.. وهي تغني...وعبد الحليم يغني.

فتح درفة الشباك وأطل برأسه متكئًا على معصميه، وراح يراقبها بشهوة بالغة. ووقع في نفسه هوى منها وراح يطيل النظر إليها. تنحنح...فجفلت والتفتت خلفها واضعة يدها على قلبها. شهقت وقالت: بسم الله الرحمن الرحيم... قل أعوذ برب الفلق.

شعرت بالخوف لمنظره المهلهل وشعره الأشعث، وعيناه الجاحظتان تطلان من تحت حواجب كثيفة.

كان ساكنًا جديدًا لا يعرفه أحد من سكان العمارة، ظلت واقفة تنظر إلى ذاك الغريب وقد فتح باب الخشة واتكأ على جانبه... ينفث دخان سيجارته ويتابعها بنهم بالغ.

شعرت بالخوف وسرت في بدنها قشعريرة جعلتها تتوقف عن نشر الغسيل وقررت مغادرة المكان على الفور.... لكنه اعترض طريقها. تشجعت وقطبت حاجبيها وقالت بلهجة عنيفة:

- من أنت.... ابتعد عني.. ماذا تريد؟

- أنا ممدوح.. أريدك أنت.

- أنت مجنون...ابتعد وإلا جمعت عليك أهل الحي.

قال وابتسامة هازئة قد ارتسمت على شفتيه.

- هيا.... افعلي!

حاولت الاستدارة من خلفه فأمسك بيدها، فراحت تصرخ وتنادي بأعلى صوتها، عاجلها واضعًا يده على فمها وسحبها إلى غرفته.. قاومت بكل ما أوتيت من قوة ... وحاولت الهرب.... واستغاثت.... فكمم فمها وضربها حتى باتت عاجزة لا تقوى على المقاومة... ولم يأبه لتوسلاتها.... ودموعها وهو يمزق ثيابها.

وأغلق الباب واحتجزها عنده لمدة ساعتين تلاقت أجسادهما العارية ثلاثة مرات، وفي كل مرة كانت تتوسل إليه أن يطلق سراحها فيرفض. هددها إن تحدثت لأحد أنه سوف يقتلها أو يقتل زوجها فخافت وكتمت الأمر. منذ ذلك اليوم وهي لا تخرج إلا برفقة أحدهم وبعدما تتأكد أنه خارج المنزل.

مر أكثر من شهر على تلك الحادثة ولم يشاهدها، ولأول مرة يشعر بتأنيب الضمير.. راح يتحين الفرص للقائها مرة ثانية ولكن دون فائدة. قرر أن يقدم لها هدية كاعتذار عما بدر منه. ولكن أي هدية وهو لا يملك شيئًا؟

كان يعرف سكان المنطقة من خلال أحاديثه مع النساء، وذات يوم جاءت سيدة لتشتري الخضار لا حظ أن يدها مشكوكة بالأساور الذهبية، أصر على أن يوصل الأكياس إلى منزلها حتى عرف في أي شقة تسكن ودخل بالأكياس إلى المطبخ.

قالت له أن ينتظر كي تعطيه البقشيش، فاستغل انشغالها وهي تدخل غرفتها وفتح مزلاج النافذة. كافأته وأعطته البقشيش وانصرف.

ظل يراقب المنزل حتى خلا من ساكنيه، دخل من النافذة وتسلل إلى غرفة النوم وسرق مجوهراتها وخرج دون أن يلحظه أحد. يصعد إلى غرفته مارًّا من أمام شقة رحاب، يقرع الجرس فيطل عليه زوجها، يرحب به:

- أستاذ ممدوح تفضل تفضل.

يشكره ثم يناوله كيسًا من الفاكهة أو صندوقًا من الخضار ولا يأخذ له ثمنًا.

تغضب رحاب وتلوم زوجها لأنه قبل بذلك فيقول لها إن الرجل عنيد وهو مصر لم أستطع التخلص منه... فتصمت.

ذات يوم استغل غياب زوجها فنزل وقرع الباب وبيده صُرَّةٌ مغلفةٌ بإحكام، فتحت الباب بمقدار يسمح لها برؤية من في الخارج، أصيبت بالرعب وخارت قواها وأغلقت الباب بعنف، لكنه كان أسرع منها مد يده دافعًا الباب إلى الداخل وهي ما زالت تحاول إغلاقه.

قالت بتهديد أقرب إلى التوسل:

- إن لم تذهب سألُمُّ عليك الدنيا وسأتصل بالشرطة.

قال بشيء من اللطف واللين:

- أرجوك اسمعيني لدقيقة.

- أرجوك...اذهب من هنا.... يا ويلي... إن رآك أحد ستكون مصيبة كبرى.

- حسنا سأذهب لكن عديني أن تلحقي بي إلى السطح لدي ما سأخبرك به.

- أنت مجنون... مستحيل.. أرجوك اذهب.

نظر إليها نظرة جعلت قلبها يهبط خوفًا.

- انتظرك...لا تتأخري.

غادرها وهو على يقين أنها ستلحق به.

خارت قواها وجلست أمام الباب لا تدري ماذا ستفعل: هل تلحقه؟ ومن يضمن لها أنه لن يعيد الكرة في ما فعله؟ يا ويلي!! إن هذا الرجل مجنون... هل أخبر زوجي؟ لا...لا.. لقد هددني بالقتل إن أخبرتُ أحدًا، هل أتصل بالشرطة؟ ولكن ماذا سأقول لهم.. يا للفضيحة؟

وما زالت الوساوس تتقاذفها حتى نهضت من مكانها وحملت سلة فيها ثياب وسكينًا في كمها وقررت أن تقاومه وليكن ما يكن.

كان لطيفا جدًّا معها، لم يقترب منها، حدثها عن بعد، اعتذر لها عمَّا فعله وقدم لها هدية. قالت والخوف يتملكها:

- اعتذارك مقبول... ولا أريد منك شيئًا، فقط أرجوك ابتعد عني. أنا امرأة متزوجة وأحب زوجي وعائلتي.. أرجوك يكفيك ما فعلت ابتعد عني وعن بيتي.

- قلت لك سوف ابتعد عنك شريطة أن تقبلي هديتي.

صمتت ولمست في عينيه بعض الصدق والإصرار وقالت في قرارة نفسها "ربما يكون صادقًا فيما يقول وإلا فما الذي يمنعه من مهاجمتي؟!".

أجابت:

- هل تعدني بأن تتركني وشأني؟

رد دون تردد:

- -نعم أعدك.

- حسنا سنرى.. هاتها.

لم تفتح تلك الصرة وخبأتها في مكان آمن. لم تثق بكلامه وظلت الوساوس تلاحقها. مضى أكثر من شهر ولم يعترض طريقها، كل يوم يضع لها على مقبض الباب وردة فزاد ذلك من توترها وباتت حائرة في أمره.

ذات نهار وبينما كان عائدا من الخارج شاهدها مصادفة وهي تنزل السلم فحياها من بعيد فردت له التحية بمثلها وهي مضطربة ولا تتوقف عن التلفت يمنة ويسرة.

قال لها:

- أشم رائحة طعامًا شهيا.. هل هو من بيتكم؟

تبسمت وقالت:

- نعم هل أنت جائع؟

- نعم أتضور جوعًا.

- سأرسل لك طبقًا من الكوسى المحشي وورق الدوالي مع زوجي.

راحت تحدث نفسها: "هذه فرصتك يا رحاب لتتخلصي من هذا المعتوه بقليل من سم الفئران ويصبح في خبر كان".

راح يتناول الطعام بنهم بالغ، فهو لم يذق هذه المأكولات منذ زمنٍ بعيدٍ حتى أتى على كل ما في الطبق.

شعر بالغثيان وراحت معدته تعتصر ألما، شرب الميرمية.... والليمون... ولكن دون فائدة، أيقن أن الأمر في غاية الجد... نزل إلى أسفل العمارة، وخرج إلى الشارع... مشى خطوتين وراح يستفرغ ما في بطنه، ثم ترنح وسقط على الأرض يرغي ويزبد.

التم عليه من كانوا هناك وحمله أحدهم بسيارته إلى أقرب مستشفى.

تم إنقاذه في اللحظة الأخيرة، سأله الطبيب بعد أن استعاد وعيه:

- ماذا أكلت؟

أجاب بصوت خافت:

- كوسا محشي وورق دوالي.

- في أي مطعم؟

فكر قليلا... تذكر "رحاب". صمت مليًّا ثم أجاب:

- في البيت... أنا كنت قد أعددته بنفسي قبل يومين.

هز الطبيب رأسه وقال:

- يا رجل تأكل طعامًا بائتًا ليومين دون أن تتأكد من صلاحيته؟ احمد ربك لك بقية من عمر... سلامتك بأي حال.

وانتشر الخبر بين سكان العمارة، وكلهم جاؤوا لزيارته وممدوح تعلم درسًا لن ينساه.

لكن رحاب لم تكن سعيدة بنجاته كانت تتمنى له الموت وها هو يخرج حيًّا معافى وسوف ينتقم منها... تملكها الخوف وراحت تطاردها الكوابيس ماذا

ستفعل؟ وكيف السبيل للتخلص من هذه المصيبة؟

في الصباح ذهبت لزيارة جارتها التي تسكن في الشقة الأرضية. جلستا كالعادة تشربان القهوة الصباحية وتطرقتا بالحديث إلى أمر ذلك الأعزب كيف تسمم وهما مشفقتان عليه كيف نجا بأعجوبة. قالت:

- هل تحفظين السر يا سوسن؟

- ولو يا رحاب، عشرة عمر بيننا يا أختي قولي وسرك في بير.

- اسمعي، قبل ثلاثة أشهر اغتصبني هذا الحقير ثلاث مرات في نهار واحد، فقررت الانتقام منه ولكنه نجا بأعجوبة من السم الذي وضعته له في الطعام. وهو شخص مجرم هددني بالقتل، وأنا خائفة جدًّا منه، لا بد أنه سينتقم مني أخبريني ماذا أفعل؟

فغرت فاها وأغلقت فمها براحة يدها قالت:

- ولكن كيف حدث هذا؟! وكيف تسمحين له باغتصابك؟ علمي بك قوية الشكيمة.

- كنت أنشر الغسيل على السطح فداهمني وكان قويًّا للغاية ومخمورًا... صرخت بأعلى صوتي ولم يسمعني أحد فأغلق فمي بيده وشحطني إلى غرفته وضربني حتى كدت أفقد الوعي ثم مزق ثيابي و...

- ثلاث مرات؟

- نعم، ثلاث مرات.

- يا له من وحش مجرم.

- حتى لو تعرفي أنه قدم لي هدية وهددني أن يفعلها ثانية إن لم أقبلها.

- وهل قبلتِها؟

- نعم... خفت منه فأخذتها مرغمة.

- وما هي تلك الهدية؟

- لا أدري خبأتها ولم أفتحها... يغور إلى جهنم هو وهديته.

- بالله عليك هاتيها لنرى ذوق هذا الفلاح الجلف.

تدخل رحاب غرفتها وتأتي بالصرة.... تفتحها.. ويا للمفاجأة... إنها مبرومة ذهبية باهظة الثمن.

تمسكها سوسن وتتأملها وتتفحصها:

- إنها ذهب حقيقي وليس "فالصو" عيار٢٤.

- هذا ثمن فعلته القبيحة... لعنة الله عليه.

- أخبريني ماذا أفعل لا أريد الفضيحة، ولا أريد أن يعرف زوجي فيصبح قاتلًا أو مقتولًا.

فكرت مليا وقالت:

- دعي الأمر لي أنا كفيلة به، سألقنه درسًا لن ينساه طوال حياته.

عدلت من جلستها ووضعت فنجان القهوة أمامها والبشر يعلو محياها وقالت:

- أنا بعرضك أسعفيني، ولكن كيف؟

- انت ما عليك...هذا شغلي.

سوسن امرأة ثلاثينية على قدر من الجمال، متوسطة الطول لفاء الفخذين ناهدة الكعبين، ما هي بالنحيفة ولا بالسمينة، لها عينان عسليتان فيهما سحر عجيب، وشعر أسود ناعم طويل عندما تفرده على ظهرها ينتشر كالشلال حتى يصل إلى أعلى مؤخرتها، لكنها لا تخرج سافرة أبدًا.

كانت ترتدي ملابس الصلاة (اليانس) عندما تخرج إلى "البلكونة" لتنشر غسيلها ولا تضطر للصعود إلى السطح فهي تتثاقل من صعود السلم.

منذ ذلك اليوم صارت تتردد على السطح وخاصة في الصباح الباكر بحجة نشر الغسيل متعمدة وجوده في غرفته قبل أن يخرج.

لاحظ أنها تتعمد تبيان خصلات من شعرها وجزءًا من ساقيها، لكنه لم يجرؤ على الحديث معها.

تكرر الأمر مرات عديدة فاستفزها ذات يوم وهو ينظر إليها من بعيد عبر النافذة ينفث دخان سجائره باتجاهها فتوجهت نحوه وقالت:

-ألا تخجل من نفسك؟ لماذا تطيل النظر إلي؟

لم يعرها أدنى انتباه، أدار لها ظهره وارتمى على أريكة تسمح له بمشاهدة رأسها فقط من خلال النافذة. والمرأة تتمتم وتشتم وتهدد...وهو غير آبه بما تقول.

لم تستطع التحمل، ألقت ما بيدها من ثياب وملاقط الغسيل واتجهت نحوه.... دفعت الباب بقوة ودخلت إلى غرفته مزمجرة كاللبوة وقالت بنبرة حادة:

- ألا تخجل من نفسك؟ كيف تغتصب امرأة مسكينة لا حول لها ولا قوة؟

بهت الرجل وحار جوابًا..

- من أنت؟ وعن أي امرأة تتحدثين؟

-أنا سوسن وأتحدث عن صديقتي رحاب.... أما عدت تعرفها يا سافل؟

تملكته الحيرة فقطب حاجبيه وقال:

- ومن أخبرك؟

ردت وهي متخنصرة ومتحفزة كالقطة التي تشعر باقتراب خطر من صغارها:

- هي أخبرتني.

هز رأسه وقال:

- حسنا وبماذا أخبرتك؟

- بأنك وغد حقير اغتصبتها ثلاث مرات متتالية؟ ألم تفعل؟

وعدلت من غطاء رأسها الذي كانت تسمح له بالانفلات بين الحين والآخر متعمدة ليبين جمال شعرها.

- وما دخلك أنت؟ هل أنت أمها؟ أختها؟ أم ولية أمرها مثلًا؟

تقدمت خطوتين إلى الداخل ثم رمت بجسدها جالسة قبالته على كرسي خشبي وحسرت ثوبها قليلًا عن ساقيها وقالت:

- نعم أنا ولية أمرها. هل لديك مانع؟

-وهل صدقتها؟ إنها كاذبة.

- بل أنت الكاذب سافل منحط.. وحقير...

ثم دنت منه وصفعته على وجهه صفعة تركت مواقع أصابعها ظاهرة للعيان... وضع يده على خده دون أن يحرك ساكنًا. ثم استدارت لتخرج وهي تتمتم وتشتم وتهدده بابن عمها الذي يعمل مع الكفاح المسلح.

أثارت غضبه وفار الدم في عروقه، فأمسكها من ذراعها وفتلها نحو صدره بعنف وأطبق شفتيه على شفتيها. أخفت سرورها وقالت تحدث نفسها "نجحت الخطة" وهي تدعي المقاومة وتضربه على صدره بنعومة ودلال.

- اتركني.. يا حقير.. يا سافل.... يا مج...

وكتمت شفتاه أنفاسها واستسلمت لقبلاته.. ثم انفلتت من بين يديه وتراجعت خطوتين إلى الخلف وانحنت لتمسك بحذائها تضربه به.... لكنه يتصدى لها وينزعه من يدها ويعاود الكرة.

- ... سوف أقتلك.. يا.... حقير!!!

تمسح بيديها آثار القبلة وقد سقط النصيف عن رأسها وبان جمالها الأخاذ.

أغلق الباب وحملها بين ذراعيه كطفلة ووضعها على سريره المتهالك وهي تصرخ وتهدد وتتوعد. وفجأة سكنت ثورتها ولم تعد تسمع إلا تأوهات وضحكات امتزجت برحيق الشفاه المتعطشة للحب.

مكثت عنده ثلاث ساعات متتالية وهي تتصنع البكاء وتهدد وتشتم وكلما شتمته شتيمة أغلق فمها بشفتيه وهي تدعي الممانعة... تقتلها الشهوة والنشوة حتى أنهكت قواها:

قالت: أريد سيجارة.

أخرج علبة الروثمان وأشعل لها سيجارة.

راحت تسحب وتنفث دخانها بنشوة بالغة. وباحت له بمكنونها قالت:

- زوجي يعاني من مرض القلب والسكري، منذ اليوم الأول لزواجنا لم يفلح، ظل يحاول ثلاثة أيام لعدم قدرته وفتح الباب بإصبعه، ولا يزال إصبعه ولسانه هما رأس ماله. لم أشعر في يوم أنني امرأة مثل بقية النساء، وكنت صغيرة لا أفهم في هذه الأمور حتى اعتقدت أن كل الرجال هكذا، لم أشتكِ ولم أتذمر، فهو لا يقصر معي بشيء ويحقق لي كل مطالبي. لكنه يغار عليّ غيرة قاتلة

يحبسني بين أربعة جدران ويذهب ليسهر مع أصدقائه. ولا يوجد لنا أصدقاء نجالسهما غير أفراد العائلة، حتى على الأعراس لا يسمح لي بالذهاب إلا برفقته، وهو لا يحب الأعراس كان يذهب مضطرًا وإن جاملني أحدهم أو ابتسم لي يومها يحل عليَّ غضب ربنا ولا يدعنا نكمل، يغادر والحفل في بدايته.

تناولت سيجارة أخرى وأشعلتها من الأولى ثم دعكتها في المنفضة حتى انطفأت واختلطت دموعها بضباب الدخان المنبعث من السيجارة وأكملت:

- عندما وصفت لي رحاب كيف اغتصبتها اشتعلت نار الشهوة والغيرة في جسدي، إنني محرومة من هذه اللذة ولا أدري كيف اشتعلت نيران الغيرة منها على رجل لا أعرفه لكنني تمنيت وقررت أن أمتلكه.

ضمها إلى صدره وقبلها... قالت:

-أشعر بالجوع، ألا يوجد لديك ما نأكله؟

تبسم وقال:

- مع الأسف لا، لكن سأذهب لأشتري شيئًا نأكله، ما رأيك هل تنتظرين حتى أعود؟

قالت وقد وقفت على رجليها:

- لا... لا عليك... ابق أنت هنا، سأعود بعد ساعة.

عدلت من هندامها وارتدت ملابسها وأسدلت النصيف على رأسها وحملت سلة الغسيل نازلة إلى البيت، لتعود لاحقًا حاملة له طبقًا شهيًّا من الملفوف وقالبًا من الحلوى أعدته خصيصى له؛ ليأكل منه كلما شعر بالجوع. قالت ممازحة له:

- ليس مسمومًا بالتأكيد.

ضحكا معًا وراحا يتناولان الطعام والسفاد بشهية بالغة، حتى قارب زوجها على المجيء.

ومنذ ذلك اليوم صارت سوسن تنشر غسيلها وغسيله كل يوم على السطح، تعد له ما يشتهي من لذيذ الطعام، تضعه في غرفته ثم تقفلها وتحتفظ بنسخة من المفتاح.

لا بل راحت تشتري له أجمل الثياب والعطور وأحيانا تعطيه النقود.

مرت عدة أيام لم تعد رحاب تشاهده، وانقطعت تلك الورود عن الوصول إليها فحمدت ربها، ونزلت إلى جارتها سوسن لتستوضح الأمر.

دقت جرس الباب ففتحت لها واستقبلتها بحفاوة وتبادلتا الحديث مع القهوة الصباحية.

قالت لها:

-أخبريني.. هل ما زال يعترضك ممدوح أو يضايقك بشيء؟

قالت والدهشة ترتسم على محياها:

- لا والله منذ ذلك اليوم لم أشاهده.

ضحكت وأشعلت سيجارة:

- القهوة لا تطيب إلا مع السيجارة.

سألتها رحاب:

- هيا أخبريني بالله عليك ماذا فعلتِ بالرجل لقد تغير كثيرًا؟

هزت رأسها وأسبلت جفنيها وقالت بفخر:

- أنا سوسن والرزق على الله!!

- بالله عليك ماذا فعلتِ؟

- لا شيء أرسلت له تهديدًا من ابن عمي الذي يعمل في الكفاح المسلح.... فخاف ووعد أنه لن يعترض طريقك مرة أخرى.!! لكن أنصحك أن تعيدي هديته إليه لأنه قد يستغلك بها وتكون مأخذًا عليك لأنها مسروقة.

- معك حق... أنا فكرت بذلك لكن كيف؟ أنا لا أريد أن أراه.

– هاتها وأنا بدوري أعرف كيف أرميها بوجهه الحقير.

أخذت سوسن الإسوارة وخرجت من عندها إلى محل بيع المجوهرات وباعتها. طعامه وشرابه وملبسة تغير، طلبت منه أن يحلق شعره ولحيته واشترت له فرشاة أسنان، واستبدلت أثاث غرفته وسريره المتهالك وزينتها بالشراشف البيضاء وراحت تهتم به وكرست جل أوقاتها له.

ستة أشهر من الحب والغرام لقد ملك لبها ولخبط كيانها، باتت لا ترى في الوجود رجلًا يشبهه، وكانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيله حتى لو اقتضى الأمر طلاقها من زوجها. ولم تبخل عليه بالنقود كلما أشعرها بأنه لايمتلكها، ليذهب إلى الحانة يسكر وينفقها على نجوى.

جلبت تلك العلاقة انتباه العديد من ساكنات العمارة. وليفتضح أمره عندما عاد ذات صباح وبرفقته حبيبته نجوى التي خارت قواها وسقطت مغشيًا عليها على البست وهي ترقص، فاضطر للعودة بها، أتى بها إلى الخشة من الملهى الليلي.

استفاقت من غيبوبتها وكانت في حالة سكر شديد، ظلت ترغي وتثرثر وهي تصعد درجات السلم أثارت جلبتها فضول السكان. راحوا يراقبون من ثقوب العدسات المثبتة على الأبواب. لسوء حظه كانت مصابة بالحمى. لم يستطع النوم كانت تأن كالذئب الجريح، اقترب منها فوجدها وقد ارتفعت حرارتها

وشحب لونها. نزل السلم متجها إلى الصيدلية المجاورة ليشتري لها خافض حرارة.

في الأثناء صعدت سوسن إلى السطح لتتفقده فوجدت الباب مفتوحًا فدخلت لتجد نفسها وجها لوجه أمام أنثى نائمة في فراشه. عادت أدراجها وفي رأسها ألف شيطان وشيطان "بسيطة يا ابن الكلب، سألقنك درسًا لن تنساه في حياتك. عاهرة في فراشك؟ ألا يكفيك السهر معها طوال الليل؟ وأتيت بها هنا لتقهرني؟ سنرى من سيقهر الآخر".

فتحت باب شقتها وأدارت قرص الهاتف تتصل بالمغفر.

أقل من ربع ساعة كانت سيارات الأمن الوقائي تحاصر المبنى. تم اعتقالهما معا، وحكم عليهما بالسجن ثلاثة أشهر. خرج بعدها وعاد لينتقم وراح يهدد ويتوعد.

أخبرت سوسن ابن عمها الذي يعمل في الكفاح المسلح بتهديداته، وبليل دامس الظلمة بلا ضوء قمر داهمته قوة منهم واعتقلوه ثلاثة أيام. عاد متورم العينين مكسور الذراع منهك القوى، لزم الفراش في بيت ابن عمه خليل سبعة أيام.

بلا عمل وبلا مأوى. وما إن تعافى حتى التف على شلة من السكارى وراحوا يسرقون السيارات يفككونها قطعًا ويبيعونها، وراحوا يسطون على المحلات التجارية والمنازل. وفي الليل ينفقون ما جمعوا على صدور العاهرات في النوادي الليلية. كانت حبيبته قد عادت إلى الرقص مجددًا وعاد هو معها حارسًا.

ذات مساء دخل أربعة رجال مسلحون بمسدسات تحت أحزمتهم. ولجوا إلى الداخل استقبلتهم إحدى العاملات حتى أوصلتهم إلى مكان كان محجوزًا لهم

خصيصًا، هؤلاء زبائن دائمون ومعروفون لدى صاحب النادي، لا يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون بحجة توفير الحماية للنادي. يعربدون ويصولون ويجولون ولا يجرؤ على معارضتهم أحد، أكلوا وشربوا حتى الثمالة. تحرشوا بحبيبته الراقصة بصورة فاضحة.

نظر إليها وهي غير قادرة على فعل شيء والخوف بعينيها تشحذه بنظراتها المستجدية. ثارت لديه حمية الرجل الشرقي والغيرة حتى ولو على عاهرة. همّ بالتدخل لكن مدير البار منعه. قطب جبينه وجحظت عيناه وقال:

- أرجوك دعني أؤدب هؤلاء الأوغاد.

قال له مدير البار بعد أن سحبه إلى ركن قصي:

- تعقل يا غبي هؤلاء من الكفاح المسلح، إنهم متوحشون سيقتلونك دون تردد.. إياك أن ترتكب حماقة أنسيت ما لقيت منهم قبل مدة؟! كادوا يقتلونك.

نظر إليه نظرة بلهاء وقال:

- شو يعني كفاح مسلح؟ الموت ولا المذلة.

قالها وانفلت عقاله كالبعير الهائج متجهًا إلى حيث كان أحدهم يحاول احتضان نجوى عنوة. وقف بينهما كالصنم ثم نظر في وجهه وقال:

- يا أخ.... هل هي خاوة؟ ابتعد عنها فهي لا تريدك.

ما كاد يكمل حديثه حتى أحس بصفعة على وجهه من رجل سكران يترنح. وأتبعها بسيل من الشتائم.... يا ابن ال....

طار عقله - وهو من الأساس بلا عقل - ووجدها فرصة لتفريغ طاقته البلهاء في معمعة لا يحمد عقباها. حمل الرجل من ياقته ورفعه فوق رأسه وألقاه على الأرض فسقط المسدس من تحت حزام الرجل.

ضج المكان بالفوضى وعلا الصياح والصراخ وولى الزبائن هاربين.

هب الثلاثة الآخرون لنجدة رفيقهم فأوسعهم ضربا. كومهم فوق بعضهم الأربعة. تركهم يصارعون النهوض كانوا كلهم سكارى فقد أخذ منهم الويسكي مأخذه، تركهم خلفه واتجه إلى حبيبته، جرها من يدها هامًّا بالخروج فغافله أحدهم من الخلف بكعب مسدس فأسقطه على الأرض، وانهالوا عليه ضربًا وركلا بالأرجل حتى كاد يفقد حياته.

وانهمر الرصاص في الملهى، فقام أحدهم بطلب النجدة، وخلال دقائق وصلت مسلحة ونزل منها بعض المقاتلين مدججين بالسلاح، دخلوا إلى الملهى وحملوا رفاقهم واقتادوا ممدوح معهم.

انقطعت أخباره ستة أشهر كاملات لم يعرف عنه أي خبر، وظن أهله أنه قتل. وبعضهم قال إنه مسجون.

بأي حال من الأحوال عمت الفرحة أهل البلدة وراحوا يتبادلون التهاني بالخلاص منه. لم يأسف عليه أحد، ولم تقام له مراسم العزاء ولأول مرة يشعر الأهالي بالرضى والأمان. مرت ستة أشهر وكاد الناس ينسون ذكره، وإن ذكروه لا يذكرونه بخير، ويصبون عليه اللعنات.

في يوم من أيام حزيران دخلت إلى البلدة سيارة جيب تحمل رشاش دوشكا روسي الصنع، منصوبًا على ظهرها، قادمة من عمان، أثارت دهشة الأهالي.

هذه السيارات مألوفة لديهم، هناك في الغرب القريب من البلدة في اشتفينا ودير اليوس والمقاطع يتواجدون... توقفت أمام دكان الحاج رضوان وترجل منها شاب ملتحٍ ينتعل حذاءً حربيًّا ويضع على عينيه نظارات سوداء قاتمة... وعلى رأسه قبعة كابوي أمريكية، يظهر شعره الطويل من تحتها،

ويرتدي بدلة مبرقعة، عُلِّق على جيب سترته الأيسر صورة نسر مظلي، وكتب على ذراعه الأيسر عبارة (قوات الصاعقة)... يتسلح بكلاشنكوف، وتحت حزامه من الخلف مسدس عيار ١٤ مم.

لم يعرفه أحد يمشي متباطئًا بكبرياء وتعالٍ، دخل إلى الدكان وطرح التحية فرد عليه الحاج بمثلها:

- تفضل أهلا وسهلا...

قال بلهجة آمرة وهو يصطنع الجدية ويتغلب على ابتسامته:

- هات باكيت دخان روثمان وكبريته.

ثم سحب كرسيًّا خشبيًّا قصير الأرجل، وجلس واضعًا رجلًا فوق رجل، غير آبه بمن حوله.

أثار وجود السيارة وجلوس الفدائي في الدكان فضول المارة فتجمعوا وراحوا ينظرون إليه بانبهار بالغ. فتح علبة السجائر واستل واحدة منها بأسنانه، وراح يهرسها بأصابع يده كي تلين، ثم يمسكها من الأعلى ويضرب قاعها المصنوع من الفلتر ضربات خفيفة على صفحة العلبة، يخرج عودًا من الثقاب وبحركة عنيفة تمثيلية يشعله ويدنيه من السيجارة التي في فمه، يسحب منها نفسين أو ثلاثة حتى يملأ الدخان رئتيه فينفثه في الهواء باتجاه السقف، ثم يقول وهو رافع رأسه:

- وين الشاي عمي أبو عادل؟

كان يراقب حركاته مندهشًا لوقاحته، ويبحث في ذاكرته عن كلمات يرد بها عليه طالبًا منه الانصراف. حتى سمعه يناديه باسمه، قطب حاجبيه وحك رأسه بأربع أصابع تذكر، هذا الصوت ليس غريبا عليه... ولم ينبس حتى لم

يستطع ممدوح تمالك نفسه فانفجر ضاحكًا، وقال بعد أن خلع النظارة عن عينيه:

- بالله عليك عمي أبو عادل أما عرفتني؟

قال متفاجئًا:

- ممدوح!... لا بارك الله بك....اف اف اف صاعقه مرة واحدة؟ يا نيال أهلك فيك.

كان يحترم الحاج كثيرًا، وهو الوحيد في البلدة الذي يخجل منه، قال بلهجة طفولية:

- ول ول ليش يا عمي؟ والله ما بقوم إلا لما أشرب شاي.

وعم الخبر وانتشر انتشار النار في الهشيم، قال قائل:

- يا فرحه ما تمت... ما صدقنا ونخلص منه.

وقال آخر:

- يا حبيبي الآن كملت معانا!!

وعقب آخر:

- الله لا يجيب الدرب اللي جابتك.

لم يأبه به أحد، ولم يحترمه أحد، وما زالوا ينادونه الهامل أبو النوريات.

قال وهو يعتدل أمام مقود السيارة مخاطبًا الشباب:

- من يريد منكم الانضمام إلى الثورة عليه مراجعتي في القاعدة وسوف نعطيه سلاحا ولباسا مبرقعا.

ثم ضغط على دواسة البنزين وانطلق يسابق الريح.

تنفس الأطفال الصعداء ولاحظ الجد أنه حان وقت النوم، قال والآن يا أحبابي فلينهض كل منكم يغسل أسنانه وسيكون لنا لقاء في مساء الغد وسوف أكمل لكم بقية القصة، تصبحون على خير.

أجابوه تباعا، وأنت من أهل الخير يا جدي.

*****

فصل ٧

كان الصبيان والكبار متعطشون لسماع بقية القصة فما إن فرغوا من تناول طعام العشاء وصلوا صلاة العِشاء، حتى تحلقوا حوله وهم يطالبونه بإكمال الحكاية.

قال: حتى تصلون على النبي.

فرد الجميع: عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: كانت معركة الكرامة قد أعادت للأمة شيئًا من كرامتها المهدورة في حرب حزيران، وأظهر كل من الجيش الأردني ورجال المقاومة الفلسطينية بسالة منقطعة النظير، لفتت إليهم أنظار العالم العربي خاصة والإسلامي عامة، بل وحتى الدولي.

قدم جمال عبد الناصر للثورة الفلسطينية كل الدعم المادي والمعنوي والدولي وتبعته كافة الدول العربية. قطعت معظم دول العالم الإسلامي وأفريقيا وكثيرٌ من دول أمريكا اللاتينية والشيوعية علاقاتها مع إسرائيل، حتى باتت في شبه عزلة. وما يضيرها ما دامت الدول العظمى كلها تدعمها.

وقد حققت الثورة الفلسطينية نجاحات على الصعيدين السياسي والعسكري، وقامت بعمليات نوعية ومعنوية داخل الأراضي المحتلة. يتسللون من منطقة الأغوار وتحت حماية الجيش الأردني. وكلما قاموا بعملية فدائية يخرج موشي ديان الأعور على وسائل الإعلام يهدد ويتوعد، وفي اليوم التالي تصب الطائرات الإسرائيلية جام غضبها على الجيش الأردني وقواعد الفدائيين

دون تفريق.

مضى عدة أعوام على انطلاقتها، راحت منظمة التحرير تنمو بشكل سريع وتشكلت من خلالها عدة فصائل تحمل أيدولوجيات مختلفة، وانتشرت القواعد في كافة أنحاء المملكة ومدنها. لكن عمان كانت تحتوي الجزء الأكبر من المقاتلين، فأقاموا المتاريس ونقاط التفتيش على مداخلها وفي جبالها وعلى مداخل إربد والزرقاء. كثرت المظاهرات التي ترفع شعارات وطنية (شعب واحد لا شعبين). ولاحقا تطورت الشعارات التي تفوح منها رائحة العداء للنظام الملكي. تلطخت الجدران بالشعارات الثورية، فلا يكاد يخلو جدار من تلك الشعارات والرسومات الثورية.

ثورة حتى النصر... ثورة حتى التحرير... فلسطين عربية.... فلتسقط الرجعية، كل السلطة للمقاومة!

بات واضحًا للعيان، وبشكل علني، معاداة الثورة للنظام والصراع على السلطة، وبدأت تظهر المناوشات والصدامات بينهم وبين رجال الأمن داخل المدن، وحل تنظيم الكفاح المسلح مكان الأمن العام في كثير من المواقع يمارس كل مهامه. ولا ننكر وجود الخونة والعملاء الذين كانوا يذكون نار الفتنة بين الطرفين.

واندلعت الحرب الأهلية.

وراحت الأنباء تتواتر عن محاور القتال والدمار الذي حل بعمان، أما في عبين، وهي ليست بعيدة عمَّا يدور في بقية أنحاء المملكة، ذلك لأن منطقة المقاطع ودير اليوس ذات الكهوف الأثرية كانت قواعد للفدائيين. كانوا مسالمين ولا يوجد بينهم وبين الأهالي أية عداوات، وكانت المنطقة تخلو من وحدات

الجيش. وتدور الإشاعات والحكايات في الدكاكين، وفي صالونات الحلاقين فالمصيبة كانت عامة.

في بداية انطلاق الثورة الفلسطينية كان للعمل الفدائي مذاق ونكهة خاصة لدى العامة، كان الفدائي يأتي إلى البلدة يستقبلونه بالتهليل والترحيب ويغدقون عليه بما تجود النفس من الغلال والطعام، وانضم إليهم العديد من أبناء البلدة، وتم توزيع السلاح عليهم عن طريق أحد أبناء البلدة دون إخضاعهم لأي تدريب، هذا انضمَّ إلى "فتح" وفلان مع "الجبهة الشعبية"، وهذا مع "أبو علي إياد"، وذاك مع "الناصريين"...إلخ

كانوا محط إعجاب الأهالي، أنشأوا معهم علاقات حميمة وصداقات، وكانوا يبرونهم بالطعام والفواكه، لكنهم التحقوا برفاقهم في قاعدة اشتفينا (منطقة تبعد عن عبين حوالي ٤ كم إلى الغرب) بعد خروج الفدائيين من المدن بناء على قرارات جامعة الدول العربية.

ووضعوا نقطة تفتيش على الطريق المؤدي إلى مدينة عجلون، وعلى الجانب الآخر وضعت نقطة تفتيش للجيش لا تبعد عنها أكثر من مائتي متر.

كانت الأجواء مشحونة بالعداوات فأهمل المزارعون محاصيلهم التي كانت تحت سيطرة المسلحين والجيش. وراحت الشائعات والأقاويل تنتشر بين الناس.

ها هم يجلسون أمام دكان الحاج رضوان يتبادلون الحديث، والأحاديث شتى: يتحدثون عن الزراعة تارة، وعن السياسة تارة أخرى؛ ففي هذا العام كانت الأوضاع السياسية في البلد سيئة جدًّا والحرب الأهلية أو ما يسمى بحرب الفدائيين أضرت بالجميع.

قال أبو وصفي مخاطبًا أبا خليل:

- حدثنا عن مغامراتك كيف حصدت محصول العدس في السنة الماضية؟ يقولون إن الأرض كانت مليئة بالألغام ومصائد المغفلين هل هذا صحيح؟

يعتدل في جلسته ويهز رأسه متأسفًا على كل ما جرى... يشعل سيجارة جولدستار وراح يتحدث بلهجته العفوية:

- حتى تصلوا على النبي...

- عليه أفضل الصلوات والسلام.

- بعد خروج الفصائل الفلسطينية من عمان والزرقاء تم توزيعهم في أماكن متفرقة من البلاد كما تعلمون، فاستقر قسم منهم بأحراش دبين والقسم الثاني بأحراش عجلون - اشتفينا.

قاطعه أحدهم:

- يا أسفي على هالشباب اللي انقتلوا الله يجازي اللي كان السبب.

رد آخر مؤيدا لكلامه:

- مثل ما قال المثل لا تؤاخذوني.. إن بصقت لفوق على شواربك، وإن بصقت لتحت على لحيتك.

قاطعهم أبو وصفي:

- ما علينا اللي صار صار خلو الزلمة يكمل حديثه.

والتفت إلى أبي خليل وقال:

- تفضل حجي، كمل.

- صليتوا على النبي؟

- عليه الصلاة والسلام.

- كان فصيل "أبو علي إياد" هو المتحكم في المنطقة، وبعد أن دب الخلاف بين الجيش والفدائيين، ترك الفلاحون مزارعهم بورا ولم يزرعوها. أما أنا فقد كنت زرعت هناك عدسًا، وقد أينعت وحان وقت حصادها. ولكن رفض الجميع أن يذهب معي إلى هناك لوجود الألغام على الطرقات؟!

سأله أحدهم:

- طيب... وشو ساويت؟

ضحك واعتدل في جلسته، رشف رشفة من كأس الشاي الذي سكب له في التو وقال:

- تعلمون أنه عندما رفضتم الذهاب معي للحصاد، وأبو زهير أيضًا قال إنه لن يغامر بالتراكتور والقاطرة ليرجد (ينقل) العدس، وأصحاب الجِمال أيضًا رفضوا أصبحت يائسًا وطلبت العوض من الله. وراح الوقت يداهمنا، والعدس أينع وحان قطافه، وإن لم نحصده فسوف تتساقط حباته وتروح هدرًا في التراب.

قال أحدهم مقاطعًا:

- إيه وبعدين شو عملت؟

- ما عملت شي... وصَّلْنا خبر لقايد كتيبة الجيش المرابطة على الواجهة المقابلة لقاعدتهم فأرسل في طلبي، وعندما وصلته استقبلني بحفاوة وسألني عن موقع الحقل فوصفته له.

- أجرى اتصالًا مع قائدهم وأخبره بالأمر.

أضاف أحدهم:

-أكيد بعرفوا بعضهم.

رد:

- إي أكيد بعرفوا بعض، ناداه باسمه وراح يسأله عن حاله وأحواله.

تدخل أبو وصفي:

- ما علينا... هات من الآخر ماذا قال له؟

- قال له: لا أحد من الفلاحين يجرؤ على الدخول إلى حقله بسبب الألغام التي زرعتموها في الطريق، وعندي فلاح مغلوب على أمره له حقل عدس في القرب منكم فكيف السبيل للوصول إليه وحصاده.

رد عليه وقال:

- هل هو عندك الآن؟ أرسله إليّ وهو في أمان.

التفت إلى قائد الكتيبة وقال: الرجل يريدك أن تذهب إليه فما رأيك؟

قلت: لا لن أذهب وما يدريني ربما يغدرون بي؟

- لا لا تخف هذا الرجل لا يكذب ولا يغدر، أنا أعرفه شخصيًّا، اذهب ولا تخش شيئًا، ونحن هنا سوف نحميك، لا تخف هيا.

ذهبت ماشيًا على قدمي، فالمسافة بينهما كانت قصيرة، إلى أن وصلت إلى نقطة التفتيش، كان فدائي واحد فقط يتمركز خلف رشاشه الدوشكا الروسي الصنع. كان ذا شعر طويل ينسدل من تحت قبعته الأمريكية التي تحميه من وهج الشمس، يزين عارضيه لحية كثة وشوارب تكاد تخفي شفته العليا، ويرتدي بدلة مبرقعة، يتوسطها حزام عريض يتدلى منه مسدس عيار ١٤ مم. شاهدني قادمًا نحوه فتحفز، واتخذ وضعية القتال، وأشهر سلاحه بوجهي وقال بلهجة آمرة:

- ارفع يديك.

فرفعتها وتابعت المسير باتجاهه حيث أشار إلي هو بيده أن أتقدم نحوه.

- من أنت؟

- فلاح من البلدة.

- ما اسمك؟

- أبو خليل.

- ماذا تريد؟

قلت وقد زال الخوف من صدري وأصبحت أكثر شجاعة:

- مقابلة القائد.

- لماذا؟

- للسلام عليه.

- وهل تعرفه؟

- أنت ما شأنك يا رجل أخبره بأن لديه ضيفًا ألست عربيًّا؟ أوهكذا تكرمون الضيوف؟

خجل من نفسه وخفض سلاحه وقال على استحياء:

- أهلا وسهلا تفضل اجلس هنا.

جلست على كرسي خشبي كان بجانبه. وراح يطلب القائد على الجهاز. فهمت من مجرى الحديث أنه سُمح لي بالدخول فدخلت وحيدًا باتجاه حدده هو لي، قال:

- اذهب من هنا ولا تلتفت يمينًا أو شمالًا.

بين أغصان أشجار السنديان والقيقب والزعرور المتشابكة سكون يبعث على الرهبة، لا يكسره إلا فرار طير تفاجأ بوقع خطواتي، أو زعيق طائر أبو زريق

وهو يفر مذعورًا.

كان الجو حارًّا وبدأ العرق يتصبب من جبيني، مشيت مائة متر أو يزيد، وفجأة برز لي من الجانبين رجال مدججون بالسلاح ملثمون بكوفيات زرقاء، هبوا في وجهي هبة رجل واحد بصوت تقشعر له الأبدان بلهجة آمرة لا تخلو من الشدة:

- قف مكانك وارفع يديك.

شعرت بالرعب وكاد قلبي يخرج من قفصي الصدري.. وبدأ الخوف يتسرب إلى نفسي، قلت: "ما لك وما للعدس يا أبا خليل.... وما لك ومال هؤلاء القوم... يا لك من أحمق مغفل يا أبا خليل!! كيف وثقت بكلامهم وهاهم قادوك نحو حتفك؟ سيفعلون بك مثل ما فعلوا بالراجح... سيعتقلونك ويلقونك في غياهب ذاك الجب بلا طعام أو شراب حتى تنهش جسدك الأفاعي والديدان... ليتني أستطيع العودة أنا لا أريد عدسًا بعد الآن، فليذهب العدس إلى الجحيم ".

قطعت وساوسي لهجة آمرهم عندما سألني ذات الأسئلة التي سئلت وأجبت عنها بذات الأجوبة التي أجبت فقال: حسنًا... تابع المسير.

تابعت المسير وتابعوا هم أيضًا معي في موكب من أربعة رجال ملثمين من اليمين وأربعة من الشمال وواحد أمامي وواحد خلفي. واستمررنا بالسير لبضعة دقائق حتى وصلنا إلى مفترق طرق هناك وجدنا سيارة جيب بانتظارنا، عصبوا عيني وحملوني بالسيارة وانطلقت بنا خلال طرق وعرة متعرجة غير معبدة. مشينا أكثر من نصف ساعة حتى وصلنا إلى مقر القائد، وهو عبارة عن كهف روماني قديم واسع استخدمه كمقر له (اكتشفت فيما بعد أن المسافة لا تحتمل أكثر من خمس دقائق).

قبل أن أترجل رُفِعت العصابة عن عيني، ووجدت نفسي وجهًا لوجه أمام القائد، وهو واقفٌ أمام الكهف ينتظر وصولي.

كان الرجل ممتلئًا، قصير القامة، ذا وجه بيضاوي، تميل بشرته إلى السمار، يرتدي قبعة عسكرية، وبدلة "فوتيك" لونها أخضر، وحذاء عسكريًّا أصفر اللون، ويثبت على خصره مسدسًا من الجهة اليسرى. يبدو للناظر بشوشًا لكنه ذو شخصية قوية. قوي الشكيمة يُحسب له ألف حساب، وهو ممن شاركوا في حرب الكرامة.

مشى أمامي فتبعته نزولًا أربع درجات أو خمس إلى الأسفل تقودنا إلى داخل الكهف، وهو من السعة بحيث يكون فيه مكتب ومقاعد ومجموعة من الأسلحة الفردية المتنوعة، وأجهزة الاتصال، وأدوات قتال أخرى.

ثلاثة مقاعد خشبية من اليمين ومثلها من الشمال، تتوسطها طاولة خشبية قصيرة الأرجل تحمل فوقها أصنافًا متعددة من الفواكه والحلوى والسجائر. أما الجدران، فقد زُيِّنت برسومات ذات دلالة وطنية: صور شهداء... ملصقات البنادق المرفوعة، وشعارات ثورية تحمل اسم التنظيم... ثورة حتى النصر... ثورة حتى التحرير... فلسطين عربية... وغيرها.

في وسط أحدها رسمت خارطة فلسطين وعلى الجدار المقابل رسمت خارطة عسكرية. وفي الصدر خارطة الوطن العربي تعتليها صورة لجمال عبد الناصر وتشي جيفارا وفيدل كاسترو.

أشار إليّ بالجلوس فجلست حيث أشار، قدم لي صحن السجائر وبه عدة أنواع من السجائر فاخترت (القولد ستار) goldstar وتقدم نحوي وأشعلها لي بقداحته ثم جلس مقابلي وأشعل هو الآخر سيجارة وراح يعج عليها يمجها مجًّا.

دخل رجل من عناصر الحراسة بأكواب الشاي الذي يترقرق مع خطواته المتعثرة ألقى التحية ووضع الأكواب أمامنا وانصرف.

تبدلت نظرة الآخرين تجاهي وراحوا يبادلونني الأحاديث والترحيب. لا أخفيكم أنني شعرت بالاطمئنان.... ولمَ لا؟! إنهم أهلي ومن جلدتي وبينهم الأردني والفلسطيني والعربي.

سأله أحدهم:

- ما شفت ممدوح معاهم؟

رد:

- لا والله يقولون إنه في قاعدة بأحراش دبين.

- المهم...وبعدين شو صار؟

- كان بمنتهى اللطف معي، سألني عن صلتي بقائد الكتيبة، وسألني عن غايتي فشرحت له الوضع وهو مصغٍ تمامًا قال:

- لا عليك لا تخف... سوف أعطيك تصريحًا يؤهلك بالدخول إلى مزرعتك في أي وقت تشاء، اذهب وأحضر العمال والحصادين وسيارة نقل وسوف نزيل الألغام من طريقكم ولن يتعرض لكم أحد بسوء. ولا تتردد بزيارتي بأي وقت تشاء.

خرجت من عنده مسرورًا مطمئنًا وشيعني ثلة من المقاتلين معصوب العينين حتى بلغنا النقطة الحدودية، ودعتهم ملوحًا بيدي:

- نستودعكم الله.

رد كلهم بلسان واحد وهم يلوحون بالكلاشنكوف وعلامة النصر:

- مع السلامة يا حاج... مع السلامة.

واتجهت إلى قائد الكتيبة الذي كان ينتظرني وأخبرته بما جرى، سُرَّ كثيرًا وقال:

- ألم أقل لك إنه رجل بمعنى الكلمة؟ حسنا وماذا ستفعل؟

- غدا سيأتي الحصادون معي ونحصدها بمشيئة الله.

- على بركة الله.

-لكن يا ساده يا كرام أنتم تعرفون ماذا حصل، لقد رفضتم أنتم وغيركم ومعكم أبو زهير سائق التراكتور الذهاب معي.

قالوا: نعم هذا صحيح وكيف تريدنا أن نذهب لنحصد عدسًا في حقل مليء بالألغام بين الأعداء؟

- قلت لكم إنهم ليسوا كذلك لكنكم جبناء... لم تصدقوا.

-عدت إلى قائدهم وأخبرته بما جرى وأنه لم يقبل أحد المجيء معي... أتعرفون ماذا فعل؟ قال تعال دلنا على مزرعتك وحملني معه بسيارته الشخصية وأمر المقاتلين-أحدهم كانوا ينادونه بالرفيق عساف والآخر الرفيق حمزة- بأن يلحقوا بنا ومعهم شاحناتهم.

أشرت لهم إلى حقل العدس:

- تلك هي التي في بطن الوادي.

نزلوا من سياراتهم واصطفوا خطًّا مستقيمًا - يسمونه في العسكرية خط حرب - على طول الواجهة وبأيديهم العارية راحوا يقتلعون العدس من جذوره كأسراب الجراد خلال ساعة فقط كانت محملة في الشاحنات، وعدنا إلى نقطة التفتيش حيث قالوا إنه ليس مسموحًا لهم بتعدي هذه الحدود.

اذهب وأحضر شاحنة ونحن بانتظارك، ولم يكن لي نصيرٌ إلا أبا الحسن - جزاه الله خيرا- الذي هبّ لنجدتي وامتطى صهوة التراكتور يجر خلفه المقطورة وفي صندوقها ثلاثة عمال راحوا يفرغون العدس من سيارات المقاتلين إلى المقطورة بهمة ونشاط. ومن هناك توجهنا فورًا إلى البيادر. وكان بيدري هو أول بيدر مكتمل على البيادر.

- نعم نعم هذا صحيح.

تهللت وجوههم جميعًا وتعجبوا من شجاعتي.

يومها قال لي أبو ممدوح: وجب عليك مكافأتهم يا أخي غدًا سنصنع لهم الغداء من المناسف ونرسلها إليهم فما رأيكم؟

قلت:

- نعم كنت أفكر في الأمر... إنه لنعم الرأي.

- خيرًا تفعلون، قال أبو جديع وهو يتثآب، كاشفًا عن أسنان سوداء بفعل التبغ، فقد أخذ التعب منه مأخذًا وحان وقت النوم نستودعك الله.

ذات صباح استفاق الأهالي على هدير الدبابات والمجنزرات التي اتخذت البلدة مركزًا للعمليات الحربية، ونصبت المدافع على أرض ملعب المدرسة. دقت ساعة الصفر وراحت المدفعية تدك قواعد المقاتلين في أحراش دبين وعجلون على السواء، وتقدمت أرتال الدبابات ومدافع ال ١٠٦ والمجنزرات باتجاه الأدغال، وكانت حرب غير متكافئة، لم يتجاوز القتلى فيها عدد الأصابع من الطرفين...

أسفرت عن استسلام الفدائيين وتسليم أسلحتهم للجيش، وقد كان الأهالي يشاركون بأعمال النهب طمعًا بالعثور على الأسلحة وخاصة الكلاشنكوف، أو أي قطعة سلاح من الأسلحة التي تركوها خلفهم أثناء فرارهم، واستشهد ثلاثة من رجال البلدة انفجرت بهم ألغام أرضية.

تمر السيارات العسكرية في البلدة محملة بالغنائم من مواد تموينية وأسلحه يبيعونها للأهالي بثمن بخس، بل وراح بعض الجنود يسرقون ويبيعون المواد التموينية من مخازن الجيش ويبيعونها للأهالي.... كانت فوضى عارمة. وتم ترحيل من بقي منهم إلى لبنان عبر سوريا، لتبدأ معاناتهم من جديد.

ممدوح كان من بين الناجين وجد نفسه في لبنان ولم يكن الوضع هناك بأفضل من هنا. دب الخلاف بينهم وبين السلطات اللبنانية، وتفرقوا فصائل متناحرة، وعم الاقتتال فيما بينهم.

نشأت في لبنان قوات لبنانية وطنية ذات استقلالية تامة، في البداية كانوا رديفًا للفلسطينيين، لكن مع تشعب الحركات، ونشوء تنظيمات يمينية متطرفة من جهة ومعاداة سوريا وإسرائيل من جهة أخرى، اختلط الحابل بالنابل.

عانت لبنان الأمرين في سنين حرب لا أمل في نهايتها.

وذاق الفلسطينيون الأمرين في تل الزعتر، وبرج البراجنة، والنبطية، وكان أفظعها مذابح صبرا وشاتيلا وغيرها. كثرت بينهم حوادث الاغتيالات والخيانات،

وعانوا من العملاء والخونة؛ مما تسبب في اغتيال قياداتهم الشرفاء[٢٢] على أيدي الموساد وأعوانهم؛ مما تسبب في هزيمتهم للمرة الثانية وخروجهم من بيروت إلى تونس والسودان وقبرص. وكان ممدوح ممن رحلوا إلى السودان. وانقطعت أخباره عن أهل البلدة.

بالعودة إلى سنوات الحرب الأهلية "تنذكر ما تعاد"، كانت الأخبار التي تأتي عن الاقتتال الدائر بين الأخوة في عمان مرعبة ومبالغًا فيها، قائل يقول لم يبق حجر فوق حجر في عمان... وغدت مدينة أشباح مدمرة عن بكرة أبيها. ووكالات الأنباء العالمية لا تنقل الأخبار الحقيقية إنما كانت كلها اجتهادات.

---

٢٢ ومن الأحرار الشرفاء الذين اغتالتهم الموساد عام ١٩٧٢ ردا على عملية ميونخ غسان كنفاني في بيروت/ وائل زعيتر في روما / محمود الهمشري فرنسا/ حسين البشير قبرص/ باسل الكبيسي بيروت/ محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر في يوم واحد في بيروت /علي حسن سلامة بيروت/.

وفي فترة الثمانينيات أبو جهاد تونس /خالد نزال اليونان

وفي فترة التسعينيات صلاح خلف في تونس /هايل عبد الحميد تونس أبو محمد العمري تونس /عاطف بسيسو فرنسا/ عماد عقل حماس /فتحي الشقاقي مالطا/يحي عياش غزة/محاولة اغتيال خالد مشعل عمان.

وفي الفترة ما بين ٢٠٠٠-٢٠١٠جمال عبد الرزاق غزة/مسعود عياد جباليا جمال منصور الضفة الغربية/عماد أبو سنينه الخليل/ محمد أبو هنود من كتائب القسام نابلس/ رائد الكرمي /ومهند الطاهر وصلاح شحاته وإبراهيم المقادمه غزة/أحمد ياسين غزة/عبد العزيز الرنتيسي غزة/عدنان الغول ونزار ريان وسعيد صيام غزة

وفي عام ٢٠١٢ أحمد الجعبري رائد العطار محمود ابو شماله ومحمد برهوم

وفي عام ٢٠١٩ الشاب البطل عمر أبو ليلى.

اندلع القتال في الشوارع وفي الأحياء وحصلت أعمال نهب وسلب في وسط البلد.

في النهاية كانت الغلبة للجيش وقد سيطر على كل المواقع، قتل من قتل وأسر من أسر وتم ترحيلهم من المدن إلى الأحراش بناء على اتفاقات دولية كما ذكرنا سابقًا.

أبو عفيف كان يوم ذاك في الجيش، يسأله أبو نزيه:

- يقولون إنك كنت وسط المعمعة بعمان أيام الحرب الأهلية؟ صحيح؟

تنحنح أبو عفيف وعدل من عقاله ووضع رجلا فوق رجل وراح يلف سيجارة هيشي على أقل من مهله. والحاج رضوان قد وضع إبريق الشاي على البريموس (كان اسمه ببور الكاز).

قال وقد فرغ من لف السيجارة وأشعلها بقداحة الكاز شافطًا أول شفطة منها:

- هذا يا حفيظين السلامة. حتى تصلوا على النبي.

- اللهم صلّ عليه... رددوا

- كانت كتيبتنا متمركزه في جبل القلعة، وكان الفدائيون محتلين عمان كلها، وصرنا نتناوش معهم من جبل لجبل، ومن دار لدار قتال شوارع.. حتى حررنا وسط البلد وسقف السيل، وهناك صارت أعمال نهب وسلب للمحلات، وخاصة محلات الذهب

- يا لطيف... قال أبو صافي وتابع:

- وأنت أما شاركت بالنهب معاهم؟

مج على سيجارة الهيشي مجة كبيرة حتى امتلأت رئتاه ثم نفثها بانفعال ظاهر وزفر بتنهيدة قوية. هز رأسه يمنة وشمالا وأشار بإصبعه بحركة تنم عن النفي.

-أعوذ بالله.

سأله آخر قِرْ الصحيح[٢٣]

- كم إسوارة ذهب طلع لك؟

- لا يا جماعة وحدوا الله... أنا ما شاركت بالسرقة لكن أبو شنب سرق نص المحل قلت له أعطيني خاتم والله ما رضي هالقواد.

- طيب أنت لماذا لم تشارك؟ سأله أبو عبد الحميد.

- لأنني تصاوبت، أجتني طلقة من غايب علم الله وما شفت حالي غير بالمستشفى؟

- أوف....! يا رجل...قول وغير.. قال أبو عبد الحميد.

- هاض اللي أجاك... . صليتوا عالنبي؟

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

- إيه...وبعدين شو صار؟

- ولا قبلين... أول ما فتحت عيوني بالمستشفى شفت دكاترة وممرضين، حاولوا ياخدوا بندقيتي مني بالقوة.

- ليش هي بندقيتك كانت معك وأنت مغيب؟

تلخبط كيانه وتوردت وجنتاه عرف أنه وقع في مطب فاستدرك:

---

٢٣ اعترف بالحقيقة.

- ترى يا جماعة الخير أي واحد بنجرح بنقلوه عالنقالة وبتظل بندقيته معه... ف.. ف.... أنا...أنا... لما صحصحت لقيت حالي ماسكها بيدي.

-كمل...كمل.... أبو عفيف ما عليك منهم هضول شو بعرفهم بالعسكرية المهم.... قمت متل الأسد وأنا جريح... ثم نهض واقفًا على رجليه وتابع.... قلت لهم: ما في حدا بالدنيا بقدر ياخذ مني سلاحي.

- تصفيق... وتكبير... برافو عليك والله إنك زلمة.

- كمل... كمل... وبعدين شو صار؟

بانفعال كبير ألقى ما تبقى من سيجارة الهيشي على الأرض ودعكها بحذائه

- أثريهم طلعوا كلهم متآمرين.

وقال وهو يصنع من يديه شكل بندقية:

- سحبت الأقسام وططط... طططط....طططط.... طططط ورشيتهم كلهم.

- الله أكبر.... الله أكبر.

- عفيه عليك.

- تسلم يمينك.

- هيك لازم تكون الرجال.

- طيب.. وبعدين ماتوا كلهم؟

- معلوم... قالها ثم جلس وارتشف ما تبقى من كوب الشاي وغادر؟ وهو على يقين أنهم صدقوه.

- إلى أين يا رجل؟

- إلى المزرعة سأقوم بحراستها من الخنازير، الله لا يوفقهم أهل مادبا اللي فيعوا خنازيرهم علينا.

انهالت الضحكات والهمهمات بعد أن غادر. فكلهم يعرفون أنه كان يعمل خازن عهده في الجيش، ولم يشارك بأية معركة، ولم ينجرح طوال خدمته العسكرية.

والآن يا أحبابي هيا كل واحد منكم يقبِّل يدي ويذهب إلى فراشه وغدا سنكمل بقية القصة.

يقبلون يده ويقولون تصبح على خير يا جدي.

*****

فصل ٨

كانوا على أحر من الجمر ينتظرون الانتهاء من وجبة العشاء... تحلقوا حول الجد بشوقٍ بالغٍ لا يضاهيه شوق النساء لانتظار مسلسل كسندرا، قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم. حتى تصلوا على النبي.

ردوا بلسان واحد: عليه الصلاة والسلام.

لم يرض العرب بالهزيمة التي حلت بهم عام النكسة، فراحوا يعدون العدة ويجهزون الجيوش استعدادًا لقتال العدو واستعادة ما سلبه من أراضينا، فقد بات واضحًا للجميع أن إسرائيل لا تفهم إلا منطق القوة، وأن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة.

استفاق الأهالي في أحد أيام تشرين وكان شهر رمضان، استفاقوا على هدير الطائرات في الجو... وهبوا لجهاز الراديو كالعادة وهم ما يزالون يعيشون حالة الانهزام.. وتوالت الأنباء عن اجتياز القوات المصرية لخط بارليف المنيع على ضفاف قناة السويس وقالت الأنباء: إن الجيش السوري اكتسح القوات الإسرائيلية المنهزمة في الجولان والقنيطرة... ولكن لم يصدق أحد هذه الأنباء؛ ذلك لأنهم فقدوا الثقة بالإعلام العربي والإذاعات العربية. لكن ما شاهدوه بأم أعينهم جعلهم يهللون ويكبرون فتلك الصواريخ المنطلقة من سوريا كانت تتعقب الطائرات الإسرائيلية في السماء حتى تنفجر أمام أعين الناس الذين صعدوا على أسطح المنازل لمشاهدة تلك المناظر المبهجة.

لم يهربوا هذه المرة إلى الكهوف، ولم يخلوا منازلهم، بل ذهبوا إلى المستشفيات للتبرع بالدم... كان الجميع متعطشين للنصر بأي شكل من الأشكال.... تحطمت قوة العدو الجوية وصارت السماء والأرض للعرب، وبات النصر المؤكد لنا... واستمرت القوات المصرية والسورية تطارد فلول العدو، حتى تدخلت الدول الكبرى وراحوا يزودون إسرائيل بأسلحة حديثة لمقاومة الدبابات، بل وأرسلوا لها مع جنودهم أبناء الكلاب، وخسر الجيش السوري كل دباباته في الجولان والقنيطرة... وأرسلت أمريكا طائراتها بطياريها إلى أرض المعركة، وأجبرونا على وقف إطلاق النار.

وراحت بطولات جيوشنا سدى، عندما سمح للقوات الإسرائيلية بمحاصرة لواء مصري في سيناء، كانت ذريعة لأنور السادات كي يقنع شعبه بقبول وقف إطلاق النار، ولكن تتابع الأحداث خيب آمال الأمة؛ لأنها لم تكن حرب تحرير بل كانت حرب تحريك متفق عليها بين السادات وأمريكا.

- صليتوا عالنبي؟

- عليه الصلاة والسلام.

- وبعدين ما الذي حصل يا جدي؟

يهز الجد رأسه ألما ويقول: الذي حصل يا أبنائي كان أكبر عار وأكبر خزي لهذه الأمة... قام أنور السادات بزيارة إسرائيل، ووقع معهم اتفاقية صلح، ثم تبعه الأردن، وفلسطين، وبقيت سوريا هي الدولة الوحيدة التي لم تدخل بمفاوضات وصلح... وكانت من نتائجها أن قامت مجموعة من الشباب الغاضبين باغتيال السادات وتمكنوا من قتله.

يتنهد الأطفال تنهيدة عميقة ويسأل أحدهم:

- وممدوح يا جدي ماذا حصل له؟

- استفاد ممدوح من العفو[٢٤] وقرر العودة إلى أرض الوطن بعد عشر سنوات قضاها في تونس يتنقل من عمل إلى عمل، ولم يعد له علاقة بالعمل الفدائي وعاد مع العائدين. أخضع للتحقيق وأدلى بكل ما لديه من معلومات ثم أطلق سراحه.

وانتهت الحرب وعادت المياه إلى مجاريها، وأحيل أبو عفيف على التقاعد، يعتني بكروم العنب واللوزيات، وما زال يجد لنفسه مقعدًا ومستمعين أمام دكان الحاج رضوان. كما أسلفنا سابقًا.

في الأثناء يظهر أبو عفيف قادمًا من المسجد، بعد صلاة العصر، وقد تأخر في الصلاة، فسبقه أقرانه.

وكالعادة لم يذهب أحد من العجائز إلى بيته، تجمعوا أمام دكان الحاج رضوان وكان جل حديثهم عن العفو الذي صدر بحق المعتقلين والفارين أثناء الحرب.

قال أحدهم مستفسرًا:

- يا جماعة الخير ابن المرحوم الحج راجي ما فيه عنه أخبار؟ يقولون إنه رجع مع اللي رجعوا.

---

[٢٤] في هذه المرحلة في عام ١٩٧٣ ومن خلال لقاء ثلاثي في القاهرة جمع الملك حسين مع حافظ الأسد وأنور السادات أصدر الملك حسين عفوا عاما عن كل من يعود إلى الأردن من المقاتلين الفلسطينيين الذين اعتقلوا أو فروا خلال أحداث أيلول.

- فال الله ولا فالك يا رجل، رد عليه أحدهم.

- تعرفوا يا جماعة الخير من يوم ما انقلع هذا إللّي اسمه ممدوح اختفت من هالبلد السرقات والعداوات والمشاكل وصرنا نشعر بالأمان.

قال أبو صافي بعد أن مل من كثرة تكرار الحديث في هذه الأمور:

- يا جماعة فكونا من هالسوالف، الزلمة انقلع الله لا يرجعه.

عقب الحاج عبد العزيز:

- يعني يقولون إنه بعمان..... وهل عمان بعيده عليكم...؟! بكرة بتشوفوه راجع يسهر ويسكر مع النوريات... اللي فيه عادة ما بدشرها.

قاطع أبو صافي حوارهم:

- يا جماعه فكوكو منه لعنة الله عليه وعلى طاريه. دوك دوك[٢٥] أبو عفيف وصل.

- السلام عليكم.

ردوا عليه السلام وهم يفسحون له:

- وعليكم السلام...تفضل أبو عفيف.

- إن شاء الله ما في خنازير بالكروم؟ سأله أحدهم.

- هو على أبو فيه.... فيه... لكن وأني أخوك يقدر خنزير يقرب من كرمي.

- لكن بدري بقول إنها منتشرة بكل مكان وشافها بكرمه، شلون ما أجت على كرمك يعني؟

---

[٢٥] دوك تعني انظر.

عدل من عقاله ومد ساقيه وقال:

- أها.... هضاك بدري مو أبو عفيف.

- ليش يعني.. ليكون الخنازير بتخاف منك. ولا عامل لها حجاب عند الفقير (هو رجل ذو كرامة كان يصنع التمائم ويعالج المرضى)؟

- معلوم بتخاف مني... ليش أنت ما سمعت قبل كم يوم صوت البارودة؟

- لا والله ما سمعت...أي بارودة؟

- صلوا عالنبي.

- عليه الصلاة والسلام.

- قبل أسبوع صليت العشا وغربت عالكرم... ورفعت الدالية السمرا وتخبيت تحتها.... بنص الليل حسيت في شي قاعد بدقر فيي لديت وراي تعرفو شو طلع؟

قال أحدهم:

- خنزير؟

زوره بنظرة حادة وقال:

- لا شو خنزير.

قال آخر:

- حصيني؟

وقال آخر: حيه

- لا يا رجل... كان وراي بيت فقوس والفقوسه قاعده بتكبر..

- اف يا لطيف...وأكلتها؟

- طبعا أكلتها.

- ما علينا، قبل الفجر سمعت صوت شخير وزفير، لما لديت عليه وإنه خنزير مثل الوعل الله وكيلكم. وأنا وقفت وسددت عليه البارودة، ولما شافني تفاجأ وقف مثل الأهبل يلد علي، وأحط الطلقة بين عيونه وأعطيه إياها.. وهو يقلي دخلك يا بو عفيف ارحم.

وتتعالى الضحكات، قال أحدهم:

- إججججبد؟

وسأله آخر:

- وذبحته؟

- يا رجل لو شفته وهو يرافس يرغي ويزبد.. وكملت عليه بالشبرية.

- عفية براووو عليك؟

- طيب وينه ما شفناه.

تلعثم.. ولكنه لم يحر جوابًا قال:

- بعته للنصارى بميتين نيره.

علق أحدهم:

- لكن الشيوخ يقولون ما بصير... هذي مصاري حرام ولازم تتصرف بها وتتخلص منها.

انعجق أبو عفيف وراح يسبح في عرقه، نزع الكوفية والعقال عن رأسه ووضعهما على كتفه وسأل:

- طيب شو الحل؟

أجابه أحدهم:

- تبرع بها للجامع.

وقال آخر: تصدق بها للفقراء.

وقال آخر: أعطيني إياها.

واختلفوا فيما بينهم واتفقوا أن يستفتوا الشيخ علي.

قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين... واستمر يلقي خطبة حتى ملّه الحاضرون... وقالوا:

- اختصر يا شيخ هات من الآخر.

قال:

- أما بعد فإن أكله حرام، وبيعه حرام، والتصدق بثمنه حرام، ووضعه في صندوق الزكاة حرام، ورميه في القمامة حرام.

سألوه: فما العمل يا شيخ علي؟

قال:

- أرجع الفلوس إلى الشخص الذي اشتراه منك.

ساد صمت بليغ وبدا على وجوههم عدم القناعة بما أفتى.

قال أحدهم:

- لا ترد عليه روح اشتري فيهم شتلات تفاح وازرعهم... وريح حالك.

يقطع حديثهم الشيخ محمد وهو يؤذن لصلاة المغرب وانفض الجمع وتوجهوا إلى المسجد للصلاة.

لم يعد ممدوح إلى البلدة، بل ذهب إلى بيت ابن عمه خليل خالي الوفاض مفلسًا، لا يوجد معه دينار واحد. راح خليل ينفق عليه لمدة قصيرة، لكنه ضاق

به ذرعًا فاصطحبه ذات يوم إلى حراج السيارات في طبربور (طارق حاليا)، وقف مشدوها يراقب حالات البيع والشراء، وحالات النصب والاحتيال والغش.

يومًا تلو يوم أصبح يتردد على الحراج، فراقته الفكرة، واتفق مع صاحب الحراج – الذي كان يملكه شخص واحد آنذاك - أن يعمل دلالًا ينادي بصوته الجهوري ويجري الصفقات، وأحيانًا كان يشتري ويبيع ويكسب، وأحيانًا كان يتحايل على صاحب الحراج ويسرق العمولة، أو يجري الصفقة خارج نطاق الحراج. حتى تم اُكتشف فطردوه من العمل، لكنه لم يعدم حيلة ... استمر في بيع وشراء السيارات المستعملة. يربح أحيانًا ويخسر أخرى، لكن في المحصلة توفر لديه بعض المال فاتفق مع أحدهم أن يشتري منه سيارته البيكب بدفعة والباقي أقساط شهرية.... فوافق.

توجه إلى سوق الخضار المركزي في الوحدات، وهناك راح يشتري أصنافًا من الخضار والفواكه، ويدور بها في الشوارع وبين الأزقة في الحارات، وهو يصيح بصوته العالي فتسمعه كل النساء الجالسات في البيوت.

بحذائه المتسخ وبلباسه شبه العسكري وشعره الأشعث ولحيته التي أشبه ما تكون كأشواك القنفذ، ناهيك عن تلك الأسنان الصفراء التي صبغها النيكوتين، لا يكل ولا يمل من النداء والتغزل بما لديه من بضاعة.... وتبدأ عمليات البيع وتبدأ النساء بالنداء عليه:

- توقف أيها الفاكِهاني.

يتوقف ويبدآن بالتوافد من حي إلى حي ومن زقاق إلى زقاق، حتى يبيع ما لديه وأحيانا يتبقى القليل فيبيعه بنصف السعر.

ينادي بأعلى صوته الجهوري: تخسر ولا تبات... تخسر ولا تبات!!

ذات يوم قادته قدماه إلى ذلك الحي الراقي بعيدًا عن الأحياء ذات الأزقة الضيقة والبنايات المرتفعة. توقف أمام بوابة حديدية بلون أسود ومدخل كراج لسيارة في فيلا محاطة بسور عالٍ مبني من الحجر الأبيض، وضعت أمام الجراج لافتة مكتوب عليها (مدخل جراج ممنوع الوقوف). وعلى الجانب الأيمن للمدخل الحديدي لافتة بلون أبيض كتب عليها بخط النسخ (فيلا الأستاذ شفيق صوان المحامي) وبالقرب منها جرس كهربائي مزود بكاميرا.

تتهدل أغصان نبتة المجنونة بورودها الزهرية كالشلال المنحدر لتعانق الرصيف، وأشجار الزينة يانعة الخضرة تنتصب متعانقة من فوق السور، وترتفع قرب المدخل بعض أشجار السرو المرتفعة بأشكالها المخروطية تخترق الفضاء، سيقانها الغليظة تعطي انطباعًا بأنها عاصرت حقب التاريخ، موحية للرائي بقدم وعراقة البيت، مضيفة للمكان أبهة وجمالا لا مثيل له. يبدو المكان كأنه مهجور فلا أصوات لأطفالٍ ولا حركة لدخولٍ أو خروجٍ.

يأتي ممدوح ببكبه المحمل خضارًا وفواكه مما لذ وطاب فلا يجد مكانا لركن سيارته، جال ببصره يمنة وشمالا فشاهد الفسحة أمام الجراج، وبما أنه لا يقرأ لم يفهم ما معنى اللافتة، أوقف سيارته هناك. وراح يصيح بأعلى صوته الجهوري، حتى سمعه كل من في الحي.

ترقبه عينان من خلف زجاج مظلم في الطابق العلوي للفيلا يسمح لمن بالداخل رؤية من في الخارج في حين لا يستطيع من بالخارج مشاهدة من في الداخل.

دقائق معدودة حتى ينبلج الباب الحديدي وتطل منه امرأة خمسينية ترتدي زيًّا يبدو أنها طاهية أو جليسة أطفال أو خادمة، تخاطبه بلهجة آمره أن

لا يقف أمام الجراج قالت:

_ ألا ترى اللافتة؟

نظر إلى اللافتة وهز رأسه فهم بالفطرة ما تعنيه قال:

- نعم أراها.

ثم تابع بتودد:

- اسمحي لنا يا حاجة لن نمكث طويلًا وعندما تحتاجون للدخول والخروج سنفسح لكم المجال على الفور.

عادت المرأة وأغلقت الباب الحديدي خلفها وأخبرت سيدتها بما قال.

صمتت قليلا ثم قالت:

-لا بأس... دعيه يقف، يبدو أنه لن يطيل المكوث وعلى أية حال فالسيارة في الجراج لا حاجة لنا بها ولا يوجد من يستعملها.

عادت إليه وأخبرته أن السيدة سمحت له بالوقوف ولكن عليه ألَّا يطيل المكوث، وأن يترك المكان نظيفًا بعد مغادرته، فشكرها ووعدها بذلك.

من نافذة شرفتها العلوية التي تطل على الشارع كانت تجلس وحيدة، بيدها كتاب أو مجلة أو جريدة وغالبًا ما كانت تعبث بالهاتف النقال. تزعجها أصوات سيارات الباعة المتجولة وخاصة بائعي الغاز، فهم لا يراعون حرمة المنازل والأدهى أنك إن احتجت أسطوانة غاز فلن تستطيع اللحاق بهم يمرون مسرعين تسبقهم أصوات البيانو المزعجة بتكرار يوتر الأعصاب. أو يطلق العنان للزامور... صوت نشاز يصيب الإنسان بالدوار..

-" تخلف.. قمة التخلف يجب على الدولة منعهم ".

قالت تخاطب نفسها.

وهذا بائع خردة يصيح بأعلى صوته باحثًا عن أثاث مستعمل أو أجهزة كهربائية تالفة.

وهذا بائع الذرة المشوية ينادي من خلف عربته ذات الثلاث عجلات: "ذرايي ذراييي... يللا يا ذراييي".

وهذا بائع شعر البنات يعزف على آلته الموسيقية.

تضع أصابعها بآذانها إلى أن يبتعدوا.

واليوم جاء هذا القروي وأوقف سيارته أمام المنزل إنه لا يكل ولا يمل من النداء....

لكن الشيء المريح في الأمر هو منظر مختلف عن أولئك المسرعين... تظل واقفة تنظر إليه وهو ينادي بأعلى صوته والنسوة يتجمعن حوله يمازحنه أحيانا ويفاصلنه أحيانًا حتى تغادر آخر مشترية، وقد باع ما لديه من حمولة، يركب خلف مقود سيارته تغمره السعادة ويرحل تاركًا صدى صوته يملأ المكان. منذ ذلك اليوم لم يبارح هذا الحي، صار يأتي باكرًا ولا يعجز عن وجود مكان يركن سيارته غير بعيد عن تلك الفيلا.

فكل يوم في ساعة محددة وفي المكان نفسه يقف ساعة أو ساعتين يبيع ما تيسر مما لديه ثم ينظف المكان ويرحل. ولا يعلم أن هناك عينان حزينتان باتتا ترقبان قدومه كل يوم.

في البداية كانت تجد تسلية بمشاهدة الناس وهم يختارون من الفواكه أفضلها كل واحد بيده كيس يضع بداخله ما يستحلي من الثمار، يناولها له يوزنها ويحسب ثمنها... ويعيد الباقي إذا ما زاد عن المطلوب.

هذا الصباح لم يوفق بالعثور على مساحة كافية للوقوف فأوقف شاحنته أمام المرآب مضطرًا، ولما سمع صوت المزلاج على مقربة منه، هيأ نفسه للرحيل، رفع يده معتذرًا للخادمة وقاطعها:

- أنا آسف سأرحل فورًا...

قالها واستدار نحو غرفة القيادة فأوقفته وهي تضحك:

- لماذا؟ ومن طلب منك الرحيل؟

عاد إلى خلف السيارة وهو يبتسم:

- ظننتك أتيتِ لتطلبي مني الرحيل.

- لا يا أستاذ لكن سيدتي أرسلتني لأقول لك لا مانع لديها من وقوفك هنا كل يوم إن شئت.

شكرها وأعطاها تفاحتين قال لها: هذه مني... لكما أنت والسيدة.

شكرته ولم تقبل عرضه وعادت لتخبر سيدتها... لتعود ثانية إليه وتطلب منه كيسًا، وراحت تنتقي من التفاح أفضله كما يفعلن الأخريات، حتى امتلأ الكيس، وضعه على الميزان وحسب سعره ثم رفعه ووضع به حبتين إضافيتين زيادة... ناولته النقود.. قبَّلها ووضعها على جبينه دليل الشكر.

- يا له من تفاح لذيذ-قالت تخاطب أم علي- أليس كذلك؟

- بلى يا سيدتي إنه حقًّا لذيذ.

قالت وهي تتلذذ بطعم الفاكهة:

هل أُخبِرُكِ بشيء يا أم علي... أنا لم أعد أنزعج من صوت هذا القروي، على العكس صرت أجد بوجوده مؤنسًا وتدب الحياة في الشارع عندما يأتي. وعندما يرحل يعم سكون قاتل على الحي لا يشتته إلا صوت كلب جارتنا اليونانية، إنه

كلب مزعج. ويبدو لي أن هذا الفلاح لطيف على عكس ما توحي به هيئته المهلهلة ووجهه العبوس.. أليس كذلك؟

- فعلا كما أنه كريم النفس فقد شاهدته وهو يكيل ولا ينقص الميزان بل يزيد.

- حقا؟ هذا شيء جميل، لنرى غدًا ماذا سيجلب لنا.

في اليوم التالي ومع بزوغ الفجر استفاق سكان الحي على صوته كالعادة:

- على السكين يا بطيخ... بطيخ بطيخ.... على السكين يا بطيخ!!

ينبلج الباب الحديدي الأسود عن أم علي، تتقدم نحوه وهو منشغل بالبيع تحمل إبريقًا من الشاي، وكوبًا فاخرًا على صينية فضية أنيقة وقطعة من الكيك.

شكرها بحرارة وجلس يتناول الكيك مع الشاي بنهم بالغ، سألها عندما عادت لتأخذ الإبريق وقد فرغ من محتواه:

- هل سيدتك امرأة كبيرة في السن؟

فاجأها السؤال فردت مستغربة:

- لا إنها شابة.....لماذا تسأل؟

- لا لشيء.... لأنني لم أرَها وإن رأيتها ظننتها عجوزًا مقعدة لا تخرج من بيتها.

- نعم هي لا تخرج من بيتها، ولكنها ليست عجوزًا بل لأنها في فترة حداد على زوجها رحمة الله عليه.

مدعيًا الحزن قال:

- رحمة الله عليه، ومتى توفاه الله؟

- منذ شهرين.

هز رأسه، وقال

- لا حول ولا قوة إلا بالله... عظم الله أجركم... البركة بأولادها.

-ردت وقد ارتسمت علامات الحزن على محياها:

- منين يا حسرة...لا ولد ولا تلد، لكن البركة بأولاد جوزها ما قصروا معاها، أعطوها الفيلا والسيارة.... الله يرضى عليهم.

- سبحان الله... فعلا البيوت أسرار...

شكرها وناولها بطيخة ناضجة اختارها بعناية وقال:

- بلغي شكري لسيدتك.

ركب سيارته ورحل لكن ما زالت الصورة في ذهنه ظل يفكر بتلك السيدة.

في الداخل تسأل ندى خادمتها:

- أراك أطلت المكوث هناك، عمّاذا كنتما تتحدثان أنت والفاكهاني؟

- عنكِ يا سيدتي، تخيلي يظنك عجوزًا مقعدة لأنك لا تخرجين من المنزل.

قالت ضاحكة:

- وأنت بماذا أخبرته؟

- بكل شيء بأنك شابة وجميلة ولكنك في مرحلة الحداد.

- وماذا قال لك؟

- لم يقل شيئًا شكرني وقال بلغي سيدتك شكري على كرمها، ورفض أخذ ثمن البطيخة.

سرحت بفكرها إلى البعيد إلى أيام الجبل الأخضر، إلى مكتب المحاماة، إلى من غادروا إلى كندا والإمارات وقطر. كيف يسود هذا الصمت القاتل على هذه الفيلا بعد أن كانت تعج بالحياة! صوت الفاكهاني ينتشلها من وحدتها... تطرب

لسماعه وكأنها تسمع أغنية لأم كلثوم أو عبد الحليم حافظ، صارت تتمنى أن يطيل المكوث وأن لا يتوقف عن النداء.

ما الذي جذبها إلى هذا الأشعث الأغبر ذي الملابس المهلهلة عبوس الوجه؟ صوته الجهوري ...أم ضخامة جسمه؟ مهنته أم عيناه الجاحظتان؟ أسنانه السوداء بفعل التبغ أم لحيته غير الحليقة؟ أم وجدت به مؤنسًا لوحدتها حين يكسر جدار الصمت في هذا الحي.؟! لا تدري لكنها باتت ترقبه كل صباح وبشوق بالغ. ما إن تسمع صوته ينادي حتى تهرول مسرعة إلى النافذة، ترقبه من خلف زجاجها القاتم ثم ترسل إبريقًا من الشاي وقطعة من الكيك أو الحلوى مع أم علي...

يوم بعد يوم تطور الأمر وصارت ترسل "سندوتش" أو فطيرة أو قطعة من البيتزا.

ذات يوم خرجت له الخادمة وقالت:

- سيدتي تدعوك لتناول الإفطار هل لديك مانع؟

لم يكن يتوقع عرضًا كهذا، قطب حاجبيه ونظر بوجه المرأة المبتسمة وهو يبحث عن كلمات يرد بها، ولكن لم يسعفه علمه الضيق وقاموس لغته الضئيل بإيجاد ما يقول، فاكتفى بهز رأسه دليل الموافقة.

قالت: تفضل.

مشت تتقدمه وفتحت الباب الحديدي المفضي إلى ساحة الفيلا وراح يتأمل المنظر مشدوها. على حافة بركة السباحة منضدة أنيقة من الخيزران وضعت في وسط ساحة يحيط بها أربعة مقاعد من الخيزران على أرض مزروعة بالنجيل الذي نما بشكل عشوائي ملفت؛ نظرًا لعدم وجود من يجزّه.

وعلى الأطراف أشجار فاكهة نمت بعشوائية، وشجرة مشمش غير مثمرة ترخي أغصانها المتهدلة غير المشذبة وعلى أطراف الساحة ورود حولية، وأشجار زينة مختلفة ألوانها ذبلت زهورها، يوحي منظرها بالإهمال وقلة العناية.

أشارت إليه الخادمة بالجلوس فجلس سألها عن اسمها فقالت:

- أنا أم علي، وأنت؟

-أنا ممدوح الفاكهاني...والسيدة... ما اسمها؟

- تقصد السيدة ندى؟

- ندى... يا له من اسم جميل!!

استأذنته وتوجهت إلى داخل المنزل لتعود حاملة طبقا به مما لذ وطاب. وضعته أمامه على المنضدة وعادت لتحضر الشاي. نظر حوله وهو يجلس وحيدًا وراح يتأمل ما حوله ولا هم له إلا مشاهدة تلك السيدة المختفية " يا ترى كيف هي جميلة أم قبيحة؟! وديعة أم شرسة؟!"

مر شريط الذكريات على مخيلته تذكر رحاب، وسوسن، ونجوى، وبائعات الهوى في بيروت وتونس.

تذكر عبين وجواهر النورية، والليالي الحمراء التي كان يقضيها بأحضانها في ذلك الخربوش تحت مرأى ومسمع أبيها وهو يسمع أنينها ويطلب منها خفض صوتها.

تذكر الحرب والسفينة التي خرج بها من بيروت والرفاق الذين استشهدوا.

تذكر كل بيت أو متجر، أو سيارة سرقها وكل فتنة زرعها.

تذكر من قتل ومن قُتل بسببه، ونظر إلى نفسه وقد بدأ الشيب يتسلل إلى شعر رأسه.

وراح يفكر في أمر سكان هذا القصر " وكم يملكون من المال وكيف السبيل للوصول إليه.... سرقة؟ لا لا ما عادت بي القوة والرغبة للسرقة؟

وبينما هو غارق في التفكير لاحت له فكرة " سأتزوج من أم علي ونعيش معًا في هذا القصر نأكل ونشرب ونعيش بسعادة وهناء.

في اليوم التالي عاد ومعه مقص دوالي ومنشار ومشط زراعي، وكيس به لمبات مختلفة الأحجام. وكالمعتاد مكث برهة من الزمن حتى باع ما كانت النسوة قد أوصينه عليه من الخضار والفواكه وغير ذلك من المواد التموينية التي كان يبيعها أحيانًا حسب الطلب.

عندما رأى أم علي قادمة بإبريق الشاي قال لها:

- ضعيه في الداخل.

وأخرج أدواته من السيارة وتوجه نحو الحديقة تاركًا إياها تغرق في ذهولها.

أول ما ابتدأ به تركيب اللمبات باستبدال التالف منها ثم راح يقلم الأشجار ويزيل الأعشاب وانتزع تلك الورود الحولية من جذورها ونفل الأحواض نفلًا بفأسه، ثم راح يجمع كل تلك المخلفات بأكياس كبيرة ويضعها في صندوق القمامة. في حين كانت عينا السيدة ترقبانه بإعجاب بالغ من خلف ستارتها وقد راق لها ما يفعل.

فرغت أم علي من إعداد السفرة. تناول طعامه وقد أتى على ما في الإبريق من الشاي كالعادة. نهض من مكانه ومسح فمه بكم قميصه وخرج. أغلق الباب خلفه وركب سيارته ورحل إلى مكان آخر ينادي على ما تبقى لديه من بضاعة.

في اليوم التالي أحضر معه أكياسًا من الأسمدة وأشتالًا من الورود الغضة وزرعها في الأحواض وسقاها بالماء. وقبل أن يغادر لاحظ أن السيارة الجاثمة في

المرآب لا تتحرك من مكانها، وقد غمرها الغبار والتراب حتى اختفت ملامحها، فقام بتنظيفها وحاول جاهدًا تشغيلها دون جدوى.

- منذ متى لم يتم تشغيلها؟ سأل أم علي.

- منذ مرض المرحوم لم يستعملها أحد.

قطب حاجبيه مستغربًا وقال:

- لماذا؟

قالت وهي تضحك:

- ومن سيقودها السيدة لا تتقن السياقة. وتنوي بيعها بعد انتهاء العدة.

كانت ما زالت تراقبه من خلف ستارتها وعندما غادر نزلت من عليائها تتفقد التغييرات التي حصلت. لقد عادت الحديقة والفيلا لسابق عهدهما تنبض بالحياة تتلألأ بها الأنوار، وتزهو الحديقة بالورود.

وضعت له مبلغا من النقود في مغلف وأرسلتها مع أم علي لكنه أبى. يا لعزة النفس! اللص ممدوح يرفض مكافأة مادية لأول مرة في حياته، إلى ماذا يتطلع هذا الوغد؟

قال: أعيديها إلى السيدة وأخبريها أنني قمت بهذا العمل لوجه الله.

ولكن تحت إصرارها قال: إذن هي مني لك يا أم علي.

شكرته وقالت:

- لا ... لا يجوز سأعيدها للسيدة. قالت ذلك واستدارت متجهة إلى الداخل فاستوقفها:

- حسنا قولي لي يا أم علي، هل لديك أولاد؟

توقفت ثم استدارت نحوه وقالت:

- نعم والحمد لله، عندي خولة وزينب وقد تزوجتا وانتقلتا مع أزواجهما إلى الخليج.

تجهم وجهه وحار بأمرها وقال:

- وأين زوجك؟

- زوجي يعيش مع زوجته الثانية في أمريكا.

قال وقد وجد فسحة أمل:

- أما فكرتِ بالزواج؟

ضحكت بأعلى صوتها وقالت:

- معاذ الله! ولمَ الزواج وأنا لست مطلقة، وزوجي يتردد على البلاد بين الحين والآخر.

ثم قالت: وأنت هل لديك أولاد؟

هز رأسه يمنة ويسرة بمعنى لا، فقالت: وأين تسكن أنت وزوجتك.

رد متأسيًا:

- قلت لك لست متزوجًا، ولا يوجد لدي أبناء ولم أتزوج من قبل، ولدت عازبًا وعشت عازبًا، وعلى ما يبدو أنني سأموت عازبًا.

- ولماذا يا مصخم لماذا لم تتزوج حتى هذا العمر؟

ضحك وقال:

- لم أجد بنت الحلال التي تقبل بي، انظري إلى هذا الوجه وهذا الشكل... وهذا الفقر.... من هي قليلة الحظ التي ستقبل بي زوجًا لها؟!

- لا لا ما شا لله عليك... خليها علي... أنا رايحه ألاقيلك بنت الحلال.

- إيد الله وأيدك يا أم علي.

انقطع أمله وباءت مخططاته كلها بالفشل ونفض يديه من أم علي.

ذات يوم جاء كالعادة فوجد الشارع مكتظا بالسيارات وواحدة منها توقفت أمام الجراج، وقف بجانبها وتأملها... خطر في باله أن غريبًا ضاقت به الطرقات ولم يجد مكانًا يركن به سيارته فتوقف هنا. وبالطبع أحس بالمسؤولية سيبحث عنه وسينتظره حتى يظهر وسوف يمنعه ويطرده.... أو ينبهه بأن لا يقف هنا مرة ثانية. لكنه سمع هرجًا ومرجًا وأصواتًا تنبعث من داخل الفيلا ومن الحديقة بالتحديد، ظن أنهم عمال صيانة، كان قد طلب منهم المجيء لتنظيف بركة السباحة وعمل الصيانة اللازمة لها.

كان الباب مفتوحًا، تناول مقصه ومنشاره وولج إلى الداخل.... فاجأه المنظر... توقف مشدوها عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام مجموعة من الصبايا، ورجل مقعد على كرسي متحرك يتحلقون حول تلك المنضدة المثبتة على بساط النجيل. تراجع إلى الوراء وخرج منسحبا يشعر بالخجل لأنه دخل دون استئذان. لحقت به أم علي واستوقفته وطلبت منه الدخول فدخل. وعلى الفور راح يمارس عمله في الحديقة بتشذيب الأشجار وسقايتها ريثما يحضر عمال الصيانة.

ظل واقفا معهم ينتبه لكل صغيرة وكبيرة حتى فهم سر الصنعة سيقوم هو من الآن فصاعدًا بهذه الأعمال كلها. دفع لهم أجورهم وشيعهم حتى خرجوا وخرج معهم مغلقًا الباب خلفه وتوجه إلى حيث يبيع بضاعته.

- من هذا الرجل يا ندى؟

سألوها.

ردت أم علي: هذا ممدوح الفاكهاني، فلاح من عجلون جئنا به ليعتني بالحديقة.... انظروا....

وأشارت يبديها إلى الأشجار وأحواض الزينة كيف صارت جنة ما شاء الله.

- فعلا إنه عمل متقن بيد خبير. هل قمتم بتكريمه؟

- حالا.... سنقدم له الشاي والعصير.

وقال الأب مخاطبًا ابنته ندى التي انضمت إليهم بعدما خرج:

- هل دفع أجرة العمال من جيبه الخاص؟

ردت بحياء: نعم لكن.

لم يدعها تكمل قاطعها قائلا:

-لا تنسي يا ابنتي أن تعطيه أجره علاوة على ما دفع للعمال.... أعط الأجير أجره قبل جفاف عرقه.

تدخلت أم علي وبصوتها الرنان كالعادة.

- رفض قال: إنه يعمل ذلك لوجه الله ولا يريد عليه أجرًا.

- حسنا أعطوه الذي دفعه وبعض الهدايا لزوجته وعياله إذن.

- يا بويا الله يهديك هذا الزلمه لا ولد ولا تلد، وما عنده مره عزابي وعايش لحالة ساكن بجبل الحسين. لكن لا تقلق سوف نعطيه كل قرش دفعه لا تقلق عمي الحاج.

وتمضي الأيام وتعتاد السيدة على وجوده كل يوم وأعطته مفتاحًا للباب الحديدي.

في أحد الأيام جاء وبرفقته ميكانيكي، يفحص السيارة فوجد المشكلة في البطارية وعلى الفور قام بشراء واحدة جديدة وأصبح كل شيء على ما يرام،

أخرج السيارة من المرآب إلى المغسلة وتفقد الدواليب وغير لها الزيوت اللازمة، وتجول بها في الحي ثم أعادها مكانها.

كان يرفض المال ويقول أنا أفعل ذلك حبًّا في عمل الخير وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أنتم أكرمتموني وهذا ردٌ للجميل.

ذات يوم برزت له أم علي وبيدها شنطة قالت له:

- هذه الهدية لك من سيدتي وترجوك ألَّا تردها.

شكرها وتناولها من يدها، ودون أن يعرف ما هي وضعها على المقعد بجانبه وواصل حديثه مع أم علي، راح يسألها عن أمور شتى ذات علاقة بالسيدة ندى... ومع اقتراب الرحيل كالعادة صندوق من الفواكه التي تحبها للسيدة بالمجان.

كان بشوق بالغ ليرى تلك الهدية... تبسم واستدرك ما ترمي إليه تلك المرأة... معجون وفرشاة أسنان، ومعجون وفرشاة حلاقة، ومزيل عرق، ومنشفة صغيرة، وقميص وحذاء رياضي، وزوجان من الجوارب.

في المساء توجه إلى الحلاق وقص شعره الأشعث، وحلق لحيته، وقص أظافره ثم عاد إلى البيت واغتسل وغسل أسنانه... منذ ولادته لم يغسل أسنانه التي اسودت من تراكم التبغ والنيكوتين فوقها إلا عندما التقى بسوسن ونجوى، وها هي عادت سوداء أسوأ من ذي قبل.

توقف أمام المرآة ونظر لنفسه فنكرها؟ مستحيل! هل هذا أنا ممدوح الفاكهاني؟! أين أنت يا ندى، تعالي شوفيني أراهن أنك لن تعرفيني، إذا أنا لم أعرف نفسي. ويطلق ضحكة عالية في الصمت البهيم.

بات ليلته يساهر النجوم يرجو الليل أن ينجلي ليذهب إلى ذلك الحي. يومها لم يحضر معه الفاكهة جاء البيكب فارغًا، وتفرغ الرجل للعناية بالحديقة

والسيارة.

والسيدة باتت تحلم كيف سيكون منظره وهل يا ترى فهم ذلك الغجري المهلهل مغزى الهدية. ترقب من خلف زجاجها المعتم وتنظر إلى ساعتها...إنها تتحرك ببطء شديد. هي بانتظاره على أحر من الجمر، أيعقل أن يكون هذا القبيح هو رجل أحلامها؟!

وبينما هي في غمرة الشرود يتوقف البيكب أمام المنزل، وها هو قادم باتت تعرف صوت هدير المحرك.... دقائق حتى سمعت صرير الباب ينفتح ويدخل منه.

لم تعرفه وظنت أنه شخص آخر، ظلت تتابعه باهتمام بالغ حتى استراح لتناول الإفطار كالعادة. وقفت أم علي منبهرة أمامه قالت:

- ما شاء الله عليك والله ما عرفناك يا زلمه!

شكرها وراح يتابع شرب كوب الشاي، قالت:

- سيدتي تسألك، كم تجني في الشهر من بيع الفاكهة والخضار.

أدرك المغزى، صمت قليلًا ثم فكر ونظر وقال وهو يحك ذقنه:

- حسب السوق لكن في الغالب ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة دينار.

- سيدتي تعرض عليك أن تترك هذه المهنة وتعمل لدينا وبزيادة ١٠٠ دينار أي بخمسمائة دينار فماذا تقول؟

فكر قليلا ثم قال:

- وما هي الوظيفة؟

-لا أدري لكن إن كنت جادًّا في الأمر سوف تتحدث معك السيدة بالتفاصيل.

ألجَمَهُ العرض وحكّ رأسه بأربعة أصابع... وقال دعيني أفكر بالأمر.

اعتدل في جلسته وانحنى على المنضدة أطفأ سيجارته قبل أن تصل للمنتصف، ثم عاد للوضع الذي كان به وقال:

- ما رأيك أنت؟ بماذا أجيبها؟

شعر خليل بالغرور واعتدل في جلسته ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة وراح ينفث دخانها بوجه ممدوح وقال:

- والله ونقشت معك يا ممدوح، يعني هاي بدها تفكير يا غبي؟ طبعًا وافق وشو ما كان الشغل أحسن لك من اللف والدوران بالحارات.

*****

فصل ٩

ندى شابة في أواخر العقد الثالث من العمر، قصيرة القامة كحلاء العينين مكتنزة الجسم، لا هي بالسمينة ولا هي بالنحيفة... بوجهها بياض تحسبه ضياء الشمس، تنبلج شفتاها عن أسنانٍ بيضاءٍ كاللؤلؤ المكنون عندما تبتسم، مما يضفي عليها جمالا أخاذًا...وشعرها الأشقر الناعم كان يصل إلى أسفل ظهرها وعندما تفرده وتلبس حذاءً ذا كعبٍ عالٍ تبدو ساحرة للأنظار يحبها كل من يراها لخفة دمها وابتسامتها التي لا تفارق شفتيها. تسود أجواء الفرح والسرور أينما حلت وارتحلت. تنحدر من أسرة فقيرة مكونة من أب وأم وست بنات وولد وكانت هي بكر والديها. تقاعد والدها موسى القشاش (أبو محمد) من الجيش بعد إصابته بعيار ناري من إحدى خلايا الإرهاب في أثناء معركة حصلت بين الطرفين فأصيب بالشلل النصفي ألزمه الفراش، تكرم عليه قائد الجيش ورفعه من رتبة رقيب إلى رقيب أول، ولم يكن له مصدر مادي سوى معاشه التقاعدي وشقة صغيرة مؤجرة.

قررت ندى أن تساهم في إعالة عائلتها فتعلمت الخياطة وراحت تخيط الثياب لنساء الحي وهن معدودات على الأصابع، ولكن الأحوال لم تجرِ بما تشتهي السفن حينما حلت الألبسة الجاهزة محل التفصيل، قل العرض فقل الدخل وأصبحت المهنة لا تغني ولا تسمن من جوع.

نصحتها إحدى زبائنها أن تتعلم مهنة الكوافيرة ولم تكذب خبرًا فتوجهت من توها إلى أحد معاهد التعليم المهني وخلال ثلاثة أشهر كانت قد حصلت على

شهادة في هذه المهنة، ولم تجد صعوبة في إيجاد عمل بأحد صالونات التجميل. كانت تتقاضى مائتي دينار في الشهر ولا يخلو الأمر من البخشيش أو ما يسمى بالإكراميات أحيانًا.

في عمان وفي وسط البلد تحديدًا، عمارة من أربعة طوابق يشغل أحدها محام بارع ذو شهرة واسعة في أوساط القضاء يدعى شفيق صوان. توفيت زوجته منذ عشرة أعوام وتركته مع ابنتين وولد، كانت الكبرى رشا قد تزوجت ورحلت مع زوجها إلى كندا، والولد ربيع أنهى تعليمه وسافر إلى الخليج ليعمل مهندسًا في إحدى الشركات الأجنبية هناك، وبقي الرجل مع ابنته الصغرى ريما التي كانت ما تزال على مقاعد الدراسة في الجامعة.

تفرغ الرجل لرعايتها وكان محبًّا لها، لا يرد لها طلبًا محاولا أن يعوضها عمَّا فقدته من حنان أمها فكان لها الأب والأم ولأخ وكل شيء.

كبرت الفتاة وتخرجت من الجامعة وعينت معلمة في سلك التربية. وصار البيت خاويًا، سيما أن الفتاة كان لها عالمها الخاص مع صديقاتها وكان الرجل لا يشعر بالملل نتيجة أعماله الكثيرة. كان يقضي جل وقته في المحكمة أو في المكتب فلم يكن الزواج ذا أهمية بالنسبة له.

يلح عليه أقاربه وأصدقاؤه بالزواج، وأحيانا يزكون له فلانة بنت فلان ولم يكن يعيرهم أدنى اهتمام، كان يقول لن يحصل ذلك قبل أن تتزوج ريما.

في كل صيف تبتهج عمان بعودة أبنائها المغتربين من شتى بقاع الأرض، فتدب الحركة بكل مكان، وتزدهر التجارة، وينفتح موسم الأعراس.

من بين هؤلاء القادمين كانت رشا وأخوها ربيع حلوا ضيوفًا على بيت أبيهم فدبت بأركانه الحياة وعمت الفرحة كل أفراد العائلة.

في هذا الصيف سيتزوج ربيع، والعروس على ما يبدو جاهزة فهو يعرفها ويعرف أهلها حق المعرفة. تم تحديد يوم للذهاب إلى بيت أبيها لطلب يدها.

جمع شفيق ثلة من أقاربه وأصدقائه وتوجهوا إلى بيت الفتاة وهناك تمت الموافقة على طلبهم، وتم عقد القران وتلبيس الدبل، وتحدد يوم لإقامة حفل الزواج.

هذا هو الموسم الذهبي لصالونات التجميل يزداد الطلب وترتفع الأسعار وتهل الإكراميات. رشا وريما كانتا على موعد مع إحدى تلك الصالونات وعلى الهاتف تم تحديد موعد مسبقا وطبعًا ستكون العروس موجودة وواحدة أو اثنتان من أخواتها برفقتها.

ريما كانت من نصيب الكوافيرة ندى، وقد أعجبت بها وبخفة يدها وجمالها فراحت تستجوبها حتى عرفت تفاصيل حياتها كلها، ولأن الصالون كان محجوزًا لهم فقط ذلك اليوم فقد حصلت ألفة بينها وبين رشا أيضًا.

انتهت... أعمال المكياج والمنيكير والبديكير وكل شيء كان بغاية الإتقان والروعة، وخرجن من الصالون باتجاه الفندق حيث سيقام الحفل، وكانت تسريحة ريما مميزة وفاقت العروس بجمالها وقوامها الرشيق فلفتت انتباه كل الصبايا... رحن يسألنها عن اسم الصالون والكوافيرة. فكانت تشعر بالتميز والفخر.

في البيت يدور حديث هامس بين الأختين ريما ورشا:

قالت ريما: ما رأيك بالكوافيرة ندى؟

- إنها رائعة حقا ويدها خفيفة وماهرة حقا.

- أنا لا أقصد هذا... أقصد ما رأيك بها زوجة لأبي؟

فغرت رشا فاها ووضعت يدها لتخفي دهشتها.

فتابعت ريما: ما بك؟ أليست مناسبة؟

- على العكس أقسم لك أن هذا ما كنت أفكر به، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- أبي هل سيوافق؟ وإن وافق فهل تضمنين موافقة الصبية إنها ما تزال شابة صغيرة وأبي رجل خمسيني؟

- حقا... فما العمل إذن؟

فكرت رشا قليلًا ثم حكت رأسها ودعكت بباطن يدها أنفها: دعي أمر أبي لي وأنت توكلي بأمر البنت، فهي كانت ودودة جدًّا معك. تواصلي معها وإن اقتضى الأمر دعينا ندعوها لزيارتنا أو زوريها أنت.

أبرمت المؤامرة وراحت البنتان تعملان على تنفيذها.

في بداية الأمر رفض كلاهما - شفيق وندى-، وتحت إصرار ريما حين حلفت بأغلظ الأيمان لأبيها أنها لن تتزوج قبله، وظلت تزن عليه حتى لان وصمت.

بقي أمر ندى فقد باءت كل المحاولات بإقناعها بالفشل، فاستدعى الأمر توسيط مديرتها بمحاولة يائسة قالت لها:

- لا ترفضي دون أن تعرفي الرجل، يقولون إنه شخص راق ومثقف وله صيت وشهره اجلسي معه وحاوريه فربما تغيرين رأيك..

صمتت تحت كل هذه الضغوط وقالت:

- حسنًا دعيني أخبر أهلي بالأمر أولًا، ثم بعدها سنقرر ماذا سنفعل.

طرحت الأمر على أهلها فرفض جميعهم؛ وذلك لأن لديه أولادًا كبارًا، وهو أيضًا كبير في السن، وانتهى النقاش في الأمر.

بعد يومين قامت ريما ورشا بزيارتها في بيتها وتعرفتا على أخواتها وطلبتا منها رد الزيارة، إلا أنها اعتذرت ولم تلبِّ دعوتهما. قالتا لها:

- لا تتسرعي بالرد، فكري بالموضوع على أقل من مهلك ونحن ننتظر منك ردًّا.

مضى أسبوع ولم يأت رد فتكلمت معها ريما بالهاتف وطلبت منها ردًّا قبل أن يسافر المغتربون. لكن ندى لم تعطِ جوابًا وراحت تماطل في الرد، فقررت أن تذهب ذات يوم إلى مكتبه بحجة رفع دعوى على مستأجر لديهم امتنع عن دفع الإيجار، وهذه حقيقة وليس تذرعًا، فهناك وفي الطابق السفلي من منزلهم مستأجر يماطل في دفع الأجرة وتمضي أشهر وهو غير مكترث بالأمر، وباءت كل المفاوضات معه بالفشل.

استقلت الحافلة المتجهة إلى وسط البلد، ترجلت وراحت تسأل عن مكتب الأستاذ شفيق المحامي، وكان على درجة من الشهرة بحيث كل من سألتهم وصفوا لها المكان.

دخلت من مدخل العمارة وعلى الجانب الأيمن للمصعد الكهربائي عُلّقت لافتة مكتوب عليها رقم الطابق وما يوجد فيه من مكاتب.

قرأت لافتة مكتوب عليها مكتب شفيق صوان المحامي الطابق رقم ٢، استقلت المصعد وما إن توقف وفتح الباب حتى خرجت منه وشاهدت اللافتة التي تحمل اسمه، وكان الباب مفتوحًا فدخلت مسلمة، رد عليها التحية شابٌ كان يقف على مقربة من المدخل يحمل صينية مليئة بأكواب الشاي وفناجين القهوة والماء يدور بها على الموظفين والضيوف، وفي الجانب الأيمن كاونتر زجاجي أنيق الصنعة تجلس خلفه فتاة في مقتبل العمر، قابلتها بابتسامة وتحية

وأشارت إليها بالجلوس فجلست.

- أليس هنا مكتب المحامي شفيق صوان؟

- نعم.. هو بعينه.

- هل أستطيع مقابلته؟

- مع الأسف... إنه في المحكمة الآن، ولكن قاربت وقت عودته، هل لي أن أخدمك؟

- أريد أن أوكله بقضية.

- وما هي تلك القضية؟

قالت:

- إخلاء عقار.

تبسمت السكرتيرة وقالت:

- يؤسفني يا سيدتي أن أبلغك بأن الأستاذ شفيق لا يترافع بمثل هذه القضايا، لكن أعطني ما لديك من الوثائق وسنقوم بتوكيل محام آخر ممن يعملون معنا وكلهم رائعون وأصحاب خبرات واسعة.

كادت أن توافق وتناولها الوثائق، لكنها ترددت وتذكرت أن الهدف الأساسي هو رؤية ذلك الرجل، اعتذرت منها بكياسة وقالت:

- كلكم خير وبركة، لكنني أريد الأستاذ شفيق بالذات وإلا فلا.

- كما تشائين يا آنسة...على كل حال سوف أخبره بمجيئك، هل لديك رقم هاتف؟

- نعم لدي.

سجلت رقم هاتفها على ورقة الملاحظات وخرجت مودعة بابتسامة.

توقفت أمام المصعد بانتظار النزول، وانفتح الباب ليخرج منه ثلاثة رجال يحملون حقائب يدوية وملفات، تمعنت في وجوههم وتابعتهم بنظراتها حتى دخلوا إلى المكتب لم تستطع تحديد أيهم شفيق لكنها لمحت واحدًا منهم أطال التحديق بها متفحصًا... سيما أنه قبل أن يدخل إلى مكتبه حانت منه التفاتة عفوية فرآها ما تزال واقفة تتابعهم بنظراتها.

سأل السكرتيرة عنها:

- من هذه الفتاة؟

- إنها زبونة تريد أن تشتكي مستأجرًا تخلف عن دفع الإيجار وترغب بتوكيل سعادتك شخصيًّا.

- وماذا قلتِ لها؟

- قلت لها بأن سعادتك لا ترافع بقضايا الإيجار ولكن يمكننا أن نوكل أحد المحامين لدينا بالمهمة فرفضت وانصرفت.

فكر مليًّا ثم قال:

- الحقي بها فربما أنها ما زالت بالقرب.

خرجت السكرتيرة مسرعة تجري فشاهدتها تهمُّ بالركوب في حافلة كانت قد توقفت من أجلها، نادتها وجرت خلفها لكنها لم تسمعها فعادت أدراجها إلى المقر.

قالت:

- لم أستطع اللحاق بها... لكنها تركت رقم هاتفها، إن شئت سأطلبها لك.

تهلل وجهه بشرًا وبدت السعادة واضحة على محياه وقال:

- حقا؟ اتصلي بها ودعيها تأتي؟

- هذا تلفون منزل يا أستاذ وربما أنها لم تصل بعد إلى البيت، هل ننتظر قليلا؟

- حسنا لا بأس.

مضت ساعة من الوقت فعاودت الاتصال بها، رد عليها أحد ما فسألته:

- هل الآنسة ندى موجودة؟

- نعم موجودة، من نقول لها؟

- أنا السكرتيرة سميرة من مكتب الأستاذ شفيق صوان المحامي.

لحظات وتحدثت معها وأخبرتها أن الأستاذ شفيق شاهدها وهي خارجة ويريد مقابلتها غدًا صباحًا.

لم تستطع إخفاء ابتسامتها، وشعرت بشيء من الارتياح.

في اليوم التالي استيقظت مبكرة وارتدت أجمل ما لديها من الثياب وطلبت إذنا من مكان عملها وتوجهت إلى مواقف الحافلات.

ضجيج... صراخ... زوامير... أشبه بخلية من النحل مع انطلاقة السيارات والحافلات لتوصيل الطلبة إلى مدارسهم، وذهاب الموظفين إلى أماكن عملهم، ناهيك عن أصوات سيارات بيع الغاز وهي تضع موسيقى منفرة تصيب الإنسان بالغثيان.

في هذا المجمع تعلو أصوات مساعدي السائقين كلّ ينادي للوجهة التي سينطلق إليها، سألها أحدهم:

- صويلح؟

أجابت بالنفي وقالت: لا، وسط البلد.

- هناك يا أختي.

قال لها وهو يشير بيده: هل تشاهدين ذلك الطابور؟

هزت رأسها وتوجهت إلى هناك منتظرة دورها، يا له من طابور طويل، لكن المشكلة ليست بطول الطابور، المشكلة بمن يتعدون دورهم ويبدأون بالتزاحم عندما تأتي الحافلة، شعرت بالاشمئزاز من هذه التصرفات فقررت أن تأخذ "تاكسي" ولو أنه مكلف لكن فيه حفظٌ للكرامة على الأقل.

كان الطريق مزدحمًا جدًّا ناهيك عن التوقف المتكرر على إشارات المرور، استغرقت حوالي ساعة حتى وصلت. استقبلتها السكرتيرة سميرة بوجه سمح وبابتسامتها اللطيفة المعهودة وأشارت إليها بالجلوس فجلست.

- ماذا تشربين؟

أجابت بخجلٍ واضحٍ:

- شكرًا، لا شيء.

- لا... لا يجوز، يجب أن تشربي شيئًا.

- إذن فليكن كوبًا من الشاي سكر وسط.

تركتها تحتسي فنجان الشاي ودخلت إلى مكتب المحامي وأخبرته بوصولها، قال لها: دعيها تدخل.

ما إن فرغت حتى اقتادتها إليه.. دخلت طارحة التحية فرد عليها بمثلها وهو يرفع رأسه عن ملف كان يتفحصه، ورفع نظارته السميكة عن عينيه ووضعها على منتصف رأسه الأصلع وأشار إليها بالجلوس.... فجلست. قال:

- أخبرتني سميرة بأنك تريدينني أن أتوكل بقضية لك. فما هي تلك القضية؟

راحت تشرح له وهي تدقق في كل تفاصيله... أسلوبه في الحديث، ونظراته، وهندامه، وربطة عنقه، وما يعلق على جدران مكتبه، والكتب المتراكمة كالهرم

فوق الطاولة أمامه، والمكتبة الزاخرة بكل أصناف الكتب والملفات.

استمع لها بإصغاء حتى أفرغت كل ما في جعبتها بكل أريحية، وعندما توقفت عن الحديث قال:

- هذه قضية بسيطة، لماذا تريدينني أنا بالذات أن أتوكل بها في حين لدينا هنا محامون متخصصون وبارعون في قضايا العقارات؟ وكلهم رائعون.

قالت: بصراحة يا أستاذ أنت رجل مشهور ومسموعيتك تملأ البلد، وأنا لا أثق إلا بك، أرجوك أن تقبل.

تمعن في وجه الفتاة وبهره جمال وجهها.. وراح يفكر ثم قال:

- حسنًا، هل لديك عقود إيجار وباسمك شخصيًّا؟

- نعم يوجد عقود لكنها ليست باسمي، هي باسم والدي وهو رجل مقعد لا يستطيع الحركة.

- ولكن يجب أن يوقع هو شخصيًّا على التوكيل.

تلبكت وراحت تلتفت يمينًا وشمالًا...

شعر بحيرتها فاستدرك:

- أمامك حلان: الأول هو أن يحضر الشخص صاحب العلاقة، أو أن يكتب لك توكيلًا عامًا، وأنت بدورك تقومين بتوكيلي بالمهمة.

صمتت هنيهة ثم قالت: أمران أحلاهما مر.

أدرك بذكائه حيرتها فسألها: أي تسكنين؟

قالت والحيرة ترتسم على وجهها:

- في الجبل الأخضر.

- حسنا سأرسل معك السائق ومعه أوراق التوكيل، يوقع عليها والدك

وتعطيه العقود، فما رأيك؟

لم تعجبها الفكرة حكت جبينها بطرف إصبعها الناعم، وقالت في قرارة نفسها "جاءتك الفرصة على طبق من ذهب يا ندى، فلا تضيعيها، هي فرصة ليشاهد واقعك وليشاهده كل أفراد الأسرة ".

أيقظها من شرودها عندما أعاد عليها القول:

- ها... ماذا قلت يا آنسة؟

- قلت... ولماذا لا تأتي سعادتك أنت وتشرب قهوتنا، ولو أننا فقراء ونعيش في حي فقير، لكننا كرماء نكرم الضيف وستجد بعون الله ما يسرك.

صمت برهة... أزاح نظارته عن رأسه ووضع القلم من يده على الملف واعتدل في جلسته على كرسيه الذي انحنى به إلى الخلف وقال:

- والله إنها فكرة جيدة، ولكن أنا اليوم مشغول لدي مرافعة في المحكمة سأحضر غدًا مساءً بعون الله، اكتبي لي العنوان هنا.

- ولكن هل لك أن تخبرني ما هي الأتعاب وما هي المصاريف المطلوبة؟

- لا تشغلي بالك في الأمر، دعينا نستلم القضية أولا والباقي لا أهمية له.

- خرجت مسرورة تغمرها السعادة، عندما رأت سميرة تبسمت وغمزت لها بطرف عينها... نعم لقد وافق.

شيعها حتى خرجت من المكتب، وهي لا تخفي دهشتها، سألتها باستغراب:

- ماذا فعلتِ وكيف اقتنع بذلك؟

عادت ندى إلى البيت وأخبرت والدتها وأباها بما جرى، وأسرّت بسرها إلى أخواتها، بأن القادم هو الشخص الذي طلبني للزواج والد رشا وريما، واحدة فغرت فاها، والأخرى عضت على شفتيها، وثالثة بحلقت عيونها يا لك من داهية

يا ندى! كيف استطعت عمل ذلك؟! وتتعالى الضحكات.

بصعوبة بالغة استطاع الوصول إلى بيتهم فالشوارع ضيقة ومزدحمة، يتوقف أمام كل دكان ليسأل حتى شاهد صبيًّا يقف أمام بوابة صغيرة فسأله، أجابه الصبي بأنه من أقاربهم وقال:

- هل تسمح لي بالركوب معك حتى أدلك على بيتهم؟

نزل الصبي مسرعا ودخل من البوابة وهو ينادي فردت عليه ندى فأخبرها بأن هناك رجلًا يسأل عنهم.

كانت منتظرة قدومه؛ لبست من أجمل ما لديها واستقبلته أحسن استقبال.

لفت انتباهه تلك القواوير المصطفة على الجانبين تزخر بنباتات الزينة والورود الموسمية، وفي الحديقة بعض الشجيرات وعلى رأسها الورد الجوري بألوانه الأحمر، والأبيض، والزهر. وما إن وصل إلى الباب حتى كان الجميع يقفون مرحبين به وعلى رأسهم أخوها محمد.

– تفضل يا أستاذ، يا أهلًا وسهلًا.

على سجادة متوسطة الحجم وضعت ستة مقاعد كنب بلون أزرق بَهَتَ لونها من تعرضه للشمس، يتوسطها طرابيزة متوسطة الحجم تحيط بها أربعة صغار ثبتت في جهاتها الأربعة، ووضعت عليها مزهرية بها ورود بلاستيكي وشمعدان. وفي الركن الأيمن تقبع بوفيه أو ما يسمى بالنملية ذات الدرف الزجاجية الشفافة التي تسمح للناظر أن يرى ما بداخلها من كؤوس وأوانٍ.

وعلى الجدار ثبتت صورة للأب وهو يصافح الملك حسين حين قلده وسام الشجاعة، وصورة للجد وهو بلباسه التقليدي يتمنطق بحزام ومسدس.

ما إن جلس حتى جاء الأب يدفعونه على كرسي متحرك، نهض شفيق من مكانه وتوجه إلى الرجل، وصافحه وعانقه وراح يسأل عن أحواله.

لاحظ اندهاشه واستغرابه عندما طلب منه توقيعه على توكيل يبدو أنه لا يعرف بما طلبته ندى من المحامي، وعندما أخبروه بالأمر استشاط غضبًا ورفض التوقيع.

سأله المحامي لماذا؟

قال:

- يا أستاذ شفيق، أنت محامٍ مشهور ولك خبرة طويلة في هذا المجال، وأنت تعرف أن مثل هذه القضايا تأخذ وقتًا طويلًا للبت فيها، ناهيك عن الرسوم الباهظة ونفقات المحاماة ونحن لا نخفيك سرًّا لا يوجد لدينا إمكانيات تسمح بذلك.

قاطعته ندى:

- أبي أرجوك لا تحمل همًّا ... أنا سأتكفل بكل هذه المصاريف.

وهنا تدخل شفيق وقال:

- بالنسبة للرسوم وأتعاب المحاماة فسوف يتحملها المشتكى عليه وليست عليكم وحتى حين اتخاذ القرار مكتبنا سيتحمل كل هذه المصاريف ولا نريد منكم فلسًا أحمر.

شفيق كان مترددا بتولي القضية لكن عندما شاهد الرجل وتعرف على العائلة قال لهم:

- من الآن هذه ليست قضيتكم بل قضيتي أنا، هيا توكل على الله يا حاج ووقع على التوكيل وسترى ما يسرك بعون الله.

- حسنا. الآن اسمحوا لي بالانصراف فقد تأخر الوقت.

استوقفه الرجل:

- يمين بالله لن تخرج قبل تناول العشاء معنا، صحيح نحن على قد حالنا لكننا نكرم الضيف وأنت ضيف عزيز عندنا.

تمنّعَ في بادئ الأمر... ولكن خوفًا من أن يتهم بالتكبر والاستعلاء وافق بكل أريحية.

كان لسان حاله وهو يشاهد الفتيات يقول: "كلهن صغيرات لو كانت فيهن واحدة كبيرة لربما كانت من نصيبي، لقد أحببت هذه العائلة وصرت أشعر بالمسؤولية تجاههم.. ومن يدري سوف يكلفهم العشاء ما لا طاقة لهم به... يجب أن أعوضهم عن ذلك ".

سأله:

- هل بناتك موظفات؟

- لا ما زلن صغيرات... ما عدا ندى فهي موظفة.

- حسنا نحن بحاجة إلى سكرتيرة فهل ترغب إحداهن بالعمل معنا؟

تفرد وجهه واستبشر خيرًا وقال، كلهن صغيرات أكبرهن ندى.. وفاطمة أكملت الثانوية بنجاح لكنها لا يوجد لديها خبرة في أعمال السكرتاريا.

- أين هي فاطمة... دعوني أراها.

جاءت فاطمةُ تمشي على استحياء ووقفت على عتبة الباب قال لها:

- هل ترغبين بالعمل معنا؟

اتسعت حدقات عينيها واحمرت وجنتاها خجلًا ثم التفتت إلى أبويها وكأنها تستطلع رأيهما، واستدارت إلى ندى فأومأت لها برأسها أن نعم فقالت:

- إن سمح أبي فلا بأس.

حاول الأب الاعتراض لكن قول مبروك... مبروك يا فاطمة من الجميع أذهله والتزم الصمت. ركضت نحوه واحتوته وطوقت عنقه بذراعيها وهي تقبله وتدعو له بطول العمر، اغرورقت عيناه وربَّت على كتفها وقال لها:

- مبروك يا بنتي ربنا يوفقك.

غادر شفيق المكان وهو يفكر في أمر هذه العائلة وفي أمر ذلك المشلول بسبب الحرب، نسيه الناس والدولة ولم يعد يكترث به أحد، وسام الشجاعة وصورة على الجدار مع الملك حسين، وكرسي كهربائي ومعاش لا يكاد يسد رمقه، ونفقات عائلته الكبيرة، ومستأجر عديم الضمير لا يدفع الإيجار.

صدق لينين عندما قال

(الثورة يصنعها مفكر، ويدفع ثمنها شجاع، ويقطف ثمارها جبان).

وما توظيفي لهذه الفتاة إلا تكريما لأبيها.

صعد إلى سيارته وغادر وهو يلوح لهم بيده، ظلوا واقفين حتى ابتلعت زحمة الشوارع سيارته واختفى عن الأنظار.

اجتمعت العائلة وسألت ندى أباها:

- ما رأيك بهذا الرجل يا أبي؟ كيف وجدته؟

-إ نه رجل رائع متواضع وشهم، كريم أطال الله في عمره.

- وأنت يا أمي ما رأيك به؟

عين الأم بصيرة ولم يفتها كل ذلك الاهتمام، ردت على السؤال بسؤال؟

- ما قصدك؟ ولماذا تسألينا رأينا؟ أخشى أن يكون.....

وقبل أن تكمل هزت ندى رأسها بحركة تعني نعم وقالت:

- هو كذلك، أبي... أمي.... هل تعرفون من هذا الرجل؟ إنه شفيق صوان والد ريما ورشا الذي يريد الزواج مني.

- كيف ذلك وهل تعرفينه ويعرفك من قبل؟

- لا تبتعدوا كثيرًا، ولا تسيئوا الظن، فلقد رسمت خطة لتتعرفوا عليه دون أن يشعر أحد...

ثم راحت تحدثهم بما جرى.

- ولكننا رفضناه... أليس كذلك؟ قال الأب.

ردت:

- لا أبي نحن لم نرفضه ولكن طلبنا منهم إعطاءنا مهلة للتفكير في الأمر فما رأيكم؟

- أولًا أخبرينا ما هو رأيك أنت، فهذا الأمر يخصك أنت بالذات، هل أنت موافقة؟

قالت وبلا أدنى تردد:

- نعم... موافقة ومن يوافق عليه يرفع يده.

رفع الجميع أيديهم، فتوجهت إلى الهاتف وطلبت ريما، وبعد أن عرفتها على نفسها لم تدعها تتكلم فسألتها:

- ما زلنا ننتظر ردكم يا ندى، لقد تأخرتم علينا.

- هل أنت متأكدة من أن أباك سيقبل بي؟ أنا فتاة بسيطة وصغيرة ومن أسرة فقيرة وأسكن في حي فقير، في حين أنكم ما شاء الله عليكم تسكنون في أرقى الأحياء في عمان الغربية.

- أنت لا عليك من أبي، أنا كفيلة بإقناعه فهو رجل طيب، ثم نحن لم نخلق أغنياء لقد كنا فقراء مثلكم والفقر ليس عيبًا، المهم أن تكوني أنت مقتنعة فأنت المعنية بالأمر.

- أنا مقتنعة، لكن أهلي يريدون رؤيته والتحدث إليه مرة ثانية، طبعًا ستأتي أنت ورشا وحبذا لو يأتي العروسان -ربيع وعروسته- معكم لتكتمل الفرحة.

- حسنا ما هو اليوم الذي يناسبكم؟

- مساء الخميس بحيث تكون العائلة مجتمعة.

بذلت الفتاتان جهدًا كبيرًا لإقناعه بالذهاب، قال لهن:

- إنها ما زالت صغيرة، ثم أنا هكذا مرتاح فما يدرينا لعلها تكون متمردة. نحن لا نعرف عنهم وعن حياتهم شيئًا. أرجوكم أن تنسوا الموضوع.

أما في قرارة نفسه فكان هناك صوت في داخله يهمس في أذنه، يدغدغ مشاعرة، يتمنى أن تصر الفتيات ويجبرنه على القبول.

(كثر الدق بفك اللحام)

هكذا قالوا في الأمثال، وشفيق فُكَّ لحامه من كثرة الدق عليه فوافق.

مساء ذلك اليوم كانت عائلة شفيق صوان بأكملها متجهة إلى الجبل الأخضر، استغرب الرجل فسأل ابنته ريما:

- يبدو أنك تعرفين العنوان؟

- نعم أبي فقد زرتها أنا ورشا أكثر من مرة.

كلما اقترب من الحي ساورته الشكوك وراح يحدث نفسه "هل يعقل أن يكونوا ساكنين بنفس الحي أو ربما يكونوا أقرباء؟" ظلت الأسئلة والدهشة

تتقاذفه حتى توقفت السيارة أمام المنزل، وكانت ريما قد أخبرتهم بالهاتف أنهم في الطريق إليهم فكان جميعهم على أهبة الاستعداد. تضغط على الزامور فتسرع ندى مهرولة نحو البوابة وتفتحها لتكون وجها لوجه أمام شفيق صوان.

نظرا لبعضهما بعضًا وما زال فاقد الإحساس لهول الصدمة. اقتادته كما أول مرة إلى غرفة الضيوف وأجلسته على المقعد نفسه.

هذه المرة لم يشاركهم الجلوس إلا ندى وأمها وأبوها وأخوها، أما الأخريات فقد احتجبن ورحن يسترقن السمع والنظر من خلف الستارة، وندى تروح وتغدو حاملة أصناف الضيافة ولسانها يلهج بالترحيب.

دهش الجميع من ترحيبهم بأبيهم، وراحوا يسألون:

- هل تعرفونه؟

فردوا:

- ومن لا يعرف الأستاذ شفيق صوان، إن سمعته العطرة تنتشر في كل مكان.

قالت ريما -وهي لا تعرف أن أباها كان هنا قبل أيام - :

- هذا أبي شفيق المحامي وهذه أختي رشا مهاجرة في كندا، وأخي ربيع وعروسته يعمل في الخليج.

ثم استدارت نحو أبيها وهي تشير إلى ندى وقالت: وهذه الفتاة التي حدثتك عنها وهؤلاء أمها وأبوها.

هز رأسه وهو يبتسم وقال: تشرفنا.

لم يتحدث أحد من الطرفين في موضوع الزواج، والجلسة لم تطل لأكثر من ساعة حتى غادروا المكان ونظرات الرضى والمودة تشيعهم حتى تواروا عن

الأنظار.

- ما رأيك أبي؟ سألت ريما.

- رأيي بماذا؟ أجاب وكأنه لا يعنيه الأمر.

- بندى، هل أعجبتك؟

أجاب وبلا تردد:

- نعم إنها رائعة. لكنها ما زالت صغيرة..... هل أنت مقتنعة أنها ستوافق؟

- بالتأكيد أبي.

ثم قالت ممازحة: ستقبل غصبًا عن خشمها وهل ستجد من هو بطيبة ووسامة السيد شفيق المحامي؟ أقدع وأشهر محامي في البلد.

صمت برهة وشطح بخياله إلى ما جرى خلال هذه المدة القصيرة من أحداث متسارعة، وراح يحدث نفسه " الآن فهمت سر إصرار الفتاة على توكيلي وذهابي إلى بيتهم، لكي يقتنع أهلها... لا شك أن البنات عرضن عليها الأمر وترددت بادئ الأمر... ولكن مهما يكن خيرًا فعلن، الفتاة تبدو طيبة وأسرتها أيضًا، إنهم رائعون علاوة على أنها شابة وجميلة فلا بأس ".

أيقظه من شروده سؤال ابنته وهي تداعب مؤخرة رأسه قالت:

- ماذا قلت يا أبي؟ هل نقول مبروك؟

رد:

- هل أنت متأكدة من موافقة الفتاة وأهلها؟ إياك ثم إياك أن تضعيني في موقف حرج.

- حاشا لله، توكل على الله وصل صلاة استخارة اليوم.

- حسنا ما دمت واثقة فلا مانع لدي... وعلى بركة الله.

وقامت تجري تزف البشرى لأُختها وأخيها... كانت تسمع صوت الزغاريد على الهاتف.

بعد يومين اتصلت ريما بندى:

- هل نقول مبروك؟

- الله يبارك فيك... ردت وهي تضحك.

- ربنا يهنيكم... إذن ننتظر منكم أن تحددوا لنا يومًا لكتب الكتاب.

ثلة من المحامين والأقارب توجهوا إلى بيت السيد موسى القشاش في الجبل الأخضر، وكان قد نصب في ساحة فارغة من الأرض الخلاء خيمة كبيرة مزودة بما يلزم من الكراسي والسجاد، إضافة إلى دلال القهوة وما يصاحبها من فناجين ومحارم ورقية التي كانت تجثم فوق المناضد. وكان موسى القشاش قد وجه الدعوة لعدد من أقاربه وجيرانه ليقوموا باستقبال الضيوف، الذين جاء بمعيتهم المأذون الشرعي.

قدم غلام فنجان القهوة لأكبرهم سنًّا لكنه بدوره مررها لرجل آخر من أصدقاء شفيق وهو ذو منصب عال في الدولة، وضع الفنجان أمامه قبل أن يشربه، ثم انتصب واقفا، عدل من هندامه وألقى خطبة عصماء قرأ فيها آيات قرآنية، وقال:

كلفني أهلي من عشيرة صوان ولست بأفضل منهم أن أتقدم باسمي وباسم عائلتنا وأقربائنا وأنسبائنا بطلب يد ابنتكم المصون البكر ندى موسى القشاش وهي سليلة الحسب والنسب، ابنة الحاج موسى أحد أبطال هذا الوطن الذي قدم ما لم يقدمه أحد لخدمة بلده، أبناء قبيلة القشاش مشهود لهم بالكرم والجود وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم للسيد شفيق صوان المحامي على سنة

الله ورسوله، والأستاذ شفيق غني عن التعريف يشهد له القاصي والداني بحسن الخلق والصدق ولأمانة، وإننا على يقين بأن ابنتكم ستجد عنده كل الرعاية والتقدير، وأنها ستحظى لديه بالمحبة والتكريم، نتأمل من سعادتكم تلبية طلبنا بالمهر الذي ترونه مناسبًا ولكم كل الشكر.

جلس على كرسيه لينهض رجل من طرف عائلة القشاش لا يقل مكانة عن الطالب، وأشاد بدوره بأخلاق الفتاة وحسن خلقها وطيب أصلها وبكرم وشهامة والدها، ثم أثنى على السيد شفيق وعائلته وأنسبائه وأقربائه وقال: هذه أمانة لديكم فما عزهن غير كريم وما أذلهن غير لئيم، جئتم أهلًا ووطئتم سهلًا، وطلبكم مجاب بمهر مؤجله خمسة عشر ألفًا، ومعجله دينار ذهبي واحد، وشبكة بخمسة آلاف دينار، وتفضلوا بشرب قهوتكم.

وتم عقد القران، وأخرج ربيع مسدسه وأطلق بضع رصاصات في الهواء ابتهاجا لهذا الخبر.

وعلى مقربة من الصيوان، ما إن سمعت النسوة أصوات الرصاص حتى انطلقت من ردحات المنزل الزغاريد والأهازيج تصدح مالئة أجواء الحي، ودارت فناجين القهوة على المجتمعين تبعتها أطباق الكنافة والماء والعصائر.

أيام قليلة حتى تزوجا وتوجها إلى المطار في طريقهم إلى فرنسا لقضاء شهر العسل. كان في وداعهم جميع أبنائه.

عادوا أدراجهم إلى عمان وما هي إلا أيام معدودات حتى سافرت رشا مع زوجها وربيع مع زوجته، وبقيت ريما تمارس مهمتها في التدريس بهمة ونشاط.

مر عام واحد على زواجهما وفي الصيف، وكما في كل عام، تجتمع العائلة ويلتم الشمل.

قالت ريما لأبيها:

-"إن هنالك شخصًا يرغب بزيارتنا هو ووالدته وأخته للتعرف عليكم، وهو شاب خلوق ومتعلم ومن أسرة كريمة التقيت به عندما كنت في زيارةٍ لإحدى صديقاتي، كان قادمًا من عمله في مجال التجارة، وعندما دخل حيانا وقامت أخته بتعريفه علينا، وعندما قدمتني له توقف وقال:

- ابنة من أنت؟ فأجبته.

ثم التفت موجها الحديث إلى أمه وأخواته:

- هل تسمحن لنا بالجلوس معًا لبضع دقائق، لدي ما سأقوله لهذه الشابة.

أدركن ما يرمي إليه وغمرتهن الفرحة، حينها أدركتُ سبب إصرار صديقتي على زيارتها في هذا الوقت من المساء، وعلمت أنهن تحدثن معه عني وطلب أن يراني دون المساس بمشاعري، فهو لا يؤمن بالعادات التي يتبعها الشباب هذه الأيام حين تذهب أمه أولًا لمشاهدة العروس، فإن أعجبتها أخذته معها في الزيارة التالية، وقد لا تعجبه أو لا يعجبها فيخلق ذلك شيئًا من الألم النفسي والشعور بالنقص نتيجة هذا الرفض.

هذا الشاب عندما رآني استملحني وطلب الحديث معي وأنا كذلك استلطفته واستجبت لرغبته؛ لأنني فهمت أنه جاد فيما هو قادم عليه وأصبح من حقي أيضًا أن أسبر غوره. علمت فيما بعد أنه كان رافضًا لفكرة الزواج وقد تقدم به العمر، وكلما دلته أخته على فتاة يرفض الذهاب لبيت أهلها لمشاهدتها؛ ولذلك فإن أخواته البنات يجلبن من يرينها مناسبة إلى البيت كضيوف ولم تكن تعجبه أي منهن. يدخل يطرح التحية ويتعرف عليهن ثم يتابع

سيره إلى غرفته الخاصة كدليل على أنها لم تعجبه؛ لهذا السبب كانت فرحتهن كبيرة عندما توقف عندي وطلب الجلوس معي.

جلسنا في زاوية ليست ببعيدة عنهم ورحنا نتحدث، سألني إن كنت مرتبطة أم لا فأجبته بلا.

قال إنه يبحث عن زوجة يفهمها وتفهمه تكون معينة له في كل أمور حياته ويكون لها سترًا وغطاءً.

حدثني عن حياته وعن نفسه كثيرا منذ نعومة أظفاره حتى هذه اللحظة، وقال:

- بعد كل ما عرفتِهِ عني هل ترينني مناسبًا لك؟

ولم يترك لي المجال لكي أرد تابع قائلا: لا أريد منك جوابًا الآن، أريدك أن تفكري وعلى أقل من مهلك.

قلت له كل فتاة تطمح أن تحظى برجل يخاف الله فيها، يحترمها وتعيش معه عيشة كريمة، وأنا لا أعرف عنك إلا القليل، تبدو مهذبًا ووسيمًا، لكن أرجو أن تمنحني مزيدًا من الوقت لكي أستخير وبعدها سأعطيك قراري.

- حسنا هذا ما عنيته بالتأكيد... وأنا أيضًا سأستخير ربي وأرجو الله أن تكوني من نصيبي ثم استدرك:

- ما رأيك أن نخرج لتناول العشاء أنا وأنت وأختي لكي نحطم جدار الجليد ونتعرف على بعضنا أكثر قبل اتخاذ أي قرار؟

قلت:

- دعني أفكر بالأمر... وأستشير أبي، هل لديك رقم هاتف؟

قال: نعم ها هو.

عدت إلى المنزل وأخبرت عمتي ندى بما جرى، قالت:

- تمهلي حتى نستقصي عنهم من أناس يعرفونهم.

ولم يكن من الصعب عليها الوصول إليهم ومعرفة تفاصيل حياتهم.

ذهبت عمتي ندى إلى مكان عمله متذرعة بالبحث عن وظيفة ولم يكن حينها موجودًا، راحت تستفسر عنه وعن أخلاقه وتعامله مع الناس وخرجت بانطباع رائع عنه فلم يذمه أحد.

عادت مستبشرة وأخبرتني وقد كان مضى على هذا الأمر أكثر من أسبوع، طلبته على الهاتف وأخبرته موافقتي على الخروج معه هو وأخته وأنا وعمتي ندى. وكان لقاء رائعًا كانت آراؤنا متشابهة وكان خلوقا للغاية، كريم النفس، دمث المعشر. شعرتُ معه بالراحة والطمأنينة. سألني:

- هل استخرت؟

- أكيد... وأنت؟

- وأنا أيضًا.

- وماذا رأيت؟

ردت ضاحكة:

- مثلما رأيت أنت.

- أنا لم أر شيئًا لكنني استيقظت مسرورًا متفائلًا.

- وأنا كذلك... أقسم لك أن هذا ما حصل بالفعل.

- حسنا...هل نأتي لزيارتكم؟

- لا مانع من مجيئكم أنت ومن تريد.. لتتعرف على أهلي.

وهذا كل ما حصل. فما رأيكم؟"

- خيرًا فعلتِ، قال أبي.

وردد الكل من خلفه- والسرور باد على محياهم - أن لا مانع فليتفضلوا بأي وقت يشاؤون.

وهكذا حكم النصيب وتزوجت ريما وانتقلت إلى بيت زوجها قريبًا من هنا.

حظيت ندى بمحبة زوجها واحترامه، كان يعاملها بمنتهى اللطف والكياسة، فأحبته حبا عظيمًا وكانت له خير رفيق ومعين في حياتهما الزوجية التي امتدت عشر سنوات لم يرزقا بأولاد.

عرضا نفسيهما على أمهر الأطباء في المملكة وفي الخارج، في بريطاني وأمريكا ولكن دون جدوى فالمرأة كانت عقيمًا لا تنجب، هكذا كانت تشير التقارير الطبية. حتى الأنابيب، كانت تحمل وتجهض لأكثر من محاولة، في كل مرة كانت تفشل تجهش بالبكاء ويظل الحزن مرافقها لمدة طويلة.... ولكن شفيق كان عطوفًا عليها جدًّا، يمنحها الأمل ويعطيها الثقة بنفسها ويغدق عليها بالحب والحنان والهدايا. يخرجها معه في نزهات وزيارات للأصدقاء، يسافر معها في كل صيف إلى بلد. ولا يرفض لها طلبًا، ولم ييأس من المحاولة، ليس لرغبة منه بالإنجاب، لكن حبًّا بها لأنها -ومثل كل امرأة- تتمنى أن تنجب ويكون لها أولادًا.

وتمضي سنون العمر مسرعة بلا هوادة لا يشعر بها الإنسان إلا عندما يرى ضعف بدنه ويبيض شعر رأسه. وها هما شفيق وندى يتقدمان في العمر وبدأت الأمراض تغزو جسمه رويدًا رويدًا. غَدَا يراجع الأطباء كل ستة أشهر يجري فحوصات طبية شاملة لجسده المنهك.

في يوم ميلادها وأمام جميع أفراد العائلة بعد أن قدم لها الجميع الهدايا

وظل هو لم يقدم لها هديته ضمن استغراب العائلة سألت ريما الشقية وقالت:

- الآن دور بابا سنرى ما هي هديته.

أخرج من جيبه علبة صغيرة ظنها الجميع خاتمًا كما درجت العادة في أعياد ميلادها السابقة. تقدم نحوها وقبلها من جبينها، وقال:

- اسمعوني سألقي خطبة.

صمت الجميع واتجهت أبصارهم نحوه، التفت إلى ندى وقال:

- اسمعي يا ندى، أنت امرأة ذكية وشابة تتدفقين حيوية ونشاطًا ولا يعقل أن تفني شبابك بين أربعة جدران تنتظرين عودتي من العمل أو خارج البلاد، لذلك أنا قررت تعيينك عضو مجلس إدارة في الشركة العقارية التي نملك أغلب أسهمها، وخصصت لك سيارة وسائق وسوف تباشرين عملك اعتبارًا من الغد.

وفتح العلبة وأخرج منها مفاتيح المرسيدس رفعها بيده إلى الأعلى واشتعلت الصالة بالتصفيق.

فغرت فاها وأذهلتها المفاجأة. وانهالت عليها عبارات التهنئة والتبريك، عانقته بحنوٍ بالغ وحرارة ولم تستطع كبح جماح دموعها المترقرقة من الانسكاب على خدها النديّ.

ذات يوم اشتكى من ألم في بطنه وراح يتلوى كالأفعى، سهرت ندى على راحته حتى الفجر، وعملت له شراب الميرمية، تلك النبتة السحرية، فهي في مجتمعنا تعتبر دواء لكل داء، شربها على مهل، إنها مُرَّةً غير مستساغة، لكن الغريق يتعلق بقشة ولم تجد معه المسكنات.

باءت كل المحاولات بالفشل. ما زال الألم يضرب أمعاءه ويتلوى كالأفعى،

ينهض من مكانه ويخرج إلى الحديقة ليتمشى لعل المشي يخفف من أوجاعه، يجلس على مقعد خشبي مركون في زاوية الحديقة قبالة بركة السباحة، يتأمل تموجات الماء السلسة عندما تداعبها نسمات الصباح.

تذكر أيام زمان عندما كان يمرح مع أبنائه بها، نزلت من عينه دمعة خجولة مسحها بظهر يده. إنه يتألم، يضع راحتي يديه على بطنه وينحني ضاغطًا متوجعًا.

قالت له وهي تحتضنه:

- لا بد من الذهاب إلى الطبيب.

امتنع ورفض كعادته عندما كان يمرض لا يذهب إلى الطبيب إلا في الحالات الصعبة، قال لها: إن الألم سيزول وسينتهي كل شيء، فالميرمية لم تأخذ مفعولها بعد.

لكنه لم يزل بل راح يزداد أكثر وأكثر.

صار يعود باكرًا من العمل على غير عادته، تهاجمه الآلام وهو في المحكمة فيعجز عن الوقوف، توقف عن المرافعات واكتفى بالأعمال الإدارية. ولكن الآلام لا تفرق بين المحكمة والمكتب، تأتيه نوبة الألم فيتلوى ويطلب من السائق إيصاله إلى المنزل لتتولى ندى العناية به.

كلما شعر بتحسن يلبس بدلته الأنيقة ويذهب إلى عمله ولا يستمع لنصائح الطبيب بضرورة الراحة، ولكن هذه المرة ندى برفقته صارتْ ترافقه كظله أينما حل وارتحل، واكتسبتْ خبرة كبيرة في شتى المجالات التي يعمل بها. تعرفتْ على كل المشاريع والشركاء. ولم يمض عام حتى أصبحتْ رئيسًا لمجلس الإدارة.

اشتد عليه المرض وساءت حالته أكثر وهو يتنقل ما بين العمل وعيادة الدكتور بلال صديقه العزيز.

ذات يوم هاجمته موجة من الألم راح يصيح كالذئب الجريح... وراح يتقيأ دمًا وهو يكابر ويرفض الذهاب إلى المستشفى، لكنها وبفراسة الأنثى استشعرت الخطر وأصرت على الذهاب إلى المستشفى، واستمر بعناده ورفضه.

رفعتْ سماعة التلفون وتحدثتْ مع ريما فأتت إليه مسرعة تسابق الريح، قبلت يده واغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: يجب أن تذهب إلى الطبيب حالًا.

لكنه لم يعرها أذنًا مصغية واستمر في عناده ومقاومته، فقامت ندى بالاتصال بصديقه الدكتور بلال وطلبت منه سرعة المجيء إلى البيت لأن حالة شفيق صعبه جدًّا.

لم يتوانَ الطبيب فهو صديقه المقرب، من فوره... حمل حقيبته وتوجه بسيارته قادمًا إليهم. وجده منهك القوى والعرق يتصبب عن جبينه وحرارته مرتفعة، أعطاه مسكنًا وخافض حرارة، ومن فوره طلب سيارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى، تاركًا ندى تغرق في الدهشة والذهول قالت:

- ما به يا دكتور؟ أرجوك أخبرني ما الأمر؟

- تأملي خيرًا يا مدام نرجو أن يكون حدثًا عرضيًا، ولكن من قبيل الاحتياط لا بد من دخوله للمستشفى لإجراء بعض الفحوصات وإن شاء الله سيكون بخير. لا تقلقي.

- حسنا سآتي معكم. وأنت يا ريما اتبعينا بسيارتك.

على مدخل الطوارئ كانت ثلة من الممرضين المسعفين والأطباء

المتخصصين في انتظاره، وحال وصوله تراكضوا ونقلوه إلى الداخل وقد بدأ المسكن يأخذ مفعوله فسكن ما به من ألم.

أدخل المستشفى وأجريت له كامل الفحوصات الطبية اللازمة، وفي اليوم التالي كانت النتائج صادمة بالنسبة لندى فقد تبين أن الرجل مصاب بداء السرطان في المعدة، وهو في مرحلة متقدمة.

يا إلهي لطفك! ورحماك ارحم زوجي برحمتك! واشفه من سقمه وأنت الشافي المعافي، ظلت تدعو له حائرة لا تدري ماذا ستفعل غير الدعاء.

إنها مشيئة الله ولا راد لقدره، لا بد من إخبار أبنائه الذين كانوا لا ينقطعون عن التواصل معه عبر الهاتف، قالت لهم:

- إن أباكم أصيب بوعكة صحية استدعت نقله إلى المستشفى.

ساد الصمت وعلت وجوههم الدهشة وقالوا بلسان واحد: إن والدنا لا يذهب إلى الطبيب إلا لأمر جلل فما باله يذهب إلى المستشفى؟! لا شك أن الأمر خطير.

وراحوا يهاتفونه على هاتفه الخاص ولا يجيب؛ حيث كان مغلقا، كانت تطمئنهم وتقول لهم: لا تقلقوا كله يوم أو يومين ونعود به إلى المنزل بعون الله.

سهرتْ على راحته لم تغادر غرفته للحظة، بين الحين والآخر كان يمسك بيدها ينظر بعينيها الجميلتين قال:

- يجب أن تعودي إلى البيت لترتاحي، فأنت لا تنامين ولا تأكلين يا حبيبتي، وجسمك بحاجة إلى الراحة.

قالت والدموع تنحبس في محجريها:

- لا عليك يا حبيبي، راحتي بوجودي جنبك.

- ثمة أمر مهم أريده منك.

ثم صمت محاولا استجماع قواه وأنفاسه المتعبة:

- حاضر حبيبي، اطلب ما شئت من عيوني.

- أريدك أن تتعلمي السياقة؛ لأن ريما مشغولة مع بيتها وزوجها. وهذه سيارتك مركونة في الجراج، ولم أعد أرغب بوجود السائق.. أعطوه مستحقاته أو عينوه بأي وظيفة في إحدى شركاتنا.

قالت وهي تحاول أن لا يسبب ردها ألما له:

- لكنني أخاف ولا أجرؤ على القيادة في الخلاء.... فكيف في الأماكن المزدحمة؟!

- عندما أخرج سأرسلك إلى مدرسة لتعليم السياقة.

- حسنا إن شاء الله.

لكن مكوثه هناك طال لأكثر من أسبوع وازدادت حالته سوءًا؛ مما اضطرها لمصارحتهم بالأمر. جاءوا على عجل هم وأولادهم وتحلقوا حوله والدموع منحبسة في المآقي.

كانت فرحته بأحفاده حين شاهدهم لا تعادلها فرحة، تحلقوا حوله وراحوا يقبلونه وهو يحتضنهم، هذه هي المرة الأولى في حياته يشعر برغبة في البكاء ذاك الرجل كان عصي الدمع شيمته الصبر، اغرورقت عيناه وشعر بدنو أجله.

كل من حوله كانوا يعرفون علته إلا هو، ولكن إلى متى وهو رجل مثقف ولا

تخفى عليه معاني هذه النظرات الحزينة المشفقة.

تحلقوا حوله وكل واحد منهم بيده منديل يداري فيه ما ينسكب على خديه من الدموع. حان موعد النوم، ذهب الجميع كل إلى وجهته وبقيت ندى وحدها مرافقة له تقوم على العناية به.

يتألم... وتسمع أنينه فتتألم لألمه، كيف لا وقد كان لها الزوج والحبيب بل كان لها وطنًا، أحبته وتضرعت إلى الله في كل صلاة أن يمده بالقوة ويمنحه الشفاء العاجل.

امتلأت الممرات بسلال وباقات الورود مرفقة ببطاقات الدعاء بالشفاء وتحمل أسماء مرسليها، حيث لم يعد لها في غرفته مكان واحتلت سلال الشوكولاتة وعلب البقلاوة وأصناف أخرى من الهدايا التي كانت تأتيه من زائريه مزينة ببطاقات حملت أسماءهم وتوقيعاتهم وتمنياتهم له بالشفاء.

لفتتْ انتباهها علبة بسكويت كتب عليها: "أم علي تتمنى لك الشفاء العاجل"، كانت هذه المرأة قد أتت لزيارته...

كانت تبدو من أهل الريف بلباسها التقليدي عندما استأذنت بالدخول كان المكان خاليًا فالأولاد غادروا، وأنا تركته نائمًا وخرجت من غرفته وذهبت إلى غرفة الممرضات ورحنا نتجاذب الحديث بأمور الحياة. يبدو أنها أيقظته عندما قرعت الباب وأذن لها بالدخول، لكنها لم تمكث طويلًا.

شاهدتها وأنا عائدة لأطمئن عليه وقد كانت أمام الباب حزينة مطأطئة رأسها وتمسح دموعها بمنديل ورقي. تقابلنا في الممر رمقتها بنظرة ولكنها لم تأبه لي وكأنها لم ترني. تفحصت تلك العلبة وقلت لا بد أن وراءها قصة ما.

قلت له: هذه علبة بسكويت أتتك من سيدة ومعها بطاقة مكتوب عليها:

(أم علي تتمنى لك الشفاء)، هل تعرفها؟

نظر إليّ وتبسم ثم طلب البطاقة فناولتها له، هز رأسه وقال: هذه أم علي جزاها الله خيرًا، حتما أنها عانت الكثير حتى وصلت إلى هنا تلك المسكينة.

قلت والحيرة تنهشني: ربما.. ولكن من تكون هذه المرأة؟

ولا أخفيكم أن الغيرة بدأت تتسرب إلى عقلي وقلبي.

فهم من ملامح وجهي فمد يده لي أن تعالي اقتربي مني، فاقتربت وجلست على حافة السرير وهو ممسك بيدي، قال: هذه أم علي التي... وسكت... انتظرته أن يكمل.... وبعد أن طال صمته وهو يحاول جاهدًا أن يتنفس، قلت أكيد أم علي. ولكن من تكون هذه الأم علي ومن أين تعرفها؟

في الأثناء بدأ يتلوى من الألم ويعتصر ويسعل سعالًا ظننت أن روحه ستخرج من أنفه، فقلقت عليه وكففت عن السؤال واستدعيت الممرضة، كانت ليست بعيدة فأتت مسرعة.

- ضغطك مرتفع وحرارتك مرتفعة يا سيدي، ماذا جرى لك؟ سأستدعي الطبيب فورًا.

ما هي إلا دقائق حتى وصل الطبيب فحص نبضات القلب والضغط والحرارة وكتب له علاجًا تناوله على الفور، وأعطاه حقنة "بثيدين" مسكن قوي فراح في سبات عميق... وعندما استفاق راح يحدثني عن أم علي:

- قبل وفاة زوجتي وعندما كانت مريضة اضطررنا لجلب خادمة، وكانت الخيارات أمامنا محدودة فالدولة لها معاهدات واتفاقيات دولية مع سيريلانكا وبنجلاديش والفلبين، وعن طريق مكتب لاستقدام الأيدي العاملة تقدمنا بطلب خادمة سريلانكية، لم تكمل شهرها الأول حتى هربت، بعدها أتت

بنغالية وهي الأخرى هربت، فطلبنا فلبينية كانت جيدة لكنها لم تحتمل الغربة، كانت متذمرة دائمة البكاء والعويل ولا تتقن عملها فاضطررنا لتسفيرها، ورحنا نبحث عن واحدة من بنات البلد.

كان الأمر في غاية الصعوبة. نشرت إعلانًا في الصحف المحلية وذات يوم إذ بامرأة شابة، ترتدي جلبابًا وحجابا، كانت خافضة الرأس تكسو وجنتيها حمرة الخجل، دخلت علينا طارحة التحية وبيدها جريدة، استقبلتها سميرة كالعادة وسألتها عن غايتها فمدت يدها بالجريدة نحوها مشيرة إلى الإعلان قالت:

- تبحثون عن جليسة أليس كذلك؟

استبشرنا خيرًا وفرحنا كثيرًا عندما أخبرتنا سميرة بذلك، فطلبت منها أن تدخل لأتحدث معها، أشرت إليها بالجلوس فجلست واضعة نصف مؤخرتها على حافة الكنب وممسكة بيديها وكأنها خائفة من السقوط من مكان مرتفع، طلبت لها ضيافة وسألتها: هل لديك الاستعداد للعمل؟

قالت نعم لكن لي شروط. تبسمت ورفعت بصري نحوها وسألتها عن شروطها فقالت ألَّا أبيت عندكم ولا تسألني عن اسمي، أو مكان سكني، لكن بإمكانك مناداتي بأم علي، ولي شرط آخر أن يكون يوم الجمعة إجازة لي تخصمه من مرتبي إن شئت، سوف آتيكم في الصباح الباكر طيلة أيام الأسبوع وأغادر بأي وقت تشاؤون، وسوف تجد مني ما يسرك إن شاء الله.

فكرت في الأمر وعرضته على زوجتي والأولاد فوافقوا، ومنذ ذلك اليوم وهي تخدمنا بإخلاص إلى أن انتقلت أم ربيع إلى ربها الأعلى.

انقطعت عنا فجأة ولم ندرِ ما السبب، ورحنا نسأل بعضنا يا ترى من

أغضبها وماذا جرى لها، واحترنا كيف السبيل إلى الوصول إليها ونحن لا نعرف لها عنوانًا ولا أي شيء.

خطر ببالنا أنها سرقت مجوهرات المرحومة لأنها كانت تعرف أين تخبئها، وعلى الفور تفقدناها وتفقدنا أغراض المنزل فلم نجد أي شيء ناقصًا، ومرت الأيام ونسينا أمرها واستغنينا عن الخادمات.

بعد شهر أو يزيد جاءت إلى المكتب والدموع بعينيها، وأخبرتنا بما جرى لها، كاد أخوها أن يقتلها عندما عرف أنها تعمل خادمة، ووضع اللوم على زوجها ووبخه كيف يسمح لزوجته أن تعمل خادمة في المنازل؟ ولأن الزوج لم يكن يعلم، كان يظنها تعمل في المكاتب لدى مجموعة محامين تقوم على تنظيم الملفات وتصنع لهم القهوة... هكذا كانت قد أخبرتهم. غضب الزوج وهددها بالطلاق إن عادت إلى ذلك المكان مرة ثانية، ولم يكتفِ بذلك بل تزوج عليها وهجرها، وتوقف عن الإنفاق عليها وعلى بناتها، بل طردها من البيت واستأجر لها غرفة حقيرة في حي بائس.

حزنت عليها وخصصت لها نفس راتبها تأخذه في نهاية كل شهر وهي في بيتها، كانت تأتي في نهاية كل شهر خلسة عن زوجها وإخوانها، تجول في البيت، ترتبه وتنظفه وتعتني بالحديقة، وفي المساء يقوم أحدنا بتوصيلها إلى العبدلي حتى اقترنت بك فانقطعت عن المجيء إلى المنزل وصارت تأتي إلى المكتب في نهاية كل شهر لاستلام معاشها.

قلت وأنا أداعب وجنتيه متبسمة وقد تلاشى ما بي من الظنون:

- اه... الآن فهمت، حان موعد المعاش فذهبت إلى المكتب ولم تجدك، وعندما استفسرت علمت بأنك هنا فأتت لزيارتك، لكن لمَ لم تخبرني بذلك من

قبل كل هذه السنين يا شفيق؟!

- لا أدري لكن هنالك أشياء كثيرة لم أخبرك بها ستعرفينها عندما أعود إلى المنزل بعون الله..

تثاءب وأغمض جفنيه وراح في سبات عميق.

أسبوع كامل لم أتركه للحظة حتى خرج من المستشفى، وطلب منه الطبيب ألَّا يمارس أي نشاط، وعليه أن يستريح في المنزل، وسوف يكون هنالك مراجعات أسبوعية.

كانت صحته تتراجع، مع العلاج الكيماوي سقط شعره، وشحب لونه، وهزل جسمه من قلة الأكل ويعيش على غذاء الأنابيب، وأصبح لا يقوى على المسير سنة كاملة وهو في العذاب حتى توفاه الله.

قبل وفاته أودع لي مبلغا كبيرًا من المال في البنك، وسجل السيارة والفيلا باسمي، وطلب من أولاده أن يعتبروني أمًّا لهم وأوصاهم بي خيرًا. كانوا نعم الأولاد، ريما سافرت مع زوجها إلى قطر، ورشا في كندا، وربيع في الإمارات، وبقيت أنا وحيدة في هذا القصر الواسع الذي تنازل عنه الورثة لي برضاهم، أهلي رفضوا المجيء للعيش معي، قالت أمي أن لها في الحي جارات عزيزات، بينهن عشرة عمر لن تستطيع العيش بعيدة عنهن، وأبي كذلك كان معتادًا أن يأخذه أخي إلى المسجد فيلتقي هناك بأصدقائه ومعارفه وأحيانًا يأتي جيرانه لزيارته والاطمئنان عليه. ولم أجد من يسليني في وحدتي أثناء تلك الشهور غير أم علي، بعدما صارت وحيدة مثلي بعدما تزوجت ابنتاها وغادرتا البلاد مع أزواجهن.

احترت في أمري وأصبحت مشتتة الفكر بين أبي المشلول وأمي المريضة،

وهما بأشد الحاجة إلي، سيما أن كل أخواتي تزوجن وتفرقن، كل واحدة منهن في جهة مع زوجها وأولادها. يأتون لزيارتي مرة في الأسبوع، يبيتون يومًا ثم يرحلون... تاركين خلفهم جوًّا من الكآبة والهدوء القاتل.

وما زال مكتب المحاماة مستمرًا في عمله، تولى الإشراف عليه ربيع عن بعد بداية الأمر، لكنه الآن أوكل المهمة لي نتيجة لظروفه، وأنا بحاجة لمن يساعدني. ولا أدري، ها هي أشهر العدة قد انقضت فهل أعود للسكن مع أهلي أم أحاول إقناعهم بالعيش معي هنا؟

لأول مرة في حياته يشعر ممدوح بإنسانيته.. يداري دمعاته العصية في عيونه، قال لها عندما توقفت عن البكاء:

- هل تطلبين رأيي يا سيدتي؟

- نعم بالتأكيد.

- أهلك يجب أن يعيشوا معك هنا. وهنالك ألف وسيلة لإقناعهم دعي الأمر لي.

توقفت السيارة داخل المرآب ولم تنزل كانت شاردة الفكر:

- أخيرًا تخلصنا من تلك الزحمة...ها قد وصلنا يا سيدتي.

أطفأ محرك السيارة ووضع ناقل الحركة على وضعية ركون، وأخرج المفتاح منها، ثم ترجل بهندامه الأنيق وربطة عنقه الحمراء، تفوح منه رائحة عطر فرنسي فاخر. استدار وفتح لها الباب الخلفي...

صار سائقها الخاص، تجلس بجانبه، عطرها النفاذ يداعب إحساسه

المرهف ويثير شبقه، وفي أثناء ذلك علمت أنه أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، استغربت أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، علمته قراءة وكتابة الأرقام لكنها لم تفلح في تعليمه الحروف فقررت إرساله إلى معهد محو الأمية. لم يعترض بل كان هو أيضا راغبا بذلك، راح يحاول قراءة اللافتات الملصقة على واجهات المحال التجارية، وأحيانًا يتصفح العناوين الرئيسية في الجريدة.

مضى عام كامل على وجوده في الفيلا صار هو الأقرب... والحامي والصديق لهما. وصار يجلس معهما على طاولة الطعام في الوجبات الثلاث بعدما كانت ترسل له طبق الإفطار ليتناوله وحيدًا تحت ظل شجرة المشمش. وباتت الحديقة بأجمل حلتها مليئة بالزهور ونباتات الزينة، وشجرة المشمش تم تطعيمها بصنف يلذ للآكلين وأشجار اللوز تحولت إلى خوخ ودراق، وشجرة تين أتى بها من وادي السير ستكبر يوما ما وتجود بثمارها الشهية.

في الصباح الباكر تستيقظ وتخرج إلى الحديقة بعد أن تصلي الفجر، تتجول بين ورودها وأزهارها، تقطف منها ضمة تضعها في مزهرية على طاولة الحديقة. في حين تكون أم علي قد جهزت سفرة الإفطار، يتناول طعامه ويحتسي إبريقًا من الشاي ثم يوصلها إلى مقر الشركة، ويعود أدراجه ليتابع أعماله.

هناك في الجهة الخلفية من الفيلا ملحق للخادمة... ولكن بعد وفاة شفيق خصصت ندى غرفة لأم علي في الداخل، وبقي الملحق فارغًا. سكن فيه ممدوح بعد أن فرشته بفرش فاخر، وزودته بكل وسائل الراحة من ثلاجة وتلفزيون وغيره.

ودوام الحال من المحال، دخل والدها في غيبوبة، اتصلت أمها بها وهي تبكي

مذعورة... فاستدعت ممدوحًا.

- أسرع يا ممدوح... أبي في خطر ويجب نقله إلى المستشفى فورًا.

- حاضر سيدتي.

راح يسابق الريح ويختصر الطرقات، لكن زحمة السير والإشارات الضوئية كانت تعيق مسيره. وصلا متأخرين، كان الرجل قد فارق الحياة، جاءت سيارة الدفاع المدني متأخرة أيضًا.

نزل المسعفون منها على عجل وراحوا يفحصون الجثة... توقف القلب... لا يوجد نبض..

- البقية بحياتكم يا جماعة، ولكن يجب نقله إلى المستشفى لتشريح الجثة والوقوف على أسباب الوفاة.

جلطة دماغية تسببت في توقف القلب والوفاة.... وصل متوفيًا.

أرفق التقرير الطبي في ملفه ووضعت الجثة في ثلاجة الموتى في انتظار أبنائه وذويه لاستلامها.

انتظروا لليوم التالي حتى حضر كل أبنائه أمام ثلاجة الموتى في مدينة الحسين الطبية كانت الدموع تنهمر ممن أحبوه، ومشت سيارة نقل الموتى تحمل نعشه إلى مثواه الأخير.

وكعادة الناس تم فتح بيت للعزاء، ثلاثة أيام متواصلة، أم علي تقوم على خدمة النساء تساعدها بنات المرحوم، وممدوح يقوم على خدمة الرجال واستقبالهم، وفي منتصف الليل ينظف المكان ويعود إلى فيلا شفيق المحامي منهك القوى لا تكاد تحمله قدماه، يغسل أسنانه ويرمي بجسده المنهك على سريره، ويغط في سبات عميق حتى صلاة الفجر، يصلي ويقرأ قليلا من القرآن،

بعض آيات فقط تعلمها ليقرأها في الصلاة. يتناول طعام الإفطار ويذهب إلى معهد محو الأمية.

كان مهتما جدًّا بدروسه وواجباته، وبدأ رويدًا رويدًا يحفظ الحروف ويهجيء بعض الكلمات. يعود إلى بيت العزاء حاملا معه ما يحتاجه البيت من التمر والقهوة والماء.

انتهت مدة العزاء وقررت ندى العودة إلى الفيلا ولكن هذه المرة لن تعود وحدها، بل سترافقها أمها الأرملة، وستدخل في مدة حداد طوال أربعة أشهر وعشرًا.

كان ممدوح سائقًا ومزارعًا وحارسًا وخادمًا ومؤنسًا، واليوم صار أبا لندى. أصبح هو الكل بالكل، يتحمل كافة المسؤوليات وباتت ندى لا تستطيع الاستغناء عنه ولو لحظة.

خلال جلسة صباحية في الحديقة نظرت إليه بعين حامدة وحانية.

- أنت يا ممدوح هبة من السماء الحمد لله ربنا عوضنا عن موتانا بوجودك معنا، لولاك لما عرفنا كيف نتصرف، بارك الله بك حقيقة إنك ابن أصول.

- العفو يا سيدتي هذا واجبي، إذا لم أقف أنا بجانبكم في هذه المحنة فمن سيقف؟

- جزاك الله خيرًا يا أستاذ ممدوح.

نظر إليها وسبر غور نظراتها وفكر بما قالت "أستاذ؟!... قالت لي أستاذ؟! هذه أول مرة أسمعها في حياتي.... هههه أستاذ! ممدوح الهامل أبو النوريات صار أستاذًا...ابسط يا عم!!! "

أيقظته من سرحانه عندما نادته:

- أستاذ ممدوح... ما بك؟

- لا شيء سيدتي لا شيء أنا سعيد بخدمتك.

قالت وهي تبتسم:

- حقا؟

- اه... والله.

- حسنًا بما إنك سعيد بخدمتي سأطلب منك، واعتبارا من الغد، أن تذهب إلى المكتب بعد دروسك. أريدك أن تجلس مكاني وتراقب العمل، فقط راقب ولا تقل أو تفعل شيئًا... وعندما أطلبك تأتي وتخبرني بكل شاردة وواردة. فأنا في مزاج لا يسمح لي بالذهاب إلى هناك ثم والدتي بحاجة لي في هذه الأيام.

شعر بالحيرة وثقل المهمة، تململ على مقعده الخشبي وقال والعرق يتصبب على جبينه:

- لكن يا سيدتي أنا لا أفهم ما يدور هناك، ولا أعرف ما الذي عليّ مراقبته...أرجوك أعفيني من هذه المهمة.

ردت مبتسمة وهي تنهض عن مقعدها:

- لا لن أعفيك. اذهب وتعرف على الموظفين، وإن اقتضى الأمر قم على خدمتهم إن شئت... أريد أن تتعلم كل شيء فلا تكن جبانًا.

- لست جبانًا أذهب للحرب أسهل عليّ من هذه المهمة التي أجهلها.

لوحت له بيدها وانصرفت إلى شأنها... تمنى لو باستطاعته إشعال سيجارة...لكن هيهات تَرْكُ التدخين كان شرطها الأول لقبولها به موظفًا.

ومرت الأيام وراح ممدوح يتعلم سر المهنة رويدًا رويدًا، حتى بات يعرف

خباياها ويكتشف ألاعيبها وأسرارها، فكم من حالات تلاعب واختلاسات اكتشفها مما عزز ثقتها به، وراحت تغدق عليه بالمكافآت.

بالأمس كانت صبية تعمل كوافيرة تقف هنا أمام هذه السكرتيرة سميرة تطلب منها، بل ترجوها أن تسمح لها بمقابلة السيد. خجولة كانت تجلس على حافة المقعد ضامة ساقيها تطلب لها سميرة السكرتيرة الأنيقة كوبًا من الشاي، ترشف منه قليلا وتتركه خجلًا.

تجلس خائفة ممسكة بأيدي المقعد، تتحدث للسيد وهو يستمع لها واضعًا نظارته السميكة على منتصف رأسه الأقرع... تخرج مبتسمة تودع سميرة بابتسامة وتمتطي المصعد نزولا إلى وسط البلد متجهة إلى محطة السرفيس.

اليوم...تدخل سيارة المرسيدس إلى مرآب المجمع، فيشاهدها أحدهم وينشر الخبر لبقية العاملين: السيدة وصلت...السيدة وصلت...استعدوا!!

يجلس كل في مكانه ينتظرون مرورها، يفتح لها السائق ممدوح الباب ممسكًا به بيد وباليد الأخرى حقيبتها السمسونايت. يمشي خلفها وهي ترد على تحايا الموظفين توزع الابتسامات. تدخل مكتبها الفخم وتبدأ باستعراض الإنجازات. ومراجعة كشوفات الحسابات والأموال المودعة في البنوك. عقود الشركات، شركات التأمين، أتعاب المحاماة، وتسأل المحاسبين هل انتهيتم من إعداد الموازنات؟ وتعود لتطمئن على أنه تم تحصيل الإيجارات وإيرادات مزارع الغور؟

- نعم سيدتي.

-حسنا أودعناها بحساب أصحابها: ربيع، وريما، ورشا، حسب العادة.

ثم تلتفت إلى مديرة العلاقات العامة فاطمة (أختها) وتأمرها بإرسال فاكس بالإيصالات إليهم.

كل هذا وممدوح يقف كالصنم خلفها يحرسها وكأنها رئيسة دولة.

وتمر الأيام وصار ممدوح يقوم بهذه الأدوار كلها على أكمل وجه، يأتي حاملًا حقيبة السمسونايت بيد، يتمطى في الممرات موزعًا ابتساماته البلهاء على الموظفين. وهم يكتمون ضحكات الاستهزاء.

مر زمن طويل على غيابه ولم تطأ قدماه أرض البلدة. في ساعة صفاء مع ندى ووالدتها بعد انقضاء أشهر العدة، سألته أم ندى:

- ألا يوجد لك أهل يا بني؟

صمت ولم يجب. أعادت السؤال:

- يقطع شرك يا مصخم أنت مقطوع من شجرة؟

تنحنح وهرش رأسه بأربعة أصابع من يده وقال:

- لا مش مقطوع من شجرة يا خالة، لكن أهل البلد طردوني عندما التحقت بالصاعقة، ولا يحبني أحد حتى أمي وأبي وأقاربي تبرؤوا مني. وأخاف إن عدت إليهم أن يهينوني وينعتونني بألقاب لا أحبها، وأنا عصبي المزاج ما عدت أحتمل الإهانة أخاف أن أرتكب حماقة بحق أحدهم.

تفاجأت بهذا الاعتراف قطبت حاجبيها وقالت:

- وأمك أليس لها حق عليك؟ إنك ولد عاق لا فائدة ترجى منك.

أحنى جبهته وراح ينكش التراب بين قدميه بعود يابس بيده: معك حق يا خالة، تعتقدين لو حاولت مصالحتها هل سترضى وتسامحني؟

- أه وليش ما ترضى.. قلب الأم يا بني ما بعرف الحقد؟ ما بكفيها حسرة

أخوك الذي هاجر وانقطعت أخباره؟ بكره الجمعة من الصبح بتسحب حالك وبتروح تصالحها.

- حاضر. بعون الله سأفعل.

قبيل صلاة الجمعة توقفت أمام المسجد الكبير في وسط البلدة سيارة مرسيدس فخمة، وترجل منها رجل يرتدي بدلة كحلية اللون، وربطة عنق حمراء ثُبِّتتْ بعناية على ياقة قميصٍ أبيض، رجل حليق الرأس والذقن أنيق تفوح منه رائحة عطر فرنسي فاخر.

خلع حذاءه المصنوع من الجلد غالي الثمن، وضعه على أعلى درجة من درجات الرف وولج إلى داخل المسجد، نظر إلى هاتفه بعناية وضعه على وضعية الصامت ثم ثبته أمامه على السجادة قريبا من نقطة السجود وتهيأ للصلاة.

صلى ركعتين لا أدري ماذا نوى لها أهي سنة أم تحية المسجد. وسلم عن اليمين والشمال وتربع منتظرًا الإمام ليستمع إلى الخطبة.

جلس وراح يتصفح وجوه المصلين جلهم لا يعرفهم، لقد تغيرت عبين كثيرًا صارت مدينة، وصار سكانها خليطًا من كل الأطياف والقبائل واتسعت رقعتها.

وقف يسلم على من يعرفهم من المصلين بعد انتهاء الصلاة. يسلمون على هذا الغريب بحرارة يحدقون به ويطيلون النظر تتغير ملامح وجوههم المبتسمة وترتسم مكان الابتسامة تكشيرة ولسان حالهم يقول: "الله لا يجيب الدرب اللي جابتك". وسمعها بأذنه من أكثر من شخص وهو جالس أمام دكان الحاج رضوان بعد أن طردته أمه ولم تستقبله في بيتها.

الهامل رجع.... أبو النوريات رجع... الحرامي رجع.

الفدائي رجع، الصايع رجع، أبو سبع أرواح رجع.

وهو صامت يمسك أعصابه بصعوبة بالغة، وقد تعلم "الإتكيت" وحسن الحوار، راح يحاول إقناعهم بأنه نادم على كل ما مضى، وأنه قد تاب وتغير.

سأله أحدهم:

- لمن هذه السيارة؟ هل سرقتها؟

رد بكل برودة أعصاب: هذه السيارة لصاحب الشركة التي أعمل فيها.

- وماذا تعمل؟ سائق ولا... مدير؟

قالها مستهزئًا.

- نعم صدقت أعمل مديرًا، وأنا بخدمتكم في أي وقت وبأي شيء تريدونه.

ثم أخرج من جيبة بطاقات تعريف مكتوب عليها اسمه ورقم هاتفه، وهاتف المكتب وعنوانه.

قال وهو يشكر الحاج رضوان على الشاي: لا تنسوا أنا بخدمتكم.

وتوجه إلى سيارته الفخمة وانطلق عائدًا إلى عمان.

استقبلته ندى وأمها وسألتاه باهتمام بالغ:

- ها خبّرنا هل تصالحتما أنت وأمك؟

طأطأ رأسه خجلا ثم هزه يمينًا وشمالًا بمعنى لا.

نظرت ندى إلى أمها وتبادلتا النظرات وقالت:

- أمك معاها حق... لكن لا عليك لا تحزن أنا وأمي سنتولى أمر إقناعها.

رفع رأسه تتملكه الدهشة:

- حقا؟ ولكن كيف؟

- دع هذا الأمر لنا.

كانت عودته محور الأحاديث بين الناس في سهراتهم وجلساتهم على مدار

الأسبوع. وقد اختلفوا في أمره بين مصدق أنه تاب وبين من يقول: "ذيل الكلب لا ينعدل".

بعد أسبوع توقفت المارسيدس مرة ثانية، إنها ذات المرسيدس ولكن هذه المرة ممدوح ليس فيها، تنزلق نافذة المقعد الخلفي المظللة بلاصق قاتم حتى لا تسمح برؤية من بالداخل قليلًا بما يسمح لأن تطل من نافذتها الخلفية سيدة تبدو على درجة كبيرة من الفخامة والرقي، وتسأل عن بيت أرملة الحاج راجي الصيرفجي. يشيرون إليها فهي ليست ببعيدة، تشكرهم السيدة وتأمر السائق بالتوجه إلى حيث أشاروا.

استقبلتهما أمه وهي محطمة الفؤاد تعاني من داء السُّكري والضغط والهجران. وضعت ندى صحنًا فاخرًا من الشوكولاتة على طاولة، كانت في المدخل وتحدثن طويلًا...

خرجت ندى وأمها وعلامات السرور بادية على محياهما تشيعهما إلى الباب الخارجي، وهي تستحلفهما بأن يعيدا الزيارة مرة أخرى:

- انتظرينا يوم الجمعة القادم وممدوح معنا بعون الله.

- يا مية أهلا وسهلًا نستناكم، ولوَّحْنَ لها بأيديهن.

هناك في عمان على أحر من الجمر، كان منتظرًا عودتهما، تهلل وجهه بشرًا وبانت السعادة واضحة على محياه. لم يكذب خبرًا مرت عليه أيام الأسبوع بطيئة بانتظار يوم الجمعة، تهندم ولبس أجمل ما لديه من الثياب وتوجه إلى هناك يحدوه الأمل بأن يمحو صفحات الماضي، صلى الجمعة كالعادة وبعد انتهاء الإمام وقف أمام الناس وبيده الميكروفون، وألقى خطابًا، لم يستمع له أغلب المصلين، ومنهم من شتمه وقال معتذرًا:

يا أهلي وعشيرتي وعزوتي عفا الله عما سلف، ها أنا بينكم أمد لكم يدي، من كان له حق عندي فليأتني أمام دكان الحاج رضوان ليأخذه من شاربي، ومن أسأت له فإنني أعتذر له... ولا تنسوا أن الله يقبل التوبة، وها أنا أقف أمامكم وأشهد الله أنني تبت. وأحمد الله أنه فتح بصيرتي وهداني إلى سواء السبيل. أولئك القلة الباقية الذين انتظروه حتى أكمل خطابه صافحوه ومضوا إلى شأنهم.

أهل البلدة أناس طيبون لكنهم لا ينسون الإساءة بالسهل، وفي الوقت نفسه لا يتخلون عن أبنائهم حتى لو كانوا فاسدين.

يروي أبو عفيف رواية الرجل المدعو جعفر الذي ضرط مرة أمام الناس ولم يعد يحتمل مناداته لهم بأبي ضرطة، فقرر الهجرة إلى البرازيل وغاب عن البلدة عشرين عامًا، رجع كهلًا وقد اختفت كل ملامحه السابقة، وفقد شعر رأسه وانحنى ظهره وراح يمشي في الطرقات وهو سعيد لأن الناس قد نسوه.

ذات يوم صافحه أحدهم فما عرفه، قال له أنا قريبكم جعفر... صمت الرجل هنيهة وقال مسرورًا: آه..... أبو ضرطة؟

خيب أماله وعاد إلى البرازيل ولم يرجع. ولم يكتفِ الناس بهذا بل صار ذلك العام تاريخًا يقولون سنة اللي ضرط جعفر.

جماعته قرروا أن يمنحوه فرصة ليختبروه ويمتحنوا صدق أقواله. تجمع الكثير منهم أمام الدكان قال له أحدهم:

- أنت سرقت بستاني.

وقال آخر: وأنت سرقت بيتي.

وعقب ثالث: وأنت سرقت دكاني.

أشار إليهم بيده مهدئًا من انفعالهم وقال:

- كل واحد يكتب الثمن الذي يريده لما سرقت ويسلمها للحاج رضوان فإن أقر بمعقوليتها رقبتي سداده واليوم قبل الغد.

راحوا يتهامسون فيما بينهم، قال قائل:

- لا... لا أصدق، هذا ليس ممدوحًا أبا النوريات الذي نعرفه... يبدو غنيًّا واثقًا من نفسه!

وقال آخر: أنا سوف أسامحه!

وتوجه نحوه وقال بملء فيه:

- اشهدوا يا رجال أنني أسامح هذا الرجل، وعانقه أمام الجميع.

- وأنا أيضًا.

- وأنا أيضًا.

- وأنا أيضًا أسامحه.

وراح الجميع يسامحونه واحدًا تلو الآخر.

قال والفرحة تغمره:

- اعلموا، وبهذه المناسبة الكريمة، أنكم كلكم مدعوون لتناول طعام الغداء يوم الجمعة القادم على البيادر.

صفقوا له.. لوح لهم بيده وانصرف إلى بيت أمه ليجدها بانتظاره هي والسيدتان وقد عفت عنه وسامحته. احتضنته وبكت على كتفه بكاء مريرًا وقد جفت الدموع من عينيها المتعبتين. اليوم عادت لها روحها المسلوبة، وعادت نبضات قلبها منتظمة وعادت إلى الحياة من جديد. وغلبت الدموع أربع أعين كانت تراقب ذلك المشهد العاطفي، قالت لها ندى وهي تحتضنها:

- من الآن لن يتركك ممدوح هنا وحدك سيأخذك معه إلى عمان.

قطب حاجبيه ونظر إلى أمها وهي تهز رأسها بحركة تفيد تأييد كلام ابنتها، ثم نظر إلى ندى وهي تعانق أمه وجاءت عينها بعينه فغمزته وابتسمت.

راحت تلهج له ولهما بالدعاء قالت:

- شكرا يا بنتي أنا لا أقوى على العيش خارج هذه البلدة الطيبة، هذه بلدتي بها ولدت وكبرت وفرحت وتألمت.... سعادتي هنا مع من أحبني من جيراني وأهلي... لن أخرج منها إلا إلى القبر.

يئسوا من إقناعها فودعوها بعد أن تناولوا المنسف الأرني وعادوا إلى عمان.

كان يخطف النظرة بين الحين والآخر عبر المرآة التي تكشف من تجلس خلفه تبادله النظرة والابتسامة، ولم يعد خافيًا عليه معنى تلك النظرات التي تفضح أسرار القلوب، والقلوب لا تكذب أصحابها.

قالت له وهو ممسك باب السيارة لها كي تنزل:

- من الآن وصاعدًا أنت غير معني بالحديقة ولا المشتريات. سيكون مكانك في شركتنا الجديدة. لقد تم مناقشة الأمر في مجلس الإدارة وتم الاتفاق على تعيينك مديرًا لها، وسيتم تخصيص شقة مستقلة لك أنت ووالدتك في ضاحية الرشيد، وسيارة خاصة مع سائق إن شئت. كما أنني لست بحاجة لسائق فكما ترى أنني أحمل رخصة سواقة وأنني صرت محترفة بالقيادة بعدما أخفقت مرتين في الفحص العملي.

تتعالى الضحكات قال لها ضاحكًا:

- أنت رفضت الواسطة وإلا كنت ستأخذينها من غير حتى فحص.

- لا...لا... أردت أن آخذها بجدارة.

ثم أضافت:

- سلم مفاتيح السيارة وابحث لنا عن مزارع يساعد أم علي في أعمال الحديقة والمنزل، فهي لا تستطيع القيام بكل ذلك، وبالنسبة لبركة السباحة فقد أوكلت شركة خاصة للعناية بها.

- حاضر طلباتك أوامر ستي.

قالت معترضة:

- على فكرة هذه آخر مرة أسمعها منك ستي... نادني باسمي... إلا إذا كان اسمي لا يعجبك.

قال وهو ينظر إلى الأسفل:

- استغفر الله ستي!!

صرخت بوجهه:

- ستي ستي ستي كفاك قولها ألا تفهم.

- حاضر.... حاضر.. على راسي.

- أكمل.... ما بك؟

- حاضر ست ندى.

تضحك وتنهض ملوحِّة له بيدها تتجه إلى الداخل.

*****

الخاتمة

مضى عامان على عمله في الشركة اكتسب خلالهما خبرات كثيرة، وبنى علاقات مع العديد من رجال الأعمال وموظفي الدولة. وظلت ندى محافظة على المسافة بينهما، وكل يوم تزداد محبتها له وإعجابها به، وكان يشكل مظلة حماية لها ولمصالحها في ظل غياب الآخرين حيث ذهب كلٌّ لغايته.

لم يكن غبيًّا لكنه تغابى وأخفى مشاعره تجاهها؛ خوفًا أن تتهمه بالطمع في ثروتها وجاهها. ظل متماسكًا صلبًا ومخلصًا لها طوال تلك السنين، حتى طلبت منه ذات يوم مرافقتها إلى حفل زواج إحدى صديقاتها، قالت: إن الحفل للعائلات وهي تخجل من دخولها وحيدةً، ستنتشي وترتفع معنوياتها إن رافقها... بكل سرور وسعادة لبى الدعوة.

لبست فستانًا ليلكيًا عاري الكتفين، ضيقًا من الأعلى واسعًا فضفاضًا من الأسفل، يغطي كامل جسدها، وبكعبها العالي تمشي كملكة.

وارتدى هو بدلة سوداء بدت عليه في غاية الروعة، حليق الذقن والرأس، يضع في بنصره خاتمًا ذهبيًّا، وفي معصمه ساعة فخمة ماركة رولكس أهدتها له هي.

ذهبا متأخرين.. نزلا من السيارة وتركا أمر ركنها للفالية. يستقبلهما على مدخل الفندق رجل بلباس فلكلوري بكوفية حمراء وقد توشح بحزام جلدي غرس بداخله الشبرية، يرحب بهما ويقودهما إلى مدخل الصالة... يواصلان تقدمهما بين باقات الزهور، خطوتان وتستوقفهما فتاة بيدها علبة صغيرة

للذكرى ويقومان بكتابة أسطر للعروسين على كتيب وضع على منضدة خصيصى لهذه الغاية أمام لوحة عليها صورة للعروسين.

يقودهما البساط العجمي الأحمر إلى حيث يتواجد العروسان، يضطران للهبوط على سلم رخامي عريض يتسع لعشرة أشخاص محاذين لبعضهم البعض.

ما إن وضعا أول قدم على أول درجة حتى بانت لهم أرضية الصالة الفخمة تنيرها ثريا ضخمة معلقة في السقف، وقد اصطفت عليها عشرات المناضد ذات العشرة كراسي عن اليمين وعن الشمال. والبساط العجمي الأحمر يستمر بالمسير حتى يصل إلى البست، أو ما يسمى بالدانس فلور..

ما زالا ينظران بإعجاب إلى تلك اللوحة الملونة من الضيوف الذين جاؤوا يرتدون أجمل ما لديهم واحتلوا مقاعدهم بشكل دائري.

تحلقوا حول تلك المناضد المغطاة بملاءات بيضاء، وضع فوقها باقات الزهور الطبيعية بمزهريات كريستالية توحي بفخامة المكان. وتناثرت حولها علب الهدايا وكؤوس العصير والماء والمحارم الورقية.

نظرت ندى إلى الصالة نظرة شمولية فاحصة وجالت ببصرها ماسحة كل ركن في المكان. تأملت وجوه المدعوين هناك ورأت كل العيون متجهة نحوهما.

وعلى يمين الصالة قبل الوصول إلى المناضد وقف أهالي العروسين يستقبلون الضيوف يصافحونهم، وتأتي فتاة جميلة ترتدي ثيابًا خاصة لمثل هذه المناسبة تقتادهم إلى حيث سيجلسون.

شاهدتهم ينظرون إليهما والابتسامة واضحة على محيا الجميع.

بكعبها العالي وفستانها الطويل كانت تنزل السلم بصعوبة حتى كادت أن تتعثر بثوبها وتسقط، أو هكذا افتعلت الحركة ليهب ممدوح للإمساك بها فتتعلق بذراعه وتواصل المسير وهي متعلقة بذراعه باتجاه المستقبلين. ودهشة من يعرفونهم من الحضور وهم كثر، وبهذا تكون قد وضعت حدًّا لكل من تقدموا ومن يفكرون بالتقدم لطلب يدها.

اقتادتهما شابة من أهل العروس واختارت لهما مكانا ضمن تلك المجموعة، جلست بجانبه وطوال الحفلة لم تنزع يدها من يده إلا لكي تشارك بالتصفيق أو الأكل.

سرت في جسده تلك الشحنات الكهربائية، لأول مرة في حياته يدرك معنى الحب، وهام في اللاوجود يتخيل المستقبل مع هذه المرأة التي هبطت عليه من السماء دون سابق إنذار. منذ ذلك اليوم ظلت يداهما متشابكتين وباحت له بمكنون صدرها وبادلها هو البوح.

عادت مراهقة تستهويها قصص الغرام وأفلام الحب، وراحت تدون في مذكراتها أبيات شعرية أو خواطر تهديها إليه، ولكن للأسف ذهبت كل دروس محو الأمية سدى وما زال عاجزًا عن القراءة والكتابة؛ ولأنه لا يستطيع قراءتها أو فهمها أو حتى استيعابها فكانت تخبئها في درج مكتبها.

ذات يوم عثر على قصاصة في حقيبتها عندما رن هاتفها وطلبت منه أن يناولها إياه لترد على مكالمة.

احتفظ بها وطلب من خليل أن يقرأها له:

حبيبي:

(دعني أقلب في صفحات الحب

وأمسك تلك الزهور مع الليالي

استدعي العمر الجميل

كي أرسم صورة تكشف الحلم الذي تعسر بالأمس وعنوانه الحنين

أصبغ حروف قصيدتي بالعنبر أعطر الصباح وأرسل همسات عشق إلى كل العالم في هواك)

أيها الساحر:

أنا امرأة أنانية... نرجسية ومجنونة.... أعترف أمام الجميع.

ولا يهم... فلتفهم سيدي... لا ترتدي بدلة رسمية... ولا تضع عطر شانيل الساحر

ولا تسرح شعرك بطريقة الموجة الأمامية....

قم بحلاقة ذقنك التي تثير أنوثتهن... سأخالفهن... سأعترض أفكاري وسيفيض بوحي... وسأعري ذهني من قيوده.... رغم ثقتي بحبك لي... لكن للنساء ألف طريقة لخطف قلب رجل ولو كان عابدًا ناسكًا.

أيها المارد:

لا أحتمل فكرة وجود امرأة على هاتفك غير أمك... حتى إنني أغار منها عندما تضع رأسك على قدميها متوسدًا أحضانها كطفل صغير..

اعذرني فأنا من كوكب منفرد مستقل أنثويا... فلنرتحل معا حيث لا آثار

لأقدام نساء غيري تعتلي عرشك وتوثق على جبينك قبلة صباحية لا تشبه شفتي إطلاقًا.

ظل يرددها حتى حفظها عن ظهر قلب وأسمعها إياها... فغرت فاها ووضعت يدها على فمها وهي في غاية النشوة... كيف... كيف... وأين وجدتها وكيف حفظتها؟ راحت تسأل وهي تعانقه بحرارة.

لم تسأل عن ماضيه ولا نسبه ولا ماله، ولا همها جهله واستعباطه، أحبته فقط لرجولته وشعورها بالأمان معه... تزوجا بسرعة وراح المال يجري بيده كالسيل الجارف.

أول عمل قام به هو تعيين خليل مساعدًا له وخصص له راتبًا عاليًا وسيارة، وراح يصطحبه أينما حل وارتحل ليقرأ ويكتب له ما لا يستطيع قراءته. كان حارسًا شخصيًّا وبوقًا ناطقًا باسمه أكثر مما هو مساعد.

وراح خليل يبث له الدعايات في البلدة، وانهال عليه أهلها يطلبون المساعدة في إيجاد عمل لأبنائهم العاطلين عن العمل.

سعى في خدمتهم ووظف أعدادًا منهم... وتصدق على الفقراء... وشاركهم أفراحهم... يجزل في العطاء لمن يتزوجون أو ينجحون في التوجيهي، أو يتخرجون من الجامعة... وشاركهم أتراحهم وأحزانهم... يرسل الطعام للمناقيص المنكوبين، ويعود مرضاهم... ويغدق عليهم بالنقود. واستبدل فرش المسجد وزينه بالثريا، وزوده بالمدافئ بدلًا من التي سرقها اللصوص في العام الماضي. وسدد ديون المخابز واللحامين وفواتير الماء والكهرباء عن المديونين.

وكانت السيدة ندى تأتي معه إلى البلدة توزع أموال الزكاة على المحتاجين، وكفل العديد من الأيتام... وطلبة الجامعات.

وتتم نعمة الله عليهما، فقد حملت ندى بطفل أنابيب وولدت غلامًا جميلًا أسموه "راجي" يشبهها ولا يشبه أباه. كانت فرحتهما به لا توصف. أقاموا الأفراح والليالي الملاح، وقدم الولائم والكنافة لأهالي البلدة كافة على البيادر.

وكلف خليل أحد المهندسين العاملين لديه ببناء قصر له في أرضه تلك التي كانت مزروعة قمح ذات يوم، وكان يغلي بها الشاي للحصادين، وقد اختفى منها الهسهس والفئران، بل وحتى طيور القبرة ما عادت تجد لنفسها مكانًا بين تلك المزروعات الإسمنتية. وخصص به جناحًا فارها لأمه، وجعل لها مجلسًا تستقبل فيه كل يوم عشرات النساء ممن يطلبن المساعدات النقدية أو الوظائف لأبنائهن، ناهيك عن العديد من النسوة اللاتي كرسن أنفسهن لخدمتها لما كانت تجود به كفها عليهن.

اختفت حقول القمح والعدس والشعير واختفت قطعان الماشية. الرعاة تركوا المهنة... وإبراهيم الخباز أصبح رجلًا عجوزًا يشتري الخبز من مخبز آلي، وأرسل أبناءه إلى الجيش ما عدا واحدًا منهم كان خطاطًا ماهرًا افتتح محلا للتخطيط.

والحصادون... غادروا البلدة واستقروا في سهول حوران، والحلاق أصيب بجلطة دماغية، ولم يرث أبناؤه مهنته، وافتتحت عشرات الصالونات للحلاقة، وارتفعت البنايات الشاهقة والقصور الفارهة والفلل الفخمة مكان بساتين اللوز والتفاح، واتسعت رقعة الشوارع مع إنشاء ما يسمى بالبلدية، وبنيت بها عدة مدارس للبنين والبنات، وبها عشرات المساجد ومستشفى حديث وجامعة

حديثة، وفندق فخم والعديد من صالات الأفراح الفخمة. وصارت تزخر بالمحلات التجارية والمعارض والصناعات الخفيفة. وكثر بها المتعلمون والعلماء وحملة الشهادات العلمية العليا.

وها هي الانتخابات النيابية على الأبواب، خليل يترأس حملة الأستاذ ممدوح الصيرفجي المكنى بأبي راجي، بنى صيوانا لا يضاهيه صيوان في المحافظة كلها.... وراح يجمع حوله من كانوا قد نالهم شيء من عطاياه الكثيرة.

المنافسة كانت قوية وفتحت الدولة باب الترشيح، وها هو يذهب ليرشح نفسه، وقف أمام المأمور وطلب منه تقديم بعض الأوراق وتعبئة نموذج الترشيح.

كان برفقته خليل يعبئ له النموذج، عندما وصل إلى خانة المؤهل العلمي احتار ماذا سيكتب. أخيرًا كتب لا شيء. وانتهى باب التسجيل وأعلنت أسماء المرشحين وهم: البروفيسور رائد عبد الحي، والبروفيسور ماجد محمود، والبروفيسور خالد عبد الصمد، والبروفيسوره رغداء مصطفى، والدكتوره شيماء عبد الله، والدكتوره ريتا جريس، والدكتور سمير نوبار، والدكتور أحمد عبد المجيد، والدكتور محمد علي، والدكتور علي الشيخ، والدكتور راضي المر، والدكتور سالم منصور، والدكتور زايد أبو الهيل، والدكتور باسل مرابعي، والدكتورة شمايل البدري، والدكتور طه العرجا، والمهندس سمير سعيد، والمهندس فايز فريد، والمهندس رابح صيدون، والمهندس كمال مهاجر، والمهندس عبد الرزاق لطفي، والأستاذ عبدالله المرزوق، والأستاذ عبد الحي الشاطر، والأستاذ بطرس سركيس، والأستاذ عبد الشكور شكري، ورجل الأعمال ممدوح الصيرفجي، ورجل الأعمال عبد الشكور بلوط، والسيد عبد

المولى زعرور، والسيد حابس برجس، والسيد طارق برقوق، والسيد إلياس حنا، السيدة نزيه عبدو، والسيدة فاطمة محمد، والسيدة إلهام عبود[٢٦].

قبل الانتخابات ينشط المؤيدون للدعاية لمرشحيهم، تبنى الصواوين وتعقد حلقات الخطب الرنانة، وتتلى بيانات المرشحين ووعودهم للمواطنين وللوطن. وتدار ندوات للحوار بين المرشحين كل يحاول إثبات وجهة نظره ليكسب أكبر عدد من الأصوات.

اللافتات القماشية تتأرجح بين أعمدة الكهرباء والهاتف تحمل صور المرشحين والعبارات الرنانة من الوعود الكاذبة. جدران البيوت وواجهات المحال التجارية أيضًا عجت بصور المرشحين. أسوار المدارس تلطخت بشتى أنواع الأحبار والصور ولا ننسى تلك الصور المثبتة على الزجاج الخلفي للسيارات.

تزخر الصواوين بالولائم والحلويات على مدار شهر كامل، وترتفع اللافتات التي تحمل صور وشعارات المرشحين الرنانة.

ويأتي يوم الفصل يوم الاقتراع، تزدحم الشوارع بالسيارات المطلقة العنان لزواميرها والهتافات والرايات المرفوعة وتجوب النساء البيوت يشجعن القواعد منهن على التصويت.

لكن للمال سحر نافذ، كان خليل ومعه شلة ممن أغراهم بالمال تسللوا إلى عقول ضعفاء الأنفس واشتروا ذممهم بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة. وتعلن وزارة

---

٢٦ هذه الأسماء من نسج خيال الكاتب ولا علاقة لها بأي شخصية قد تتشابه معها في الاسم دون قصد.

الداخلية عن انتهاء مدة التصويت ضمن تأكيدات بأن النسبة كانت عالية، وأن المشاركة في هذا العرس الوطني فاقت كل التوقعات... وأن الانتخابات كانت نزيهة لم تشبها أية شائبة، وأن الدولة تقف على نفس المسافة من كافة المرشحين في المملكة. وتظهر النتائج مع نسائم الفجر وكانت الصفة الغالبة هي من رجال الأعمال. لا بروفيسور، ولا دكتور، ولا مهندس ولا معلم.... رجال المال هم الفائزون.

وها هو ممدوح الآن يجلس تحت القبة ليشرّع ويرسم سياسة الوطن ومستقبله. يستقبل ولا يرسل، وأحيانًا لا يستقبل ولا يرسل، بل ينام في المجلس أو يتبادل الحلوى والمكسرات مع من بجانبه. وغالبًا ما نراه في حالة هياج يصفق مؤيدًا لا معارضًا ولا مانع لديه من رشق أحد زملائه بقارورة ماء، أو سحب مسدس وربما بندقية. غير رقم هاتفه وأوكل "خليل" بالرد على طلبات الناس وقال له (حط بالخرج).

ذكر شاهد عيان أنه شاهد في مطار الملكة علياء وعلى كاونتر كبار الشخصيات، شاهد سعادة النائب ممدوح الصيرفجي بعد أن فاز بالانتخابات النيابية للمرة الثانية مع عروسه العشرينية يغادران إلى باريس لقضاء شهر العسل....

والله ونقشت معك يا ممدوح وزغرتيله يا ندى!!

تمت بحمد الله

دكان الحاج رضوان

تأليف الكاتب /عاطف رضوان المومني

hasanmufdy@yahoo.com

atef-22173@hotmail.com

هاتف /واتس أب: ٠٠٩٧٤٥٥٨٣١٢٨٢/قطر

٠٠٩٦٢٧٧٧٥٨٢١٢٥هاتف /واتس أب /الأردن